

فكر علمي
ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

290



فكر علمي
ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

290

أيلول – تشرين الأول ١٩٩٩

محتويات العدد

أدب وفن

- لوحة الغلاف الأول: تضاريس، للفنان علاء محمد
- لوحة الغلاف الثاني: منظر من أهوار العراق

أغلق التحرير في أواخر آب ١٩٩٩

مقابلة مع د. عباس النصراوي حول:

بعض جوانب العولمة

أثناء زيارة الأستاذ د. عباس النصراوي لندن لحضور المؤتمر السنوي، أواخر العام الماضي، للمنتدى الاقتصادي العراقي، الذي رأسه لثلاث سنين، أجرت (الثقافة الجديدة) معه حواراً حول بعض جوانب العولمة.

معلوم أن الدولة لعبت دوراً كبيراً سواء في توجيه أو في تخطيط الحياة الاقتصادية. لكن العديد من الكتاب يقول إن العولمة، التي يتسع نطاقها، ما عادت تسمح للدولة بالتدخل النافع في الاقتصاد. وهذا المنطق يقود الى الاذعان والاستسلام للأمر الواقع، أليس كذلك؟

هناك نقطتان بشأن دور الدولة. أولاً، ينحسر دورها في تنظيم النشاط الاقتصادي في ظل العولمة التي تقتضي مثلاً إزالة القيود على حركة رؤوس الأموال بين البلدان، وكذلك إطلاق الحرية للسوق، وما الى ذلك. لكن الدولة سيبقى لها دور هام في الحياة الاقتصادية. وهذا ما يؤكده حتى تقرير (البنك الدولي) في الآونة الأخيرة، ربما في تقريره لسنة ١٩٩٧، فللدولة دور مهم مثلاً في البنى الارتكازية، والسياسات المالية والنقدية، وتنظيم العلاقات التعاقدية، وحماية الملكية الخاصة. ولعل من الأهم دور الدولة في تعليم وتأهيل قوى العمل، ودورها في توفير الخدمات الاجتماعية، وفي حماية البيئة من الخراب. ولهذه الأمور أهمية اقتصادية سواء كانت عاجلة أو آجلة.

لعل ذلك يسري على البلدان المتقدمة اقتصادياً أكثر منه على بلداننا. فلنتحدث أولاً عن دور الدولة في التنمية في العالم الثالث.

من حيث التصنيف، هناك البلدان النامية حسب المفهوم التقليدي، والبلدان حديثة التصنيع في آسيا التي تسمى "النمور الآسيوية". فلم يكن بإمكان هذه "النمور" أن تصل هذا المستوى من التقدم الاقتصادي بدون الدور الأساسي الذي لعبته الدولة. وقد أشرت الى أهمية هذا الدور في اللقاء السابق (أنظر العدد ٢٩٣ – ث جـ) فقد عملت الدولة على تشجيع الاستثمار والتصدير من قبل الشركات الكبرى التي رعتها الدولة من خلال الهيمنة الحكومية على البنوك، وكذلك من خلال السياسة الضريبية والتشريعات، الخ. كما أنها أجرت إصلاحاً زراعياً يوفر مناخاً أفضل للتصنيع..

البلدان النامية الأخرى بحاجة الى دور الدولة بدرجة أكبر في الوقت الحاضر. فسيرورة التنمية فيها تحتاج حماية الصناعة المحلية من منافسة الشركات الأجنبية وكذلك تشجيع هذه الصناعة. فهذه البلدان بحاجة الى دور المستثمر ودور المنظم أو الموجه، لكن إمكانيات القطاع الخاص المحلي المتواضعة لا تتيح له، من الناحية العملية، النهوض بمشاريع ضخمة، لذلك لابد من تولي الدولة مثل هذه المشاريع.

لكن هذا يتعارض مع متطلبات انخراط هذه البدان في سياق العولمة، باعتبار الطريق الأوحد للتنمية كما يقال.

هناك إعادة نظر بهذا الشأن، بعد الأزمة التي ضربت جنوب شرق آسيا، فقد تراجع الحديث عن العولمة المطلقة. وحتى في أدبيات المؤسسات الدولية الهامة، التي دفعت العولمة الى أمام، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، أخذنا نقرأ كلاماً يدور حول ضرورة تنظيم حركة رؤوس الأموال، خاصة حركة الأموال قصيرة المدى، وحول أهمية توفير حماية للطبقات التي تتضرر من العولمة والأزمة المالية والاقتصادية فالمهم أن دعاة العولمة يدركون الآن أنها لم تحقق النجاح الذي تنبأوا به. فالبنك الدولي يدعو الآن الى ضرورة توجيه التنمية الوجهة التي يشمل تأثيرها الطبقات الفقيرة أيضاً.

هذا يعني أن طروحات البنك الدولي صارت الآن الى يسار طروحات الكتّاب الذين يدعون الى أن ترفع الدولة يدها تماماً عن الاقتصاد، وذلك كردّ فعل لهيمنة الدولة على الاقتصاد في السابق، باعتبار تلك الهيمنة سبب الدكتاتورية في التجربة الاشتراكية وتجربة بلدان مثل العراق، حيث أهدرت الموارد الاقتصادية في غياب الرقابة التي توفرها الديمقراطية

السياسية. ولكن إزالة الضوابط والقيود على نشاط القطاع الخاص أدت في هذه البلـــدان الى انطلاق رأسمالية متوحشة تزيد الهوة بين الأثرياء والغالبية الكادحة التـــي يدفعـــها السخط واليأس الى تأييد الحركات والتيارات المعادية للديمقراطية التي تبشرها بـالخلاص العاجل من الفقر والعسف فور استلام السلطة.

دعاة العولمة لا يولون اهتماماً كبيراً للنتائج الاجتماعية للعولمـــة، اعتقـــاداً منـــهم أن العولمة تؤدي الى التقدم الاقتصادي الذي من شأنه، في آخر المطاف، رفع مستوى معيشـــة الفقراء أيضاً. قد يكون هذا صحيحاً على المدى الطويل، كما حصل في البلدان الصناعيـــة المتقدمة بعد عشرات السنين من التصنيع. لكن فقراء اليوم لن يقبلـــوا الصـــبر عشـــرات السنين على المعاناة والتهميش الناجمين عن انطلاق الرأسمالية المتوحشة في ظل العولمة. لهذا أرى أن تدخل الدولة يمكن أن يحمي الفئات الأفقر من الآثار السلبية للعولمة، وذلـــك من خلال سياسات لإعادة توزيع الدخل من الأغنى الى الأفقر.

حتى في البلدان المتقدمة صناعياً هناك اليوم معارضة واسعة نسبية لإزالة كـــل القيـــود على النشاط الاقتصادي، وللادعاء بأن العولمة تشل دور الدولة الاقتصادي. فرغم طغيـــان الفكر الليبرالي الجديد، ليس من السهل القبول بسياسات تؤدي الى اتساع الفجـــوة بيـــن السكان من حيث الثروة وتهميش نسبة منهم فـــي دوامـــة البطالـــة المزمنـــة والآفـــات الاجتماعية المترتبة عليها. هيوز، أحد قادة الحزب الديمقراطي الحر في بريطانيا يقـــول إن بلادنا ذات مجتمعين: أثرياء وفقراء. أما دعاة العولمة فيقولون إنها جعلت الحكومـــات عاجزة، مثلاً، عن ضبط حركة رؤوس الأموال بين البلدان لأنها تجري من خـــلال أزرار الكومبيوتر.

هذه الحالة مدار جدل حام. فحجم الأموال التي تجتاز الحـــدود للمضاربـــة بالعملـــة وغيرها تبلغ ١٢٠٠ مليار دولار عالمياً في اليوم الواحد. إنها أموال تنشد الربح الخـــاطف من خلال المضاربة بالنقد الأجنبي والأسهم وبذلك تؤثر على مصائر شـــعوب وطبقـــات. المطالبة بإخضاع هذه الحركة مشروعة تماماً. فكيف توصلنا الى حجم هذه الأموال؟ طبعـــاً من خلال التقارير الرسمية للدول وللمنظمات الدولية. فضبط حركتها ممكـــن تكنولوجيـــاً وهذا يسري على الشركات متعددة الجنسيات أيضاً. وهناك إجراءات فعالة للحد من ســـلبية هذه الحركة. وقد اتخذت الصين وشيلي وماليزيا إجراءات ساعدتها على تفادي الانـــهيار المالي جراء المضاربات، هذا يسري على الشركات متعدد الجنسيات أيضاً. طبعـــاً دعـــاة

العولمة لا ترضيهم هذه الإجراءات. إذا أرادت الدولة حماية اقتصادها، فهي قادرة. في الستينات أرادت الإدارة الأمريكية حماية ميزان المدفوعات، فأصدرت كل شركة أمريكية تريد استثمار أموال خارج أمريكا أن تحصل على موافقة مسبقة بذلك، هذا على سبيل المثال.

في بريطانيا تنادي حكومة توني بلير مثلاً بمرونة سوق العمل عن طريق تقليص الضوابط على التشغيل ضمن إجراءات جعل مناخ الاستثمار جذاباً للاستثمارات الأجنبية. وبالفعل جاءت استثمارات ألمانية ويابانية وكورية، وغيرها طبعاً، في الصناعة وقطاعات أخرى. كما أن هذه المرونة تمكّن الشركات المحلية من الحفاظ على قدرة التنافس في الخارج. هذا يعني إبقاء الأجور والرواتب أوطأ منها في بلدان صناعية أخرى.

عاجلاً أو آجلاً ستعمل البلدان الأخرى على تطبيق ذات السياسة لحماية اقتصادها. ثم إن بريطانيا أو غيرها من البلدان الصناعية لا تستطيع منافسة البلدان النامية من حيث قلة الضرائب والأجور والرواتب وضعف ضوابط البيئة فيها.

نعود، بعد هذا الاستطراد، الى هموم البلدان النامية. فقبل أزمة جنوب شرق آسيا كان يتردد شعار محاكاة "النمور الآسيوية" في تنمية مختلف البلدان النامية. فقد حققت النمور تنمية اقتصادية استثنائية طيلة عقود من السنين. فهل فقد هذا النموذج بريقه بعد الأزمة؟

كما ذكرنا في اللقاء السابق، فإن هذا النموذج نشأ في ظروف خاصة لم تعد قائمة الآن، إنها ظروف الحرب الباردة التي جعلت أمريكا وبقية الدول الغربية تشجع التنمية في بلدان اعتبرتها معرضة للتحول الى الاشتراكية ثم إننا عند الحديث عن هذه البلدان ينبغي ألا ننسى أن مجموع سكانها يشكل نسبة ضئيلة من مجموع سكان البلدان النامية. أضف الى ذلك أن نموذج التنمية في النمور وصل الى حدوده واصطدم بالواقع العالمي الجديد، اصطدم بالعولمة بعد انتهاء الحرب الباردة. وحتى لو فرضنا أن هذا النموذج ساد في العالم الثالث بأجمعه، فإن العالم سيشهد زيادة هائلة في الإنتاج بينما الطاقات الإنتاجية حالياً في الدول الصناعية غير مستنفدة كلياً، أي أن هناك طاقات عاطلة. وهكذا نرى أن البنك المركزي الأمريكي (الفيدرالي) سارع الى تخفيض سعر الفائدة أثناء الأزمة الآسيوية وذلك بهدف حفز الشركات على الاقتراض والاستثمار لتفادي عدوى الأزمة.

في بريطانيا أيضاً خفض البنك المركزي سعر الفائدة عدة مرات لحفز الاقتصاد بعد أن ساد التشاؤم رجال الأعمال والمال أثناء الأزمة الآسيوية. وهكذا نرى أن العولمة لم تحرم الدولة من وسائل التدخل والتأثير على مسار الاقتصاد.

طبعاً، للدولة دور لن تتخلى عنه. فهي مثلاً تنظم سبل إنقاذ الشركات العملاقة من الإفلاس خوفاً من تداعيات انهيارها. ومن الأحداث البارزة في هذا الشأن مؤخراً تنظيم الإدارة الأمريكية لعملية انتشال The Hedge Fund في نيويورك من الانهيار. فنظم البنك المركزي (كونسورسيوم) من البنوك للاستثمار في تلك المؤسسة وإنقاذها من الإفلاس وتداعياته على عموم الاقتصاد، ومن ثم تولى الإشراف عليها، هذا مع العلم أنها شركة خاصة عملاقة.

عطفاً على المقابلة السابقة، وليس بمعزل عن تداعيات العولمة التي نحن بصددها الآن، هل وصلت بلدان جنوب شرق آسيا قعر الأزمة الاقتصادية وباتت على وشك استئناف النمو الاقتصادي؟

ما نشر من تقارير عن المنطقة لا يدل على أن الانكماش قد توقف، وعلينا انتظار التقارير القادمة لرؤية الاتجاه الذي يسير عليه اقتصادها، في ظل العولمة. لقد حلت البطالة بملايين العاملين في المنطقة وتقلص الإنفاق الحكومي على الخدمات الضرورية، من صحة وتعليم وما إليهما، وكل ذلك أدى الى هبوط المستوى الفعلي للمعيشة.

هذا على مستوى البلد الواحد. لكننا نلاحظ أن الفجوة بين الأثرياء والفقراء تتسع بين البلدان أيضاً بحيث يتفاقم تخلف العالم الثالث قياساً الى البلدان الصناعية المتقدمة. فهل ترى من أفق للتوجه الى إعادة توزيع الموارد على نطاق العالم لوقف هذا التفاقم والشروع بتضييق الفجوة بين العالمين، خاصة وأن العديد من المثقفين الإنسانيين ينادون بمعالجة هذه المشكلة الخطيرة؟

أنا في الواقع غير متفائل. لنتذكر أن ٨٥% من مجموع سكان العالم يعيشون في العالم الثالث مقابل ١٥% من المجموع في البلدان الصناعية التي تستهلك الجزء الأعظم من الإنتاج العالمي استهلاكاً فيه الكثير من الإسراف، في حين أن فقراء العالم الثالث تعوزهم أكثر متطلبات الحياة العصرية، إن لم تضربهم المجاعات. (الفرد الأمريكي، مثلاً، يستهلك بالمعدل ٥٥ مثل ما يستهلك الفرد في العالم الثالث) وذلك لأن ٧٥% من الإنتاج العالمي يستهلك من قبل الخمس عشرة بالمئة من سكان العالم، أي من سكان البلدان

المتقدمة كما يستفاد من إحصاءات الأمم المتحدة. حتى الآن لا نلمح توجها ملموسا الى إعادة توزيع الموارد لصالح العالم الثالث. في سنوات قليلة من السبعينات، كانت بلدان أوبيك تحاول المبادرة بهذا الاتجاه. لكن المحاولة تلاشت لعوامل عديدة. مازال مليار من البشر يعيشون على ما يعادل دولارا واحدا في اليوم حسب تقرير البنك الدولي، وثلاثة مليارات من البشر يعيشون على أقل من دولارين يوميا.

النظرة السلبية لسيرورة العولمة تنطلق من تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية حتى الآن. ولئن تجسدت العولمة في الاقتصاد قبل كل شيء، فإن لها، كما نعرف، آثارها الثقافية والسياسية حتى للبلدان المتخلفة اقتصاديا. لنأخذ، على سبيل المثال، دخول قنوات التلفزيون العالمية أسوار البيوت المحيطة بالمرأة في السعودية واليمن الشمالي، وذلك عبر الصحون اللاقطة. فلابد أن تساعد هذه الظاهرة على يقظة المرأة، مثلا، وتحركها للمطالبة بالتحرر. ثم هناك النمو الهائل لمعرفة وخبرة الصغار. ولا ننسى، في سخطنا على الرأسمالية، والواقع المأساوي لعالمنا الثالث المبتلى بمساوئها، أن العولمة الاقتصادية لم تنطلق وتتسارع بدون الثورة العلمية التكنولوجية التي تجسد، في نهاية المطاف، تقدما للإنسان. فالمطلوب عدم الاستسلام أمام سلبيات العولمة بالعمل على تحويل عولمة رأس المال الى عولمة حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

كاقتصادي، مختص بالدول النامية، لابد أن أركز الاهتمام على العواقب الاقتصادية الوخيمة لمسار العولمة في العالم الثالث. وهذا ضروري لإشاعة الوعي اللازم لتحريك المقاومة لوجهة العولمة. وهي معركة شاقة طويلة المدى لأنها تمس مصالح الشركات الكبرى متعددة الجنسيات ودولها المستفيدة من العولمة والداعية الى سيادتها المطلقة. ومن الواضح أن للعولمة جوانب ثقافية وسياسية واجتماعية إيجابية، ولكن للعولمة الثقافية جوانبها السلبية كضياع الهوية الثقافية وما يؤدي ذلك، بالارتباط مع الإفقار واليأس في ظل العولمة، الى تنامي تيارات أشد رجعية. فينبغي تعبئة تيار ديمقراطي واسع محليا وعالميا للحد من سلبيات العولمة على حياة ومصائر الناس ولجم الشركات متعددة الجنسيات. فالعولمة واقع موضوعي ينبغي عدم الاستسلام أمام سلبياته.

مساهمة في قراءة مشاريع ملتبسة لحل القضية العراقية

(٢ من ٢)

د. صالح ياسر

المبحث الرابع: سيناريو الردع

ينطلق هذا السيناريو من فكرة أن النظام العراقي على الأرجح باق في الحكم. لذلك يدعو الى التعامل معه على أساس أن أي تحرش عراقي عسكري ضد القوات الأمريكية المتواجدة في منطقة الخليج، أو ضد أي من مصالح الولايات المتحدة، ومصالح حلفائها من شأنه أن يحمل الحكومة الأمريكية على القيام برد عسكري سريع ومكثف.

ثمة تحول إذن في الاستراتيجية الأمريكية فيما يتعلق بأولوياتها، إذ يلاحظ المرء أن سياسة الردع تنطلق من افتراض بأن العراق لم يعد (يشكل مشكلة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة)، ولهذا يتعين على الولايات المتحدة التعامل مع أي تحد عراقي للمصالح الأمريكية ومصالح حلفائها بالتهديد بالقوة. وبعبارة أكثر وضوحاً فإن سياسة الردع تدافع عن عدم التأكيد على العراق كقضية في السياسة الخارجية الأمريكية وفي التعامل مع حلفاء أمريكا في مجلس الأمن الدولي. وهذا لا يعني إخراج العراق من جدول السياسة الخارجية الأمريكية في الأمم المتحدة، بل إن سياسة الردع تسعى الى إنهاء الحالة "الاستثنائية" للعراق بوضعه في سياق اهتمامات الولايات المتحدة العالمية حول نشر الأسلحة. وطبقاً لوجهة النظر هذه، فإن التهديد العراقي للمصالح الأمريكية قد بُولغ فيه وإنه قد يصبح في المستقبل عائقاً أمام علاقات واشنطن مع موسكو وباريس وبكين.

تهدف سياسة الردع الى إظهار تصميم ومقدرة الولايات المتحدة على توجيه رد عسكري مكثف لردع النظام العراقي عن مهاجمة جيرانه، وبالتالي فإن هذه السياسة تهدف إذن الى إرسال رسالة الى النظام العراقي بأن أي تحد عراقي لمصالح أمريكا وحلفائها في المنطقة سيواجه برد عسكري أمريكي سريع وكثيف بعيداً عن المجابهات السابقة على الورق أو المضايقات الصغيرة. ولتحقيق هذا الهدف تفترض سياسة الردع أن أي تهديد عسكري عراقي يمكن معالجته بقوة عسكرية حتى لو بنى العراق برامجه الخاصة بأسلحة الدمار الشامل.

وتتطلب سياسة الردع كي تحقق أهدافها أعلاه وجوداً عسكرياً أمريكياً في الخليج قوياً وعنيفاً. ويعتقد راسمو سياسة الردع أن أفضل وسيلة مناسبة لتنفيذ الردع هي العودة الى وجود عسكري أمريكي "وراء الأفق" بما في ذلك قوة عسكرية مرتبطة بتمرينات تشكل قوات برية وقوات جوية مناسبة.

ولكي تقوم سياسة الردع ببناء أساس نظري صلب يشكل مبرراً مقبولاً فإنها تنطلق من فرضية أن استراتيجية الاحتواء لم تعد قابلة للحياة على المدى الطويل للتعامل مع العراق. فقد كشفت تجربة الولايات المتحدة مع النظام العراقي ومنذ ٣١ آب ١٩٨٨ عندما دخلت قوات النظام العراقي مدينة أربيل أن استراتيجية الاحتواء ظلت تعاني من سلسلة من الضربات والعوائق، وكشفت في الوقت نفسه أن نظام الاحتواء بات يعاني من العديد من التحديات ساهمت في تآكل دعم الولايات المتحدة والدعم العربي للسياسة الأمريكية تجاه النظام العراقي. وقد كشفت الأشهر الأخيرة تنامي مزاج متصاعد مضاد لنظام العقوبات الذي تفرضه الأمم المتحدة بضغط قوي من الولايات المتحدة وحلفائها، والذي خلق مصاعب لا مبرر لها للشعب العراقي في حين تبين أن قبضة صدام على السلطة لم تتأثر بنتيجة نظام العقوبات المذكور.

ويعني هذا أن الانتقال من سياسة الاحتواء الى سياسة الردع يجب أن يقترن بإجراء تعديلات على استراتيجية الاحتواء تطول الجوانب التالية:

أ- القبول باحتمال بقاء صدام حسين في السلطة وأن الجهود الرامية الى تقويض نظام حكمه هي جهود عقيمة ومثيرة للانقسامات، كما أن من غير المحتمل الإبقاء على العقوبات الدولية ضد العراق.

ب- عدم التأكيد على أن العراق يشكل مشكلة للسياسة الخارجية الأمريكية مع حلفاء واشنطن في مجلس الأمن الدولي ووضع هذه المشكلة بدلاً من ذلك في سياق الاستراتيجية

العالمية الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية.

ج- تشجيع ترتيبات أمن إقليمية أكثر قابلية للدعم والاستمرار.

د- ردع العراق بالتزام عسكري أمريكي واضح وموثوق به.

يؤكد راسمو سياسة الردع على أنها ستسمح لواشنطن بجني العديد من الفوائد من بينها:

* الاحتفاظ بالمبادرة في سياستها تجاه العراق. فعلى عكس سياسة الاحتواء التي هي سياسة دفاعية وسياسة رد فعل تعطي المبادرة لصدام حسين نجد أن الردع يقدم للنظام العراقي توجيهات واضحة حول ما هو مقبول في مسلكه من وجهة النظر الأمريكية.

* إزاحة العراق كمسألة تؤدي الى الانقسام بين حلفاء أمريكا في الأمم المتحدة، وبين أمريكا وحلفائها العرب.

* تشجيع التنازلات العراقية.

* نبذ خيار المؤتمر الوطني العراقي، حيث يعترف راسمو سياسة الردع بأن دعم الولايات المتحدة للمؤتمر المذكور باعتباره "قوة المعارضة المشروعة" يمثل سياسة خادعة ليس لها دور في التأثير في التطورات داخل العراق.

* التقليل من الانتباه الموجه الى صدام في السياسات المحلية.

* تخفيض التكاليف.

غير أنه وبالرغم من الفوائد المذكورة أعلاه لسياسة الردع فإن هذه السياسة تثير العديد من المخاطر والاحتمالات التي يصفها المتخصصون بهذه السياسة بما يلي:

* سيكون على أمريكا والعالم مواصلة العيش مع صدام، حيث سيتم بموجب هذه السياسة إهمال الدكتاتور العراقي وطبيعة نظام حكمه من أجل تأكيد سيادة "السلوك" العراقي في حسابات السياسة الخارجية الأمريكية.

* يمكن لسياسة الردع أن تؤدي الى تآكل سياسة الاحتواء.

* بوسع الدول الإقليمية استرضاء العراق واستيعابه.

ملاحظات انتقادية

١- تتضمن سياسة الردع تحولا مهما يتمثل بقضيتين اثنتين مهمتين. الأولى هي قبول هذه السياسة بحقيقة بقاء صدام حسين في السلطة في المستقبل المنظور، ويعني ذلك أن إسقاط النظام العراقي لم يعد مهمة آنية مطروحة على جدول أعمال سياسة الردع. أما

الثانية فتتمثل في أن العراق لم يعد يشكل مشكلة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة بل يتعين وضع هذه المشكلة في سياق الاستراتيجية العالمية الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية. إذا دفعنا هذه الأطروحة الى نهايتها المنطقية أمكننا التوصل الى استنتاج خطير وبالغ الأهمية والوضوح والبساطة وقوامه أن سلوك العراق خارج حدوده هو الذي يشكل الاهتمام الحقيقي للسياسة الخارجية الأمريكية في إطار استراتيجية الردع، أي أن هذه الاستراتيجية يمكنها أن تتغاضى عن جرائم النظام الدكتاتوري تجاه الشعب العراقي. والخلاصة بسيطة من ذلك: إن خيار الردع غير معني بالدرجة الأولى برحيل النظام العراقي الحالي!

٢- سياسة الردع هي سياسة محفوفة بالمخاطر وتواجه العديد من القيود والعوائق الإقليمية والدولية، ويمكن للمبالغة فيها أن تؤدي الى تداعيات خطيرة في المنطقة لجهة التأثير على المصالح الأمريكية الأساسية. ويمكن لتطبيقها الفعال أن يؤدي الى فرط العديد من التحالفات التي عقدتها الولايات المتحدة مع دول عديدة. ولا يمكن لراسمي السياسة الأمريكية أن يراهنوا على هذا الخيار بشكل فعال نظرا لكونه يهدد بانفراط عقد التحالف الدولي ضد العراق مما يتطلب من الولايات المتحدة اللجوء الى مقايضات كثيرة في مجالات أخرى من مجالات السياسة الخارجية الأمريكية. وهنا سينشأ نوع من التعارض بين ضرورة الحفاظ على قطب أحادي الجانب يعيد إنتاج السياسة الدولية "على هواه"، وبين إمكانية تبلور قوى أخرى تشكل مصدر خطورة على هذا القطب وإمكانية انفتاح الأفق لتحالفات جدية ومواقع قوى جديدة لا تقبل بها الولايات المتحدة ولا تسمح بها.

٣- إن سياسة الردع باستخدام القوة العسكرية تتطلب وجودا دائما لقوى عسكرية ضارية ولو محدودة للولايات المتحدة، ويعني ذلك تكلفة إضافية تتطلب الإجابة عن سؤال: من سيقوم بتمويلها؟

المبحث الخامس: سيناريو الغزو والاحتلال

هذا الخيار هو الخيار الوحيد من بين الخيارات الأخرى الذي تكون فيه الولايات المتحدة هي نفسها المقرر الرئيسي للنتيجة. إن غزو العراق واحتلاله يمثل حلا مفروضا وليس حلا عن طريق التفاوض. نظرا لأن سياسة الغزو والاحتلال تمثل تصعيدا خطيرا وخيارا متطرفا فإنه يعني أن هناك تغيرا في طبيعة الأهداف التي تروم هذه السياسة تحقيقها. هدف هذه السياسة بحسب مصمميها، إذن، هو إزاحة صدام حسين ونظامه من

السلطة في العراق وتنصيب حكومة عراقية ملتزمة بالمعايير الدولية والتعايش السلمي مع جيرانها، أي هزم النظام الراهن واحتلال العراق وإقامة سلطة دولية على أراضيه. إن وضوح هذا الهدف يفترض لنجاحه وضوح الوسيلة. وعلى افتراض أن صدام حسين والجيش العراقي سيقاومان الهدف أعلاه، فإنه لابد من تحقيقه بالقوة بشكل عام والاستخدام الهجومي للقوات العسكرية الأمريكية والحليفة بشكل خاص. إن مهمة قوات التحالف، بحسب هذا السيناريو، ستكون احتلال كامل العراق والاشتباك مع أي قوة عسكرية عراقية أو جميع القوات التي تقاوم الغزو وإلحاق الهزيمة بها. وستشكل وحدات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص مركز تركيز الحملة. وبغض النظر عن المجوى والأشكال التي تتخذها حملة من هذا النوع اعتماداً على الظروف الملموسة التي تتطور فيها الأوضاع، فإن مصممي سيناريو الغزو يلحّون على أن أي حملة يجب أن تتبع المبادئ التالية:

* أن تحظى بتأييد دولي وضرورة توفر الحد الأدنى من التعاون العسكري والموافقة السياسية من دول أخرى على المسرح الدولي، كما يجب أن تؤيد الحملة بنشاط من جانب الحلفاء الرئيسيين في المنطقة.

* لابد لهذه الحملة أن تحظى بتأييد من الكونغرس والرأي العام الأمريكي.

ينبغي ربط الأهداف العسكرية للحملة بشكل شامل مع الأهداف السياسية بحيث يستتبع تحقيق الأهداف العسكرية إنجاز الأهداف السياسية أيضاً، هذا إضافة الى ضرورة أن تحدد الأهداف العسكرية والسياسية بوضوح، وتكون حاسمة ويمكن تحقيقها ودعمها واستمرارها.

* يجب على الولايات المتحدة أن لا تمضي عقوداً من السنين وهي تحتل العراق وتعيد صياغته كما فعلت في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، كما أنها ينبغي أن لا تترك البلاد بسرعة بعد إزاحة صدام.

يشير مهندسو سيناريو الغزو الى أن حملة غزو واحتلال العراق ستحدث على أربع مراحل، مؤكدين على أن تحقيق هدف الحملة وإزاحة نظام صدام حسين من السلطة يجب أن لا يستبعد احتلال العراق وإقامة حكومة انتقالية جديدة.

إن مراحل الحملة هي:

- المرحلة الأولى: الانتشار الأولي،
- المرحلة الثانية: الحشد والهجوم الجوي،

– المرحلة الثالثة: الغزو وتتكون من عملية الغزو الفعلي للعراق وهزيمة وحدات الحرس الجمهوري والاستيلاء على بغداد.

– المرحلة الرابعة: الاحتلال وتبدأ هذه المرحلة مع نهاية المقاومة العسكرية العراقية لقوات التحالف.

إن مرحلة الاحتلال بحسب هذا السيناريو تتألف من ثلاث مراحل فرعية وهي:

أ- مرحلة الاحتلال الأولي: في هذه المرحلة تشكل قوات التحالف العسكرية السلطة الحاكمة في العراق المحتل. وستكون مكلفة بالدفاع عن وحدة الأراضي العراقية والحفاظ على النظام العام ومسؤولة عن تقديم كافة الخدمات. تنتهي هذه الحملة بتسليم السلطة الى السلطة الانتقالية الدولية. والوقت المقدر لذلك تسعة أشهر.

ب- مرحلة انتقالية: في هذه المرحلة ستكون السلطة الانتقالية الدولية هي السلطة الحاكمة في العراق يساعدها في إنفاذ سلطتها قوات الاحتلال الموجودة. هذه المرحلة ستنتهي بإجراء انتخابات عراقية وبالاعتراف الدولي وتأكيد وجود الحكومة العراقية الجديدة. والوقت المقدر لهذه المرحلة هو من سنتين الى خمس سنوات.

ج- مرحلة تنصيب حكومة عراقية جديدة: في هذه المرحلة سيتم تنصيب الحكومة العراقية الجديدة وتبدأ قوات الاحتلال انسحابها النهائي. تنتهي هذه المرحلة عندما تتخلى السلطة الانتقالية عن كل مهمات الحكم الى حكومة ذات سيادة.

وخلال هذه المراحل كلها ستكون القوات العسكرية الأمريكية مسؤولة بصورة رئيسة عن الأمن والنظام العام في العراق. ومن جهة أخرى فإن عملية الغزو والتواجد العسكري الذي يليها يتطلب إنفاقا هائلا وبالتالي ينطرح سؤال مهم هو: كيف سيتم تسديد هذه التكاليف، أو ما هو مصدر التمويل؟

يجيب راسمو هذا السيناريو بوضوح: الحل واضح هو استخدام عائدات العراق من صادراته النفطية لتمويل احتلاله.

ومبرر هذا السيناريو رغم ما يثيره من تحديات عديدة هو الفوائد التي سيحققها بالنسبة للمنطقة والعالم والولايات المتحدة. ولهذا يعتقد مهندسو هذا السيناريو بأنه سيجلب الفوائد التالية:

* سيكون خيارا شاملا وحاسما، فلن يتم إقصاء صدام حسين ونظام حكمه فحسب، بل إن الولايات المتحدة ستضمن وجود حكومة عراقية لا تهدد جيرانها قبل تركها المنطقة.

* إن الغزو يجعل هزيمة قوات صدام حسين أمرا قابلا للتحقق على الرغم من أن الغزو ستكون له تكلفة كبيرة وينطوي على تحولات غير متوقعة للأحداث.

* تحرير العراق من حكم صدام حسين ومن العقوبات الاقتصادية المدمرة المفروضة من جانب الأسرة الدولية.

* تحويل العراق الى شريك اقتصادي مهم في المنطقة ومفتوح للشركات الأمريكية، إذ تستطيع هذه الشركات أن تجني أرباحا كبيرة إذا أعيد فتح سوق النفط العراقي بعد الغزو.

* كشف وتدمير قدرة العراق من أسلحة الدمار الشامل، مما يساهم مساهمة كبيرة في السلام والاستقرار في المنطقة.

* معاقبة دكتاتور خارج على القانون، ويعني ذلك إزاحة مصدر رئيسي للاحتكاك مع حلفاء الولايات المتحدة سواء في المنطقة أو في مجلس الأمن الدولي.

غير أنه وبالرغم من الفوائد المذكورة أعلاه والتي سيجنيها هذا السيناريو فإن اتباع سياسة الغزو والاحتلال يمكن أن يؤدي الى المزيد من الصعوبات لصناع السياسة وللجيش الأمريكي:

* هناك إمكانية بأن يرد صدام حسين بأسلحة الدمار الشامل، وهذا قد يؤدي الى خسائر بشرية كبيرة ويجبر الولايات المتحدة على الرد بوسائل قد لا تفضل استخدامها في ظروف عادية.

* إن نهاية اللعبة في العراق تبدو خادعة، إذ يمكن أن تغوص الولايات المتحدة في أوحال العراق وهي تحاول إدارته.

* قد لا يكون الغزو مقبولا في الشارع العربي، ويمكن أن يستحضر صور الاستعمار الجديد.

* يمكن أن توسم الولايات المتحدة بأنها مستأسدة على من هو أضعف منها على الصعيد الدولي مما قد يحفز الدول الكبرى الأخرى على التجمع لمعارضة التفرد الأمريكي.

* ستكون هذه العملية باهظة التكاليف.

* إذا حققت العملية كافة أهدافها فإن حاجة الدول الخليجية للأسلحة ستقل، وتبعا لذلك فإن مصانع الأسلحة في الولايات المتحدة يمكن أن تعاني من وضع الكساد.

ملاحظات انتقادية

١- يبدو أن هناك تناقضا بين الهدف الظاهري لحملة الغزو وهدفها الفعلي. فهدف الحملة المعلن هو إزاحة نظام صدام حسين من السلطة ويمكن أن يتحقق في أي مرحلة من مراحل الحملة ولكن تحقيق هذه الإمكانية لا يعني بالضرورة إيقاف الحملة، فهدفها النهائي هو احتلال العراق وإقامة حكومة انتقالية. ومن المؤكد أن هذه الحكومة لن تكون بدون لون فهي يجب أن تكون مصممة على المقاسات الأمريكية فقط. فليس المطلوب رحيل صدام /الهدف المرحلي للحملة بل الأهم من ذلك الهدف الاستراتيجي/ الإتيان ببديل يطمئن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في منطقة حيوية.

٢- يمكن اعتبار هذا الخيار، وبدون أدنى شك، خيارا كارثيا على بلادنا وشعبنا، لأنه لا يتحدث عن استعمال القوة العسكرية كخيار لدعم الدبلوماسية بل يعتمدها كخيار فعلي لحل أزمة النظام الراهن. ومن جهة ثانية يبسط هذا السيناريو قضية الغزو ويتعامل مع النظام الدكتاتوري بمزيد من التبسيط، ويبدو أن هذا الخيار متأثر بموديلات التدخل التي اعتمدتها الولايات المتحدة في بلدان أمريكا اللاتينية، وهي مقاربة خاطئة على أي حال، هذا إضافة الى أنه من المفيد الإشارة الى أن القوة الجوية لم تكن قط عاملا حاسما في استسلام أي نظام، كما أثبتت التجارب التاريخية في مناطق أخرى من العالم (فيتنام وكمبوديا ولاوس على سبيل المثال). وباختصار، إن نظرية القصف الجوي المكثف - في أفضل الأحوال - غير موثوق بنتائجها.

٣- كما أن هذا السيناريو يفترض استمرار وجود التحالف الدولي الذي تنطلق منه عملية الغزو، أي أن نظرته لتطور الأحداث نظرة ستاتيكية في حين أن عمليات من هذا النوع ذات طبيعة ديناميكية ومتطورة وتقترن بالمزيد من التعقيدات وردود الفعل غير المتوقعة من طرف شعوب البلدان العربية، إضافة الى ردود فعل القوى الإقليمية المجاورة، وتحديدا إيران وسوريا على سبيل المثال، التي لن يقف مكتوف الأيدي تجاه عمليات عسكرية تجري في بلد مجاور لها، وهذه العمليات تقودها الولايات المتحدة الأمريكية. إن القرار الأمريكي بغزو دولة ذات سيادة وإقصاء حاكمها سيضيف المزيد من التعقيدات الى الوضع الجيوسياسي الهش أصلا والقابل للاشتعال في منطقة مصالح حيوية تهم أطرافا دولية عديدة، وبالتالي فإن لهذا السيناريو تداعيات إضافية تتجاوز الحدود العراقية.

٤- يبدو أن مهندسي هذا السيناريو مهوسون بتجربة غزو خليج الخنازير في كوبا عام ١٩٦٢، ويعتقدون بإمكانية تكرارها في غزو العراق، والإطاحة بالنظام العراقي، والإتيان ببديل موال للولايات المتحدة يصل ممثلوه على حراب ودبابات الولايات المتحدة. وقد تبلور الإطار النظري لسيناريو الغزو على الطريقة الكوبية بوضوح بارز في مقال بارز نشرته الفصلية الأمريكية المعروفة "فورن أفيرز" في عدد كانون الثاني - شباط/ ١٩٩٩ وبعنوان عريض: هل يمكن إسقاط صدام؟

يقول كاتبو المقال المذكور إن "الفكرة الكوبية" في المسألة العراقية فكرة بسيطة وتقوم على فرضية أن على الولايات المتحدة أن ترفض نهائيا قبول استمرار صدام حسين في السلطة، وأن تؤيد إبدال حكمه بالمعارضة العراقية، أي العودة الى ما قبل الأزمة مع صدام وليس احتواء صدام بوضعه الجديد. وبعبارة أخرى تخفيض أهميته وخفض سعره.

هذا التصور خاطئ من أساسه لأنه يقوم على مقاربة خاطئة بسبب اختلاف المكان والظروف التاريخية، وكون المنطقة تتضمن الجزء الأعظم من الاحتياطي البترولي العالمي، ولا يمكن التنبؤ بردود الفعل المحتملة من وراء عملية من هذا النوع، هذا إضافة للطبيعة الطبوغرافية المنبسطة للأراضي العراقية، والانتشار السكاني الواسع، والمدن المتناثرة على طول الطريق من الجنوب حتى بغداد، الأمر الذي يجعل من هذه المهمة عسيرة جدا إن لم تكن مستحيلة التحقيق في ضوء الظروف أعلاه.

ولهذا فإن سيناريو الغزو، وبغض النظر عن مغرياته ومبرراته التي تقدمها دوائر صناعته، يتضمن العديد من المخاطر ليس فقط على استقرار المنطقة ولكن بالنسبة لنظام الأمم المتحدة ذاته.

الخلاصة الإجمالية

١- إن سياسة الولايات المتحدة تجاه النظام العراقي غير فعالة، وهي مجرد استراتيجية احتواء تساندها القوة العسكرية. ويشير تطور الأحداث الى أنه لا يوجد هناك خيار محدد متوفر وقابل على التحقيق.

٢- إن الولايات المتحدة لا تمارس سياسة محددة تجاه العراق بل تقوم بمحاولات لإرغام العراق للامتثال لقرارات الأمم المتحدة، وأن أي من هذه المحاولات أو التهديدات باستخدام القوة أو لاستخدامها فعلا لا يشكل سياسة.

٣- تتضمن السيناريوهات المختلفة أهدافا متناقضة، ولهذا فإن الولايات المتحدة لا تمتلك استراتيجية لتغير النظام العراقي بل تهدف الى إجراء تغيير في النظام.

لقد أشار هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق الى ملاحظة لماحة حول ما يتوقعه من نتائج الصراع مع النظام العراقي، حيث قال: على الأغلب فإن أمريكا ستكسب كل المعارك ضده ولكنها ستخسر الحرب في النهاية. ومن المفيد الإشارة الى أن هذه الملاحظة لا تعني أن نظام صدام حسين قوي بما فيه الكفاية، ولكن لأن الولايات المتحدة لا تمتلك لحد هذه اللحظة استراتيجية واضحة ومحددة وملموسة لإسقاط النظام العراقي، على عكس ما يردده الإعلام وجوقة المروجين لانتصار قادم على دبابة أمريكية قادمة في نزهة حربية الى بغداد لمعاقبة صدام وتنصيب حكومة عراقية جديدة تطمئن مصالح الولايات المتحدة في المنطقة ولإزالة مخاوف وكوابيس الأنظمة المجاورة التي جلبها لها صدام حسين!

شباط / ١٩٩٩

مشاكل نفسية عند اللاجئين وضحايا التعذيب

طلال الربيعي*

من العواقب الوخيمة لنهج الدكتاتورية تدفق أعداد هائلة من العراقيين الى الخارج سعيا وراء الخلاص من المحنة المتفاقمة. وتتباين تقديرات عدد هؤلاء بين المليون والثلاثة ملايين. ومنهم كثيرون قد ذاقوا أشكال الاضطهاد، وأقساها تعرضهم للاعتقال والتعذيب بدنيا أو نفسيا. ولئن كانت الغربة، بحد ذاتها، "مهنة شاقة" كما وصفها الشاعر التركي الأشهر، ناظم حكمت، وهو يعاني مرارتها، فإن ضحايا التعذيب والسجن يحملون معهم الى ديار اللجوء مشاكل نفسية خاصة تميزهم عن زملاء الغربة.

المقالة أدناه تلقي الضوء بإيجاز على أهم المشاكل النفسية عند ضحايا الاضطهاد في غربتهم عن الوطن.

"الثقافة الجديدة"

الآثار النفسية

يبدو تقسيم التعذيب الى جسدي ونفسي تقسيما مصطنعا الى حد ما، لأن ما يؤلم الجسد يؤذي النفس والعكس قد يكون صحيحا. إن المشاكل أو الاضطرابات النفسية بسبب التعذيب تختلف كثيرا من شخص الى آخر اعتمادا على نوع التعذيب، مدته، التركيبة

* طبيب عراقي مختص بالعلاج النفسي، مقيم في لندن.

النفسية للشخص وغيرها. إن ضرب الرأس مثلا قد يؤدي الى تلف الدماغ وحدوث اضطرابات نفسية، كما أن ذلك قد يسبب أمراضا عضوية كالجلطة الدماغية أو الشلل الرعاشي، مما قد يؤدي الى فقدان القدرات الذهنية، إضافة الى الكآبة، بل حتى أعراض انفصام الشخصية في حالة الإصابة بنوع من الصرع. والعديد من الذين يتعرضون لضرب الرأس يصابون بـ"عدم الاستقرار العصبي ما بعد الإصابة" ومن أعراضه الصداع، الدوران، الإرهاق، ضعف التركيز، القلق والتوتر. وقد تستمر الأعراض أشهرا أو سنوات. إن طول السجن قد يسبب اضطرابات نفسية جراد تلف الدماغ بسبب نقص الفيتامينات (وخصوصا فيتامين ب) أو فقر الدم. إن التسميم بالثاليوم مثلا قد يؤدي الى أعراض مشابهة.

التعذيب الذي لا يؤثر مباشرة على الدماغ قد يؤدي أيضا الى اضطرابات نفسية غير مباشرة، فإصابات الحبل الشوكي قد تسبب فقدان القدرة على التحكم بالتبول والتغوط أو شلل أعضاء الجسم. كل ذلك قد يعيق كفاءة الشخص في الحركة وكسب العيش بعد السجن، وقد يسبب كذلك ارتباكا كبيرا في حياته الاجتماعية والجنسية والقدرة على التمتع بالحياة. والتعذيب قد يخلف تشوهات بدنية تسبب نقص الثقة في النفس أو الشعور بالإحباط والكآبة مما قد يؤدي حتى الى الانتحار. إن الاغتصاب يحدث شعورا بالذل ويؤثر سلبا على الحياة الاجتماعية والجنسية، وقد يؤدي الى الحمل أو أمراض تناسلية. بعض الذكور عند اغتصابهم قد يساورهم الخوف (غير المبرر) من التحول في ميولهم الجنسية. وبالطبع قد يؤدي السجن بحد ذاته الى اضطرابات نفسية مثل الشعور بالغبن والكآبة بسبب الانقطاع عن الأهل والتخلف في التطور المهني. أما عائلة السجين فقد يصيبها العوز إذا كان هو معيلها. كل هذا قد يؤذي الشخص نفسيا حتى بعد إطلاق سراحه مثل زعزعة الثقة بالآخرين مما قد يربك العلاقات العائلية والاجتماعية. وإن مشاهدة التعذيب قد تؤدي الى إصابة المشاهد بميول عدوانية وعنفية تجاه الأقرباء والأصدقاء دونما سبب واضح، وهكذا فإن السجن لفترة طويلة قد يؤدي الى خلل دائم في الشخصية.

الاضطراب الإجهادي ما بعد الصدمة

وهو يحدث في الذين تعرضوا الى صدمات جسدية أو نفسية، ومن أعراضه تذكر الصدمة بشكل لاإرادي، قلق، أحلام مفزعة، صعوبة الإغفاء، ضعف التركيز، نوبات من العنف، وكذلك الشعور والتصرف وكأن الصدمة مازالت مستمرة. وهذا الاضطراب

يحصل عادة خلال الستة أشهر الأولى بعد الصدمة، ولكن قد يظهر هذا الاضطراب بعد سنوات، وقد يختفي ثم يظهر بعد ١٥ – ٢٥ سنة.

يرى باحثون عديدون أن هذا الاضطراب يشمل جميع الأعراض النفسية لكل من يتعرض لتجربة قاسية أو صدمة كبيرة. كذلك فإن أعراض الكآبة أو انفصام الشخصية يدرجونها ضمن هذا الاضطراب؛ أي أن هذا التشخيص هو بديل عن تشخيص الإصابة بانفصام الشخصية الذي له آثار نفسية واجتماعية سلبية على الشخص. إن هذا الفهم ينسجم مع مقولات الفيلسوف واختصاصي الاضطرابات النفسية (فوكو) الذي يفسّر الاضطرابات النفسية على أساس تاريخي – اجتماعي، وهو يُعتبر متفقاً في ذلك مع أطروحات الماركسية الحديثة.

اللاجئ وجذوره

إن اجتثاث اللاجئ من جذوره بانتقاله الى بيئة غريبة في عاداتها وتقاليدها يمر بثلاث مراحل. الأولى عند مغادرته الوطن آملاً بالرجوع بعد فترة قصيرة، ويصاحب ذلك في العادة متاعب نفسية وحتى جسدية أحياناً. الثانية تبدأ بالوصول الى بلد اللجوء حتى حصوله على الموافقة، وفي الأيام الأولى يشعر ببعض الراحة لأنه في مكان آمن. بعد فترة قصيرة أو طويلة يبدأ الشعور بالتضايق والانزعاج بسبب تعقيدات معاملة اللجوء أو العيش في معسكر اللاجئين وعدم القدرة على العمل. عدم الاستقرار هذا يولد قلقاً كبيراً وخوفاً من رفض الطلب وإعادته الى بلده، لذلك قد يشعر بالسخط والعجز والحزن، وقد تظهر لديه دوافع تدميرية ضارة بالنفس أو بالآخرين ولها أثر سلبي على تأقلمه من خلال تعلّم اللغة وإقامة علاقات اجتماعية. المرحلة الثالثة تبدأ بعد الموافقة على اللجوء فيشعر اللاجئ براحة واندفاع للعمل والتأقلم مع الحياة الجديدة، ولكنه قد يصادف مصاعب الحصول على عمل أو سكن مما يثير السخط والإحباط من جديد. لكن الاجتثاث من الجذور قد يكون له مردود إيجابي بتوسيع المعارف والحصول على مؤهلات جديدة. ولابد من القول إن هذه المراحل تتداخل مع بعضها فلا نجد خطاً يفصل بينها فصلاً تاماً.

الصدمة الحضارية

ترتبط الصدمة الحضارية بمسألة الاجتثاث المذكورة أعلاه، ولكن ما يميّزها هو الجيشان العاطفي وتخلخل في القناعة والهوية الحضارية. قد تقتصر الصدمة على الشعور

بالاستغراب فقط أو قد تكون شديدة الوطأة. الصدمة تعني:

١) فقدان محبة وتقدير الأهل والأصدقاء.

٢) فقدان المنزلة الاجتماعية.

٣) فقدان النسيج الاجتماعي الذي يضفي على الحياة نكهة ومضموناً.

والعيش في الغربة قد يولّد صراعات نفسية داخلية أو مع الآخرين. الداخلية سببها اختلاف القيم وضرورة التأقلم معها، ويمكن التغلب على هذه الصراعات بالحوار والاتصال مع الآخرين، ولكن اختلاف اللغة وأنماط السلوك قد يعيق مثل هذا التواصل. فالشرقي مثلاً يميل الى تجنّب النظر في عين المقابل مباشرة مما ينم عن قلة الاحترام للمقابل. ويختلف تأثير الصدمة الحضارية نسبة الى جنس الفرد. فالرجال اللاجئون لم يألفوا تماماً احتلال نساء مراكزَ إدارية عالية، وتشعر اللاجئات بالعزلة أكثر من الرجال بفقدان الأقرباء والجيران لتزجية أوقات الفراغ والمساعدة في رعاية الأطفال. وللمرأة الغربية فرص أوسع، وعندما تحاول اللاجئة الاستفادة منها قد تنشأ خلافات مع زوجها لشعوره بضعف أو فقدان مركزه كربّ للعائلة، مما قد يؤدي أحياناً حتى الى الطلاق.

التأقلم ومشاكله

قد لا ترقى مشاكل التأقلم الى مستوى مشاكل الصدمة الحضارية، لكنها قد تسبب إجهاداً وتوتراً. فبالإضافة الى اختلاف الطقس والطبيعة هنالك اختلاف في العادات والتقاليد. فقد اعتاد الشرقي مثلاً على قضاء أوقات الفراغ بصحبة الأقرباء والأصدقاء إذا ما شاء ذلك. أما في الغرب فيضطر اللاجئ الى اكتساب مهارات اجتماعية للحصول على الصحبة وعليه أيضاً أن يعتاد على قضاء وقت طويل بمفرده.

في الغرب لا توجد ضوابط عامة للعلاقات الجنسية بل يقررها الأشخاص المعنيون، أما في مجتمعاتنا فهي محكومة بثقل الأعراف والعادات. هنالك اختلاف في معاملة الضيف والتعامل مع الحيوانات، تعاملاً قد يعتبره الشرقي مفرطاً ومخالفاً لقواعد النظافة (باعتبار الكلب وغيره من الحيوانات نجساً). ويشعر الشرقي بالخجل والحرج إذا تناولت وسائل الإعلام مناقشة الأمور بصراحة، فقد اعتدنا تحاشي طرح الرأي المخالف وعدم الخوض في الأمور الشخصية علناً. والفوارق الحضارية قد تسبب للاجئ تردداً قبل الإقدام على خطوة بسيطة لتحاشي الحرج. كل هذا يستنزف طاقته ويقلل من متعة الحدث بسبب فقدان التلقائية، مما قد يقلص اختلاطه مع أهل البلد، فيزداد التأقلم صعوبة. أضف الى كل هذا أن اللاجئ لا

يجد الاحترام دوما في الغرب ويواجه مشاكل العنصرية وكراهية الأجنبي، فبعض سكان البلد يعتبر اللاجئ كسولا لا تهمه سوى الإعانات الاجتماعية. ولكنهم أيضا يعتبرون اللاجئين مسؤولين عن البطالة لتصورهم أنهم يحلون محلهم في العمل وقد يعتبرون موطن اللاجئ متخلفا وغير متحضر مما يثير سخط وحزن اللاجئ. والحاجز اللغوي يزيد الاختلاط صعوبة. ثم إن اللاجئ قد يعتبر إقامة علاقات جديدة خيانة لأصدقائه أو أقربائه في الوطن ومخالفا لعقائده الوطنية والسياسية. ويجهل كثير من الناس ما يحدث في وطن اللاجئ أو حتى الرغبة في معرفة ذلك، ويسبب ذلك إحباطا ويثني عن إقامة العلاقات الاجتماعية معهم، يقينا بأنهم لن يفهموه أو يفهموا مشاكله وآلامه.

حتى علاقة اللاجئ مع بني وطنه قد تعتريها مشاكل لعدم تقديرهم وضعه، طالبين منه ما يفوق طاقته. بعض اللاجئين يحصلون على دعم معنوي ومادي من رفاقهم شرط عدم تغير المواقف والعقائد الناجمة عن التجربة أو الدراسة في بلد اللجوء، ويرغب عديد من اللاجئين في مواصلة النشاط السياسي، ولكن الإحباط يصيبه لعدم توفر الظروف المناسبة لهذا النشاط، وبذلك يفتقد مغزى هام لحياته، وأحيانا يصبح لقاء الرفاق أو الأصدقاء السياسيين مبعث إحباط وشعور بالعزلة اعتقادا بأن هذا اللقاء ضئيل الفعالية والمردود.

كثير من اللاجئين جاؤوا من مجتمعات ترى أنه من غير اللائق تناول مشاكل نفسية أو عاطفية مع الأغراب وآخرون يعتقدون أن الخوض في هذه المشاكل يعوزه اللياقة لأنهم يعتبرونها تافهة بالمقارنة مع مشاكل أهلهم في الوطن. وهذا قد يزيد اللاجئ عزلة وغربة عن محيطه الجديد.

إن الموافقة على طلب اللجوء تعتمد على دقة المعلومات المقدمة. وهي قد تشمل أحداثا مؤلمة يراد نسيانها. ولكن إهمالها أو إغفالها قد يعيق الموافقة. وبعض اللاجئين يشعر بإذلال وترهيب من قبل الموظف المسؤول عن التحقيق في قضيتهم أو من قبل المترجم المرافق، خاصة وأن المترجم قد يهمل تفاصيل مما قد يعيق الموافقة على اللجوء. بعض طالبي اللجوء يتعايش مضطرا مع المعاملة البيروقراطية والمهينة، مما قد يسبب شعورا بالسخط والعجز يشابه ما كابده أثناء التعذيب أو الاعتقال في الوطن. وأظهرت البحوث النفسية أن تعامل السلطات مع طالب اللجوء يلعب دورا حاسما في إصابته باضطراب نفسي أو عدمه، وذلك بغض النظر عما تعرض له في الوطن وقدرته الآن على التكيف.

قد يتخذ التأقلم ثلاثة مسارات. في الأول يبدأ بتعلم اللغة وإقامة علاقات اجتماعية أو

عاطفية وبذلك يتكيف اللاجئ مع حضارة الوسط الجديد، محافظا على إرثه الثقافي والحضاري، مستخفا بتناقض مشاعره تجاه الوطن والملجأ، فلا يستصعب الاختلاط مع أهل البلد أو مواطنيه. وهنا يمكن القول إنه اكتسب هوية حضارية مزدوجة. المسار الثاني هو تأقلم جزئي أو انتقائي مع الوسط الجديد، فيتعلم لغته والتعامل مع المسؤولين عن السكن والصحة والضمان الاجتماعي دون إقامة علاقات جدية مع سكان البلد، رافضا قيمهم الثقافية ومتمسكا بصداقته مع مواطنيه فقط.

المسار الثالث يمكن اعتباره تأقلما مفرطا، فيتأقلم اللاجئ سريعا مع عادات الوسط الجديد، متنكرا لخلفيته الثقافية وسلوكياتها. فقد يتحاشى مخالطة مواطنيه ويحاول إخفاء أصله غير الأوروبي، بل قد يغير اسمه أيضا ويتحدث عن الوطن باستخفاف. ويعلق بعض هؤلاء اللاجئين أهمية كبرى عل جمع الثروة والحصول علي ما يتمتع به الشخص الغربي حسب تصورهم من امتيازات. نظريات التحليل النفسي ترى أن هذا اللاجئ لم يتطامن مع فقدانه لوطنه، فإفراطه في التأقلم هو إنكار لهذا الفقدان دونما وعي، مستخدما دفاعا نفسيا بسلوك مناقض لمشاعره الداخلية اللاواعية من أجل إنكار الفقدان. لكن آخرين يفضلون هذا المسار لاعتقادهم بأنه يضمن منزلة اجتماعية أو تقييما أفضل من قبل أهل البلد.

عوامل مؤدية الى الاضطراب النفسي

لا يتعرض أغلب اللاجئين الى اضطرابات نفسية تستدعي العلاج مثل غيرهم مما يدلل علي وجود فوارق فردية في سلوك اللاجئين وردود أفعالهم في الوسط الجديد. ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من ردود الفعل السلوكي:

١) سلوك مضطرب حين يشعر اللاجئ بالتشوش والضياع وبخوف قد يشل مشاعره وقدرته على التفكير السليم.

٢) سلوك الذهول أو الانصعاق، فيفقد اللاجئ بعض قدرته على فهم ما يحيطه وتحسس عواطفه هو (خدر فكري وشعوري)، وعندئذ لا يعبر عن أحاسيسه بالكلمات. فتجد انعكاسها في علل عضوية (صداع، آلام المفاصل، غثيان، اضطرابات تنفسية، الخ).

٣) سلوك منظم يحد بوعي من تأثير الصدمات، فيبقى اللاجئ قادرا على الاحتفاظ برباطة الجأش والقدرة على تحسس المشاعر فتكون ردود أفعاله متزنة.

لا يعرف بالضبط سبب الفوارق في ردود الأفعال السلوكية. البعض يرى بأن هذه الفوارق موزعة بصورة طبيعية حسب "منحنى الجرس الإحصائي". ولكن هذا لا يفسر

سبب وجود هذه الفوارق. يعزو علم النفس التطوري هذه الفوارق الفردية الى تفاوت في القدرة على التعامل مع الأحداث، وهو حصيلة ما يسمى بـ"الإجهاد" من جهة و"عوامل واقية" من جهة أخرى. الإجهاد هو ما قد يعيق تطور نفسية الفرد أثناء طفولته (مثلا بسبب مشاحنات الوالدين أو إصابة أحدهما بمرض نفسي). أما العوامل الواقية فيمكن إرجاعها الى اختلافات مستويات الذكاء وقدرة التغلب على المرض أثناء الطفولة. العوامل الواقية الأخرى تشمل القدرة على وضع مسافة بين الشخص والحدث المؤلم والقدرة على الإدراك بأن خبراته مكنته سابقا من التغلب على الصدمات فيشعر بالثقة في التغلب عليها مستقبلا. ولا ريب أن الدعم العائلي والاجتماعي والمادي للاجئ وقدرته على كسب الوسط المحيط الى جانبه تلعب دورا كبيرا في الوقاية من الاضطراب النفسي.

العلاج

طبعا يتعذر التفصيل حول أنواع علاج الاضطرابات النفسية التي يتعرض لها اللاجئون وضحايا التعذيب. ولكن يمكن التأكيد أن ذلك لا يقتصر على العلاج الطبي والعلاج النفسي فقط، بل يتضمن جوانب متداخلة ومتكاملة هي:

١- الجانب النفسي يشمل العلاج النفسي بمختلف أشكاله (الفردي وعلاج العلاقات الزوجية والعائلية) إضافة الى استخدام العقاقير أحيانا.

إحدى الوسائل الفعالة في معالجة اللاجئين التشيليين أثناء حكم بينوشيت تسمى "طريقة العلاج بالشهادة"، وذلك من خلال حث اللاجئ على السرد الدقيق لوقائع التعذيب والإرهاب التي تعرض لها وكأنه يدلي بشهادة دقيقة أمام محكمة، وهذا السرد ليس تاريخيا فحسب بل إن المعالج يحث اللاجئ للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه أثناء محنته ولاستعراض دوافعه للعمل السياسي. ويحاول المعالج إبراز قدرات اللاجئ على مقاومة المصاعب والنجاة بحياته وخاصة في قدرته على الإفلات من الإرهاب، ويسجل الحديث على شريط يفرغ كتابة فيبدو أشبه بالوثيقة المكتوبة أو القصة. ويستطيع اللاجئ أن يعيد كتابة هذه القصة كما يرتأي لكي يخرج بتصورات فكرية وعاطفية تنقله من موقع الضحية الى موقع البطل أو الإنسان الفاعل الذي يتحكم في كتابة قصة حياته بدلا من أن يبقى ضحيتها، فتكتسب القصة مغزى جديدا ضمن السياق العام للأحداث بعد أن كانت مزيجا من الألغاز المتناقضة التي تقض مضجعه. بانتقال اللاجئ الى موقع البطل فإن مشاعر القدرة والمقاومة تطرد مشاعر الضعف والمذلة. هذا العلاج يقوم على فلسفة "الأسلوب

السردي" ومفادها أن أحداث الماضي لا يمكن تغييرها ولكن يمكن أن يعاد تفسير هذه الأحداث كي يتحسن المريض ويستعيد توازنه النفسي.

فمحور اهتمام هذا العلاج هو الانتقال من "الحقيقة التاريخية" الى "الحقيقة السردية". فعن طريق هذا العلاج يقوم اللاجئ أيضا بإعادة صياغة تصوراته حول تجاربه وقناعاته بشأن نفسه ومحيطه وذلك على الصعيدين الفكري والعاطفي. الفكري يهدف الى جعله أكثر واقعية لتقييم نفسه وتعامله مع الغير، ولهذا أهمية كبرى في علاج الكآبة ومساعدة اللاجئ الذي يجابه صعوبة التأقلم. أما على الصعيد العاطفي فالهدف هو استعادة مشاعر الألم أو الغضب التي اعترته أثناء التعذيب والإرهاب بعد أن كبتها في غقله اللاواعي فبقيت تتحكم في مشاعره وسلوكه، ويسهم المعالج بجعل اللاجئ أكثر تحملا لتلك المشاعر وأكثر وعيا لها. فكبت المشاعر والأفكار في اللاوعي يسبب إما الشعور بالذنب أو بالضعة، وعندما تتحول هذه المشاعر والأفكار الى كلمات فإنها تصبح ظواهر واعية يمكن مناقشتها وتكييفها وتغييرها. وبذلك يتحول الألم الى فخر تختفي إزاءه مشاعر الضعة أو الشعور بالذنب، فيشعر عندئذ بأن معذبيه هم أحرى بالشعور بالذنب والخجل (إن كانوا بشرا لهم القدرة على تحسس مشاعر إنسانية كهذه).

الإرشاد النفسي يفيد اللاجئين الذين يصادفون صعوبات في التأقلم، فالمرشد يساعد اللاجئ على استعادة الثقة بقدراته بتعامله معه باحترام لمنزلته الاجتماعية في وطنه وقدرته على التغلب على الصعوبات وبقائه على قيد الحياة رغما عنها. فهو يساعد اللاجئ على التأقلم بشرح الفوارق الحضارية والثقافية ويزوده بمعلومات عن عادات وثقافات البلد، ويحثه على الخروج من التقوقع والدخول في تجارب دونما تردد أو هلع لكونها غير مألوفة. وعن طريق الإرشاد النفسي يكتسب اللاجئ خبرات اجتماعية جديدة تسهل تأقلمه، وقد يساعد المرشد على توفير فرص لقاء اللاجئ بمواطنيه للحصول على الدعم المعنوي والنفسي. قد لا يحبذ اللاجئ مع ذلك الحديث عن مشاكله الشخصية مع مواطنيه خشية القيل والقال، فعلى المرشد عندئذ أن يحترم رغبات اللاجئ ولا يفرض أي شيء عليه.

من صعوبات الإفادة من العلاج أو الإرشاد النفسي عدم امتلاك اللغة بطلاقة والعجز عن الدقة في التعبير عن المشاعر أثناء العلاج. اللاجئ قد تعوزه المفردات حتى في لغته الأصلية للتعبير بشكل دقيق عن أحاسيسه وعواطفه. قد يكون المترجم من الأقرباء أو الأصدقاء فيسبب حرجا للاجئ. والمؤسف أن الكثير من الأطباء والمعالجين النفسيين تعوزهم المعرفة لعادات وثقافات بلدان اللاجئين مما يؤدي الى خطأ التشخيص وصعوبات

العلاج النفسي. إن بعض اللاجئين يعتقد أن مراجعة الطبيب النفسي معناها إصابته بالجنون لأنه لا يدرك أن هناك دواع كثيرة للعلاج النفسي، فضلا عن أن مفهوم الجنون مفهوم بال ولا فائدة منه. ويعتقد لاجئون كثيرون أن مشاكلهم النفسية ناتجة عن مشاكل اجتماعية وسياسية (وهم على حق في ذلك)، ولكن الفصل التعسفي بين الجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية هو فصل اختزالي مفرط.

٢- الجانب الاجتماعي يتضمن جعل عملية اللجوء أكثر شفافية وإنسانية، بالإضافة الى تأمين الرعاية الصحية (النفسية) للاجئ ومستلزمات السكن والدراسة والعمل ولم شمل العائلة.

٣- الجانب السياسي يتضمن الحل الجذري مستقبليا للمشاكل النفسية الناتجة عن التعذيب واللجوء، وذلك باحترام حقوق الإنسان وسيادة الديمقراطية. ينبغي التأكيد هنا أن تطوير الشخص لاستقلاله ونضجه الداخلي لا يتعارض مع العمل الجماعي من أجل العدالة وحقوق الإنسان. فالفيلسوف دريدا يعتقد أنهما عمليتان متكاملتان، وهذا يذكرنا بوصية أفلاطون: "اعرف نفسك" حيث تكتسب هنا بعدا تحريريا من الناحية الاجتماعية والسياسية.

ملاحظة:

لمزيد من المعلومات حول الاضطرابات النفسية الناتجة عن التعذيب أو اللجوء وطرق علاجها يمكن مراجعة المصادر التالية:

1) Allodi, F. (1982). Psychiatric sequelae of torture and implications for treatment. World Medical Journal, 29: 71-75.

2) Basoglu, M. (1992). Torture and its Consequences. Cambridge: Cambridge University Press.

3) Gienfuegos, A.J., & Monelli, G. (1983). The testimony of political repression as a therapeutic instrument. American Journal of Orthopsychiatry, 53: 41-53.

4) Kinzie, J.D., & Fleck, J. (1987) Psychotherapy with severely traumatized refugees, American Journal of Psychotherapy, 41: 82-94.

5) Ochberg, F.M. (1988). Post-traumatic therapy and victims of violence. New York: Brunner/ Mazel.

6) Somnier, F.E., & Genefke, I.K. (1986). Psychotherapy for victims of torture. British Journal of Psychiatry, 141: 1628-1639.

7) Van der Veer, G. (1998). Counselling and Therapy with Refugees and Victims of Traumas. New York: Wiley.

العمارة المعاصرة في بغداد*

جذورها وتطورها

د. إحسان فتحي
ت: د. جاسم الدباغ

يهدف البحث الى تتبع بدايات العمارة المعاصرة في بغداد وتطورها خلال العقود السبعة الأولى من القرن العشرين. قد تكون مثل هذه المحاولة غير متكاملة بدون استعراض عام لتاريخ بغداد. غير أن تاريخ تأسيس هذه المدينة العربية العظيمة وتطورها اللاحق قد تمت تغطيته، وبشكل شامل، من قبل الرحالة والمؤرخين العرب. من الناحية العملية، لم يكن ذلك جردا لتاريخ العمارة المعاصرة.

إن تاريخ بغداد زاخر بالأحداث المضطربة، لكنها كانت دائما قادرة على النهوض بالرغم من التدمير الذي حل بها جراء الاحتلال الأجنبي، الصراعات الطائفية، الحرائق، الطاعون، والفيضانات المتكررة الأكثر تخريبا.

يعبر اسم بغداد عن فتنة الشرق أكثر من أي مدينة شرقية أخرى. ويتعزز هذا التصور اليوم، بشكل واسع، بالارتباط مع أساطير ألف ليلة وليلة وغيرها من القصص الخيالية التي استلهمتها هوليوود وغيرها من وسائل الإعلام الغربية. قد تتولد صدمة كبيرة عندما نعلم أن عمارة بغداد وطوال خمسة قرون، منذ تأسيسها عام ٧٦٢م وحتى سقوطها على يد المغول في ١٢٥٨، لم يبق منها سوى ٨ أبنية عباسية. أربعة منها فقط يمكن اعتمادها كمصدر تاريخي، في حين أن الأربعة الباقية، وبمرور الزمن، تعرضت الى تحويرات عديدة.

في الواقع، وبعد مرور ١١٠٠ عام على تأسيس المدينة (من عام ٧٦٢ وحتى حكم بغداد من قبل الوالي المصلح مدحت باشا في ١٨٦٩ الذي بدأ بمشاريع عصرية كبرى في المدينة)، لم يبق سوى ٣٨ مبنى تاريخيا هاما وهو ما يمكن أن يوضح مدى جسامة الخسارة في تراث العمارة البغدادية، مما ساهم في تعقيد المحاولات لتقديم استنتاجات دقيقة عنها. فإن الأمثلة المتبقية قليلة، لكنها قد تعطينا لمحة ولو صغيرة عن عمارة معقدة وجميلة وصلت إلينا بغداد. مع هذا، فإن الأمثلة، من العمارة العباسية وغيرها من المواقع الأثرية، وخصوصا في سامراء، تساهم في تقديم دليل مقارن ثابت.

تتمثل المأساة الأخرى في أن "بغداد الأصلية" لم يبق منها أثر، عدا محراب من المرمر وجد في جامع الخاصكي. يؤكد بعض المؤرخين أنه محراب جامع المنصور، وهو يعرض اليوم في المتحف العراقي مع أن الدليل على صحة هذا الادعاء لم يحسم بعد. لقد تم التعرف على موقع بغداد المدورة من خلال التحليل المقارن. فتقع المدينة اليوم تحت كتل الأبنية السكنية في الشالجية والعطيفية. مما يؤسف له عدم بذل الجهود اللازمة للكشف والتعرف على تخطيط المدينة، الذي كان الأكثر إثارة وإعجابا في العالم الإسلامي. بنى المدينة، المدورة المشهورة، الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٦٢-٧٧٥)[1] عام ٧٦٢م، في موقع استراتيجي بالقرب من الضفة الغربية لنهر دجلة. يؤكد المؤرخون العرب أن المدينة كانت دائرية الشكل تماما، قسمت الى ثلاث مناطق (من مركزها ج.د.) متميزة ومنفصلة بواسطة ثلاثة أسوار. هنالك أربعة شوارع متعامدة تنطلق من مركز المدينة، حيث يقع قصر المنصور والمسجد الجامع، لتنتهي بأربع بوابات ضخمة في السور. تقسم الطرق المدينة الى أربعة قطاعات، كل قاطع مفصول عن الآخر بسوق مسقف[2].

قبل تأسيس بغداد كانت هنالك مدن دائرية عدة، غير أنها لم تصل الى دقة وقوة وبساطة تخطيط بغداد التي كانت الأكثر عمقا في تخيل طبيعة السلطة المركزية، وتعبيرا شاملا عن النظرة الخارقة والميتافيزيقية لها. تقدر مساحة المدينة، التي تشبه القلعة بـ٥٥٠ هكتارا. كان ذلك نتيجة للتوسع المتسارع الذي شمل الضفة الثانية من النهر، حيث عسكر جند ولي العهد المهدي (٧٦٨). أدى التوسع الى زحف مركز المدينة الى الضفة الشرقية للنهر، ومع حلول القرن العاشر الميلادي، تكامل مقر الخلافة في الضفة التي تعرف اليوم بالرصافة. إن تعبيرنا اليوم عن "بغداد القديمة" يعبر عما تبقى منها في الرصافة، وجزئيا في المنطقة السكنية في الكرخ، التي تمتد جذور الإسكان فيها الى فترة ما قبل تأسيس بغداد.

تجدر الإشارة الى أن بغداد المدورة استمرت لحوالي ثلاثة قرون فقط[٣]. ومنذ القرن الثاني عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين، لم تتغير الشبكة الحضرية الأساسية (الرصافة). فالتغيرات العمرانية مست أسوار المدينة فقط، لدورها الهام في الحد من تأثير الفيضانات. وللعلم فإن السيطرة على خطر الفيضان حسمت نهائيا في عام ١٩٥٦ حين استكمل بناء مشروع سد الثرثار، الذي سمح لتوسع عمراني كبير في المدينة.

ما هي عمارة بغداد؟ وما هي المظاهر الأساسية لها؟ الجواب ليس سهلا، وقد يكون مفعما بالتعقيد. فأولا: إن تاريخ بغداد يعكس خليطا استثنائيا من التأثيرات الحضرية، بدءا من حضارة ما بين النهرين، الآشوريين، العباسيين، البويهيين، السلاجقة، المغول، التركمان، الصفويين ثم العثمانيين. ثانيا: وكما أشرنا أعلاه، لم يبق من كل هذه العهود سوى عدد محدود من الأبنية ذات القيمة التاريخية، خصوصا من العهود القديمة. لذا قد يستحيل تحديد مدى تأثير كل ذلك على العمارة العباسية في بغداد.

ومن خلال المؤشرات المقارنة المتوفرة حاليا، إضافة الى بعض التقديرات الحديثة، تتضح بعض المميزات والمظاهر العامة للعمارة التراثية في بغداد. أهمها يمكن طرحه بثقة وهو إمكانية تشخيص العمارة البغدادية من خلال الاستعمال البارع للطابوق في الأشغال الهندسية والتزيين الداخلي. يعود تاريخ استعمال الطابوق المفخور (المشوي) والملون والمزجج الى حضارة ما بين النهرين حين استخدم لحل معضلة عدم توفر مواد بنائية متينة كالحجر. واستخدم كمادة مناسبة للأعمال النهائية والتزيين الرائع والمتألق للجدران والقباب في محيط عرف بمناخه القاسي وألوانه الكئيبة وتضاريسه المملة. لذا، ففي مجال استعمال المواد البنائية، فإن عمارة بغداد تعتمد أساسا على القيم الجمالية لأعمال الطابوق ذي اللون (الأصفر – البني) المميز، وخصوصا الطابوق المزجج، الأخضر المزرق (التركواز).

إن المؤشر الآخر على العمارة البغدادية هو اعتماد المخططات المعمارية على الإيوان ذي القباب والملتصق بالفناء المفتوح المفضي الى فناءات داخلية أخرى. إن الفناءات، كما هو معروف، كانت تتوزع على محاور ضمن التكوين العام للمخطط. بكلمة أخرى، فإن الهدف الأساسي للمخطط هو خلق سلسلة متدرجة من الفضاءات المنغلقة على نفسها. أما من ناحية الشكل العام، فإن عمارة بغداد هي عمارة صلدة. وتتمثل الفتحات عموديا في (الجدران)، وأفقيا في فتحات كبرى هي (سقوف) الأفنية المفتوحة.

تعتمد عمارة "بغداد القديمة" على ترابط العموميات التي ذكرناها. لكن هذا لا يعني عدم

وجود نمط وتكييف متميز. بشكل عام، فإن أغلب الأبنية التاريخية، التي تعود الى الفترة العثمانية المتأخرة من القرن التاسع عشر، قد بنيت بالطابوق والخشب. وتعود أسباب ذلك الى المتطلبات المناخية والاجتماعية – الدينية. كما يبدو، فإن العمارة السكنية المألوفة قد عانت من بعض التغيرات الرمزية أكثر مما في الأسلوب. استمر اعتماد المخطط النموذجي للبيت البغدادي على الفناء المفتوح المرتبط بالرواق الأعلى، مع ميل شديد للتناظر والهندسة الدقيقة، وذلك بالرغم من عدم انتظام حدود الموقع وطبيعة النسيج العمراني المتشابك.

يمكن الإشارة بالتحديد الى أن العمارة السكنية[4] تنم، على الأغلب، عن الاهتمام بالاعتبارات الجمالية على حساب التنظيم الوظيفي. قد يفسر هذا الأمر حقيقة أن تعبيري (الفضاء) و(الاستعمال) ليسا جامدين فتوزيع الفضاءات في مخطط الدار البغدادية مثل الغرف وغيرها، كالإيوان والفناء، ليس لها حدود تصميمية أو استعمالية. ولا يوجد تخصيص لفضاء محدد، مثلا للطعام أو للمعيشة أو للنوم. وسكان الدار ينتقلون ببساطة من غرفة (أو من طابق) الى أخرى، موسميا أو حتى يوميا ارتباطا بالاعتبارات المناخية الأنسب. ففي أشهر الصيف يهبطون الى السرداب للقيلولة ظهرا ويصعدون الى السطح للنوم ليلا. العامل الآخر المؤثر على "الهجرة" الداخلية هذه، هو عدم وجود أثاث محدد الاستعمال. فلقد تمت معالجة (الأثاث) معماريا، فإما أن يكون ضمن البناء، أو يوضع فوق الأرض مباشرة، لذا من السهولة تغيير مواقع الأفرشة (الحشيات) والوسائد.

وهكذا، ففي غياب فضاء محدد في الدار، تأخذ الاعتبارات التشكيلية والجمالية بعدا أعمق. إن مفهوم الشكل في العمارة السكنية هو الأكثر أهمية وإثارة من الوظيفة، التي تعتمد التكرار والاستعمال المتعدد. لقد تقلصت مساحة بغداد وفقدت بريقها منذ سقوطها عام ١٢٥٨ (على يد هولاكو – ج. د.). وبالرغم من المؤثرات الخارجية خلال القرون الثلاثة التالية، فإن بغداد استمرت بزخم في تطوير نمط العمارة العباسية، فحافظت بالتالي على مظهرها. أدى العهد العثماني الى تغيرات في رمزية العمارة، وخصوصا في عمارة المساجد. فقد كان العباسيون يعتمدون في تصميم المساجد على نمط التسقيف الأفقي ذي الأروقة مع الصحن. في حين فرض العثمانيون نمطهم الخاص المعتمد على الفضاءات ذات القباب. فبدلا من الأروقة ذات الأعمدة لقاعة الصلاة، أصبحت تغطي معظم الفضاء المركزي للمسجد قبة مركزية ضخمة.

إن التأثيرات التركية على العمارة السكنية كانت أقل وضوحا من الناحية الرمزية. ولكن مع هذا، فقد تم الترحيب بالتغير في الأسلوب المعماري، وبشكل خاص استعمال

الخشب في الطوابق العليا وفي الأعمدة والنوافذ والأبواب. إضافة الى ذلك، حدثت تغيرات واضحة على أعمال التزيين الداخلي من خلال الإفراط في زخرفة المورقات على حساب الأشكال الهندسية.

استمرت بغداد تحت السيطرة التركية وهي تعاني من الركود والتطور البطيء، حتى ولاية مدحت باشا (١٨٦٩). حيث شهدت بغداد خلال ولايته القصيرة (١٨٦٩ - ١٨٧١) مؤشرات أساسية للعصرنة، أثرت بشكل كبير في مستقبل المدينة. كان أهم قراراته هدم أسوار المدينة[٥] مع الحفاظ على المداخل. كما بنى عددا من الأبنية العامة مع تقديم الخدمات البلدية الحديثة للسكان وشق العديد من الطرق.

تعتبر بناية السراي وبرج الساعة في القشلة (١٨٦٩) من أهم الأبنية النصبية التي أثرت في خط البناء الأفقي (Sky Line) للمدينة. البنايتان قدمتا ولأول مرة نمط العمارة الغربية. يبلغ طول بناية السراي ٢٠٠ متر، أي أن لها ضعف طول أهم بناية حتى ذلك الوقت: المدرسة المستنصرية (١٢٣٣م – ج. د.). كما ظهرت لأول مرة أبنية مغلقة بدون فناء مفتوح، بل إن أغلبها اعتمد نمط العمارة الغربية، كما هو الحال في بناية مدرسة السراي للأيتام.

شهدت الفترة المتأخرة من السيطرة التركية ظهورا سريعا للأثاث ذي النمط الغربي. تطلب ذلك إعادة التفكير في أسس استعمالات الفضاء في البيوت التقليدية. وهكذا مع مطلع القرن العشرين، ظهرت الدور المنفصلة، المغلقة بدون فناء، التي صممت فضاءاتها لوظائف محددة.

حدث آخر أثر بشكل كبير حين اتفقت السلطة المركزية مع الألمان على إنشاء خط سكة حديدية يربط ما بين أوروبا وبغداد (١٩١٥). فأدخل المهندسون الألمان نظام التسقيف بالعقادة المعتمد على جسور من مقطع الحديد على شكل حرف I [٦]. انتشر نظام البناء هذا سريعا لكونه الأسرع، الأرخص والأكثر متانة. أنشأ الألمان في منطقة السكك في الصالحية بنايتين بارتفاع ثلاثة طوابق. البنايتان شدتا النظر إليهما باعتبارهما نموذجين لإمكانية استخدام الحديد والخشب مع الطابوق المحلي في الهياكل الإنشائية[٧]. عزز ذلك نمط البناء المغلق ذا المدخل الأمامي والشرفات البارزة على الخارج مع السقف المائل.

مثل الاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٥ – ١٩١٨) نقطة انعطاف هامة في تاريخ العراق الحديث. ولتعزيز سيطرة الإدارة البريطانية، تم تنفيذ العديد من المشاريع الخاصة بالبنى التحتية، كما شيدت أبنية عامة ضخمة. إن تأسيس المملكة العراقية، في عهد فيصل

الأول، وظهور العهد الوطني (١٩٢١) شهد العراق مشاريع تنموية طموحة، وإن كانت بطيئة كان لبغداد حصة الأسد منها. مع ذلك، رزح العراق تحت الانتداب البريطاني لحين انضمامه الى عصبة الأمم عام ١٩٣٢. وفي عام ١٩٢٧ اكتشف النفط في كركوك بكميات كبيرة، لكن تصديره بكميات تجارية لم يبدأ إلا في عام ١٩٣٤. وقد وفر ذلك عوائد نفطية سرعت من توجهات العصرنة.

خلال فترة الانتداب البريطاني (١٩١٥ – ١٩٣٢)، لعب اثنان من المعماريين البريطانيين دورا متميزا في تطور العمارة العراقية من خلال مشاريعهما المشتركة أو الفردية. كان الأول: ج.م. ويلسن (١٨٨٧ – ١٩٦٥)، والثاني: هـ.س. مايسون (١٨٩٢ – ١٩٦٠). قاما بتصميم العديد من مشاريع الأبنية العامة التي كان لها دور مؤثر في العمارة العراقية بشكل عام. أصبح ويلسن أول مدير للأشغال العامة في العراق، من أجمل مشاريعه جامعة آل البيت في الأعظمية – بغداد (١٩٢٢ – ١٩٢٤). كان ويلسن أحد مساعدي السير آدوين ليتوين في نيودلهي عام ١٩٢٥[٨]، فتأثر بأسلوب ليتوين، كما تبنى طريقة الاستفادة من مواد وتقنية البناء التقليدي. لذا كانت مشاريعه في العراق حصيلة التفاعل بين العمارة الإسلامية والعمارة الكلاسيكية الغربية. تتصف أعماله بالتناظر التام وقبة في المركز، مع رواق وتفاصيل لأعمال جميلة بالطابوق المحلي. المشروع الرائع الآخر لويلسن هو قصر الملك فيصل الأول (١٩٢٧) الذي لم ينفذ.

أما مايسون فقد تخرج في جامعة ليفربول تحت إشراف البروفسور ريلي. بعد وصوله للعراق (١٩٢٠) أصبح مايسون تحت إدارة ويلسن، كمعمار مساعد للحكومة في بغداد. إن أغلب أعماله تمت بالاشتراك مع ويلسن. وبشكل عام، لا تعكس مشاريعه الفردية التعاطف ونكهة العمارة المحلية، كما هو الحال في المشاريع التي صمماها مع ويلسن. أما أهم مشاريعه التي صممها بمفرده فهي: بناية البريد والتلغراف (١٩٢٩) ومطار بغداد (١٩٣١) والقصر الملكي في الحارثية (١٩٣٣). وكلها مشاريع عكست إهمالا متعمدا للتراث المحلي مع الإيغال في التوجه نحو نمط العمارة الغربي، خصوصا الأنظمة الكلاسيكية ذات الواجهات المتميزة بالأعمدة والسقوف المثلثة المائلة.

مع كل ذلك، نجح ويلسن ومايسون في تفعيل خبراتهما، فقدما حصيلة متميزة، اعتبرت مقدمة عامة للعمارة العراقية. إن من الصعب أن ندرج كل أعمالهما، لذا سنكتفي بالإشارة لأهمها مثل: المستشفى التذكاري للجنرال مود في البصرة (١٩٢١)، وهو أول مشاريعهما في العراق، البلاط الملكي في بغداد (١٩٢٣ – تم تهديمه الآن)، كنيسة سانت

جورج (١٩٢٦)، مقر قيادة القوات البحرية (١٩٢٩)، مطار البصـــرة (١٩٣١) وأخـيرا مشروعهما الرائع: المحطة العالمية للسكك الحديدية في بغداد (١٩٤٧ - ١٩٥١).

المعمار البريطاني الآخر الذي كان له دور متميز أيضا، هو ج.ب. كوبر، الذي بــدأ أول أعماله في بغداد في منتصف الثلاثينيات. كان له نفس أسلوب ويلسن، مع اهتمام أكـبر بالعمارة الغربية، وتأثر أقل بالعمارة التراثية في بغداد. إن من أهم مشــاريعه: الضريــح الملكي في الأعظمية (١٩٣٤ - ١٩٣٦)، وبالرغم من خصوصيـــة المشــروع وظيفيــا وطبيعة الزبون الخاصة، لكنه يعتبر أحد الصروح الإسلامية. إضافة لذلك صمــم كوبــر بناية كلية الهندسة (١٩٣٧) وقصر الرئاسة ومجلس النواب العراقي (١٩٥٧ - ١٩٥٩).

في أوائل الثلاثينيات، قررت الحكومة العراقية إيفاد أول بعثة طلابية لدراسة العمــارة في إنكلترا. كان من ضمنهم أحمد مختار (١٩٠٧ - ١٩٦٠) الذي تخرج فــي ليفربــول (١٩٣٦) ليصبح المهندس المعماري للحكومة العراقية (١٩٣٧)، ثم مديرا للأشغال العامــة (١٩٥٢). المعمار الثاني هو حازم نامق (ولد ١٩١١) الذي تخرج في كــارديف (١٩٣٦) وعمل مع مختار في قسم الأشغال العامة. أكمل اثنان آخران دراستهما وعادا للعراق هما: مدحت علي مظلوم (١٩١٣ - ١٩٧٣)، وجعفر علاوي (ولد ١٩١٥) وكلاهما تخرج فــي ليفربول (١٩٣٩). ليتبعهم معماريون آخرون منهم: محمد مكية (ولد ١٩١٧)[٦]، وعبــد الله إحسان (ولد ١٩١٩)، قحطان المدفعي (ولد ١٩٢٧)، وقحطان عونــي (١٩٢٦ - ١٩٧١)، ورفعت الجادرجي (ولد ١٩٢٦)، وهشام منير (ولد ١٩٣٠) والحســـني. وبحــدود عــام ١٩٥٦ أصبح عدد المعماريين العراقيين حوالي ٣٠ معمارا.

إن تحليلا شاملا لأعمال وحياة كل هؤلاء المعماريين العراقيين يخــرج عــن نطــاق البحث. مع هذا، قد يكون من الضروري أن نتناول خلاصة عامة، ولو مختصرة عنـــهم، بهدف تتبع آثار العمارة الحديثة في بغداد خلال العقود الأربعة الماضيـــة. لنبــدأ بعــامل أساسي واضح هو انقسام المعماريين الرواد العراقيين الى مجموعــات تبعــا لدراســاتهم: البريطانية (ليفربول وكارديف)، الأمريكية (تكساس وكاليفورنيــا) والمصريــة. إن مــن الطبيعي أن تتأثر مسيرة العمارة العراقية بتوجهات المعماريين المختلفــة الذيــن تــأثروا، ضمن أشياء أخرى، بدراستهم وخبرتهم أثناء الدراسة، وخاصة الخـــبرة التطبيقيــة. أمــا المجموعة الرابعة فتشمل التوجهات العراقية، التي تمثل اليوم الأغلبية الساحقة مــن ١٥٠٠ معمار في العراق.

في أواخر الثلاثينيات، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، لوحظت زيادة كبــيرة فــي

المشاريع المنفذة من قبل مديرية الأشغال العامة وغيرها من الدوائر الرسمية. حينها حصل تغيير في نمط الدور السكنية. فبدلا من مخطط المسكن البغدادي ذي الفناء والمنطوي على نفسه، ظهرت نماذج من الدور نصف مفتوحة. كما تعرضت الشبكة العمرانية الى تغيرات كلية أحيانا. فبدلا من النسيج العضوي المتضام ظهرت شبكة من الطرق المتعامدة المتوازية وصفوف من الأبنية المتجاورة. فتحول الفناء المفتوح الى بهو (هول) مركزي مسقف. وأصبح شيئا مألوفا في (الفيلات) الحديثة مشاهدة نوافذه المفتوحة على الخارج مع شرفات ومداخل أمامية. ظهر ذلك خصوصا في مناطق السنك، البتاوين، العيواضية والوزيرية. وكان التوسع الأقل شأنا في جانب الكرخ.

ظهرت في هذه الفترة مواد بنائية جديدة مع تقنية إنشائية حديثة. فقد أنتجت شركة مردوخ وبروك (١٩٣٧ – ١٩٣٨) الحجر الصناعي وبياض الجدران من النوع الرفيع. كما اكتشفت الشركة مقلعا للرمال الجيدة في الحبانية وأنشأت أول مصنع حديث لإنتاج الطابوق. في ذلك الوقت تم استيراد الكثير من المواد الداخلة في العمارة من بريطانيا مثل: النوافذ الحديدية، الأبواب، المرافق الصحية وملحقاتها، الأجهزة الكهربائية ومصادر الإضاءة والمرازيب.

صمم المعماريون البريطانيون أغلب الأبنية العامة، التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، لكن التنفيذ تم من قبل مقاولين محليين اعتمدوا على بنائين مختصين (أسطوات) متعايشين مع مواد البناء والتقنية المحلية. لذا اعتمد عليهم كل من ويلسن، مايسون، كوبر وجاكسون. فلم يكن لهؤلاء أن يقدموا للأسطوات شيئا غير المهارة الفنية والإبداع في التفاصيل المعمارية. الشيء نفسه ينطبق على المعمار السوري بدري قدح[١٠]، الذي عمل في بغداد خلال الثلاثينيات.

يعتبر مدحت مظلوم أول المعماريين الأربعة الأوائل في هذه الفترة (لاحظ الجدول)، ويعتبر بحق المعمار التجريبي الأبرز بينهم. أما أعمال أحمد مختار فهي تمثل ولادة العمارة الرسمية المعتمدة من قبل مديرية الأشغال العامة. كانت أهم مشاريع هذه الفترة: النادي الرياضي الأولمبي، بريد الأعظمية وقسم التمريض الممتاز في المستشفى الملكي. لم تسمح الظروف الصحية السيئة لمختار أن يقدم نماذج فردية متميزة. رغم هذا يمكن الإشارة الى تصميمه (فيلا) جميلة، ذات طراز إسباني، تقع حاليا في منطقة السعدون، كذلك تصاميمه لفندق حكيم، فندق قصر دجلة وسينما الفردوس، وكلها أبنية مازالت قائمة في بغداد.

عمل حازم نامق (ولد ١٩١١)، أغلب الأوقات، في مديرية الأشغال العامة لحين تأسيس مكتبه الخاص (١٩٥٨) بمشاركة فاضل لازار وحازم التك. يبقى مدحت مظلوم الأكثر ميلا للفنون التشكيلية من الأربعة الآخرين. كما كانت لمظلوم، في أواخر سنوات عمره، أعمال متميزة في دول الخليج. إضافة لعمله لفترة قصيرة في الأوقاف، نفي مظلوم الى روديسيا لمدة ثلاث سنوات بعد حركة مايس (١٩٤١). ومن أهم أعماله الشخصية: سينما قدري، مستشفى التويثة، مسبح الأمانة، وبناية السوفير (السفير؟) في شارع الرشيد. أما جعفر علاوي (ولد ١٩١٥) الذي تخرج مع مظلوم في جامعة ليفربول، فلم يقدم عملا متميزا حتى الخمسينيات. ونشير الى كونه أول معمار أسس مكتبا خاصا له (١٩٤٦).

العمارة التي ظهرت على يد هؤلاء الرواد الأربعة تميزت باعتمادها النمط العالمي السائد في الغرب. لذا فإن هذه الأعمال أظهرت إهمالا كليا للتراث المحلي والمضمون الثقافي. لكنها أعمال لم تخل من براعة وتفهم للمهارة الحرفية والتفاصيل، خصوصا في أعمال علاوي. لقد عكسوا في أعمالهم تأثير مدارسهم العريقة عليهم.

كانت الأربعينيات فترة صعبة للمعماريين بسبب الاضطراب السياسي الداخلي ونشوب الحرب العالمية الثانية. في ذلك الوقت، عاد لبغداد بعد إكمال الدراسة في الخارج، أربعة معماريين عراقيين هم: محمد مكية (ولد ١٩١٧)، عبد الله إحسان (ولد ١٩١٩)، نعمان الجليلي (١٩٢٠) وسعيد مظلوم (١٩٢٠) وعموما اتبعوا من سبقهم من العراقيين في تبني نمط العمارة العالمية. كما شهدت هذه الفترة ظهورا بطيئا لتقنية الإسمنت المسلح (الكونكريت المسلح)، والإسمنت بشكل عام، مما أدى الى انخفاض حاد في أسلوب عمل الأسطوات الذين قاوموا التقنية الجديدة. إضافة لذلك، ظهرت تقنية نظام التسقيف بالوحدات المسبقة الصب، التي قدمها لأول مرة علاوي والمخزومي (١٩٤٩).

كانت فترة الخمسينيات، فترة التنمية السريعة بشكل مكثف. فبدءا من عام ١٩٥٢، وخصوصا بعد إقرار اتفاقية مناصفة الأرباح مع شركة نفط العراق. فقد ارتفعت العوائد النفطية من ثلاثة ملايين دينار عام ١٩٤٩، الى خمسين مليون دينار عام ١٩٥٣. ساهم ذلك في توفير ميزانية ضخمة تحت تصرف الحكومة العراقية. لقد أقرت مشاريع تنموية ساهمت في رفع درجة التصنيع وبالتالي قيام العديد من المشاريع العمرانية إضافة لمد شبكات من خدمات البنى التحتية. أصبحت بغداد، فجأة، مركزا فاعلا وعامل جذب للنشاطات التجارية وللمئات من رجال الأعمال والمعماريين. إن من الممكن تقييم مدى الإسهام المعماري في عمليات الإنتاج الواسعة في الخمسينيات، فقد أصبح عدد المعماريين

العراقيين حينذاك حوالي الثلاثين. أما من حيث التقييم النوعي، فإن العمارة التي قدموها كانت عادية وسلبية، إنها فترة التوجه المتسارع لتقليد الغرب. لذا كانت المحاولات تعكس إهمالا للجذور الثقافية بأمل اللحاق بـ(عربة السيرك الغربية). ربما كان العنصر الإيجابي الوحيد الذي قدم في تلك الفترة هو استعمال "كاسرات الشمس" والمشبكات الخشبية المتحركة (اللوفرات) أمام النوافذ، إذ أنها ظهرت في أعمال: مدحت، عبد الله، الجادرجي ومنير، كروبيوس ونيماير[11]. لابد من الإشارة هنا الى أن نظام التكييف المركزي لم يكن شائعا بعد في بغداد. والحصيلة تؤكد ما أشيع عن عمارة الخمسينيات كونها عمارة مملة اعتمدت كاسرات شمس رتيبة.

في أواسط الخمسينيات، دعا مجلس الإعمار عددا من أشهر المعماريين العالميين لكي يساهموا في الازدهار العمراني. كان من أهمهم: فرانك لويد رايت[12] الذي حضر فعلا، وقدم مخططات أولية حالمة بتصوراته لجامعة بغداد ودار الأوبرا. وكلف لوكوربوزيه بتصميم المجمع الرياضي (أكمل ١٩٧٩). أما (آلفار آلتو) فقد صمم متحف الفنون الجميلة والبريد الرياضي. كما صمم والتر كروبيوس (مجموعة تاك) المجمع الضخم لجامعة بغداد (مازال تحت التنفيذ). وأخيرا دوكسيادس ومشاركوه[13] الذين قدموا عشرة مخططات أساسية لتجمعات سكنية في شتى أنحاء العراق.

ساهم معماريون أجانب آخرون، أقل شهرة، في النهضة المعمارية. كان منهم: كابتن فيليب هيرست، عمل في إدارة السكك وصمم مصرف الرافدين، البنك العثماني ومعمل النسيج في الكاظمية. (ألين) جودت صمم بناية الهلال الأحمر. هانس موليز صمم فندق بغداد. ريتش وخمو صمما بنك بغداد. وصمم بلاتينوف القسم الداخلي للطلاب. أما أدلر وشركاه فقد صمموا عمارةالبدوي في شارع الرشيد. ويضمن هذه الأعمال كان مصنع كوردون روثن للألبان (١٩٥٤). لم تحمل هذه المشاريع طابعا مميزا.

تؤكد الأمثلة المعمارية التي قدمها المعماريون العراقيون، خلال الخمسينيات، الاستنتاج السابق بأن أغلبهم لم يتناول بشكل جدي التراث المعماري العراقي، ولم يفعل شيئا لحمايته أو استلهامه. لذا، وبدون استثناء، تعتبر النماذج المنفذة مرحلة مؤسفة ومتخلفة في العمارة العراقية. شمل ذلك حتى المعماريين الذين نجحوا في العقد التالي في خلق مدارسهم المعمارية الخاصة. لم يتفهم المعماريون ضرورة أن تكون لهم عمارة محلية. (تقدم الفنانون التشكيليون العراقيون، مثل جواد سليم وآخرون، على المعماريين بخلق مدارس تشكيلية متميزة، وذلك بالرغم من وجود صلة ومناقشات يومية منتظمة بينهم).

تشمل هذه النماذج: فندق ريجنت بالاس لمكية (١٩٥٢)، ثانوية الحريري لعلاوي (١٩٥٢)، عمارة مرجان (١٩٥٤) البنك الزراعي لعلاوي وعبد الله إحسان (١٩٥١)، عمارة الشوربجي للجادرجي (١٩٥٢) إضافة لنصب الجندي المجهول (١٩٦٠ – هدم عام ١٩٨٢)، عمارة السامرائي للمدفعي (١٩٥٧)، خان الباشا لعبد الله إحسان (١٩٥٧)، مستشفى الفردوس لعوني (١٩٥٥)، مصرف الرهون للجادرجي وعبد الله والمدفعي وعوني (١٩٥٤)، مقهى ١٤ تموز (منتزه ١٤ تموز في الكاظمية) لمدحت مظلوم وهشام منير (١٩٥٨ – ١٩٥٩). كما أن هناك العديد من الأمثلة لمساكن فردية، لم نتناولها بسبب عددها الكبير، والتي تستحق دراسة منفصلة.

تميزت الخمسينيات بمؤشرات هامة أثرت في مسيرة العمارة في الستينيات، التي تعتبر بالنسبة للكثيرين فترة العصر الذهبي للعمارة المعاصرة في العراق. في هذه الفترة، بدأ الإنتاج في أول معمل للإسمنت في العراق (١٩٥٢) فساهم في توفير إمكانية أكبر لاستعمال الإسمنت المسلح في التشييد. ربما ولدت ثورة تموز ١٩٥٨ تأثيراً ذا مغزى كبير، ليس من خلال تحطيمها، بشكل مفاجئ، العلاقات مع الغرب، بل لأنها ولدت ميلاً كبيراً للاعتداد بالنفس وتعزيز الشعور بالوطنية. انعكس ذلك مباشرة في الفنون التشكيلية والعمارة. أدى الشعور بالوطنية كذلك الى طروحات لخلق الهوية والرمزية في العمارة العراقية اعتماداً على استلهام جذور الحضارة المحلية. تأسست نقابة المهندسين العراقيين (١٩٥٩) فانضم إليها المعماريون. وفي العام نفسه افتتح أول قسم تدريسي للعمارة في العراق. كان ذلك بجهود منير، مكية وعبد الله، مع مساعدة الجادرجي وعوني. أصبحت العمارة، في أواخر الخمسينيات، أكثر وضوحاً وإدراكاً وتم تقدير مهنة العمارة من قبل المهن الأخرى، وخصوصاً من قبل المهندسين المدنيين.

شهدت الستينيات انعطافاً حاداً في التطور العمراني. فاشتدت ظاهرة الهجرة من الريف الى المدينة. وعكست بغداد تجربة النمو المتسارع في الزيادة السكانية والتوسع الجغرافي للمدينة. أدى ذلك أحياناً الى توسع عشوائي وبمقاييس كبيرة في الضواحي الجديدة للمدينة التي قسمت ووزعت بأسعار رمزية لمختلف الشرائح الاجتماعية. اشتد جراء ذلك الضغط على مركز المدينة القديم، الرصافة. ففي الخمسينيات والستينيات تمت إزالة مساحات كبيرة من نسيجه الحضري.

أدى الازدهار الاقتصادي الى توفير فرص كبيرة للمعماريين لتصميم أبنية ضخمة، مثل الأبنية الإدارية، المدارس، المصانع والمستشفيات. وكنتيجة منطقية لذلك، ظهرت

عشرة مكاتب معمارية خاصة جديدة توفرت لها العديد من المشاريع. إن أول دفعة من المعماريين العراقيين تخرجت في جامعة بغداد عام ١٩٦٤. فتم توظيفهم بسرعة في المكاتب المعمارية الخاصة، وعلى الأغلب بنصف دوام مسائي. ينبغي هنا عدم الاستخفاف بهؤلاء المعماريين العراقيين الشباب العاملين خصوصاً في مكتب الجادرجي (الاستشاري العراقي) ومكتب منير (هشام منير ومشاركوه). فقد وظفت هذه المكاتب وحدها أكثر من ١٠٠ منهم، وهو ما يدلل على زخم المشاريع الملتزم بها.

هؤلاء هم من نسميهم بالجيل الرابع من المعماريين، وبعضهم من الشباب ذوي المواهب المتميزة الذين وفروا دماً وحياة جديدة لهذه المكاتب. من بينهم نذكر: اتيلا ضياء الدين، خاجيك كرابيت، سعد الزبيدي، وجدان ماهر، محمود العلي، أكرم العكيلي، مزهر السعدي وآرام زاكاريان. لقد لعب هؤلاء دوراً هاماً، وإن كان بصم، في المساهمة في نهضة العمارة العراقية خلال الستينيات. في أوائل تلك الفترة انضم عدد آخر من المعماريين لهذه المجموعة، ممن أكملوا دراستهم في الخارج وعملوا في الدوائر الحكومية، مثل مديرية المباني العامة، إضافة الى عملهم المسائي في مكاتبهم الخاصة. من هؤلاء معاذ الآلوسي، الذي كان له دور فاعل في (الاستشاري العراقي)، هنري سفبودا، فؤاد عثمان، ابراهيم علاوي وياسر حكمت.

ماذا كان تأثير المعماريين الأجانب على عمارة الستينيات؟ حسناً، أعتقد أن لابد من تناول إسهاماتهم التي تميزت في جانبين: الأول: مدى تأثير مساهمة المعماريين البولنديين الذين كانوا ضمن الهيئة التدريسية في القسم المعماري وأبرزهم باستا[١٤] وجان جايكا الذين كان لهم، من الجانب الآخر، دور بارز في مكاتب مكية. ومن ضمن الآخرين كان الاسكندر ماركويتش وزوجته المعمارية. كذلك روباتجينكي وبيوتاكرهارد. والأخيرون عملوا في مكتب قحطان عوني، وقدموا المشروع المعاصر والمثير للإعجاب، الجامعة المستنصرية.

ثانياً: تأثير محاضرات وزيارات فرانك لويد رايت، لوكوربوزيه ووالتر كروبيس. وجميعهم كانوا ينظرون بتقدير كبير لتراث العمارة الإسلامية. لقد أكدوا على المعماريين العراقيين ضرورة رفض النمط الغربي وضرورة تطوير المفردات المعمارية المحلية الخاصة. أثّر هذا على الجادرجي الذي سرعان ما تنكر لتوجهه السابق (١٩٦١ – ١٩٦٢)، وبدأ في تطوير أسلوبه الخاص. فأصبح يتعامل مع الطابوق المحلي والأوجه الإسمنتية غير المعالجة مع قطع الخشب الزرقاء المخضرة (التركواز). إن مشاركته في

مسابقة وزارة البلديات (١٩٦٥) أتاحت له أن يستعمل، لأول مرة، الأقـــواس المســتديرة التي يشتهر بها حالياً.

ساهم الجادرجي، منذ ذلك الوقت، في خلق مدرسة محلية كان لها تأثير واسع. فـالنمط الجديد يؤكد على الارتباط الواضح مع الماضي، وبشكل خاص مع العمارة العباسية فـــي معالجتها للمواد البنائية، المتطلبات المناخية والضوء. قدم الجادرجي عدة أعمال مـــازالت الأكثر جدية وإبداعاً في العراق. إن من أهم أعمالـــه بنايـــة المجمـــع العلمـــي العراقـــي (١٩٦٥)، مديرية انحصار التبغ (١٩٦٦)، منشـــأة التصنيـــع العراقيـــة (١٩٦٦) وبنايـــة العلوية (١٩٦٩).

أصبح الجادرجي رائداً لنهضة العمارة العراقية. وتـــأثر بأســلوبه، تلقائيـــاً، أغلـــب المعماريين. كما أن مشروع الجامعة المستنصرية لعوني (١٩٦٣) وبناية المؤسسة العامـــة للكهرباء (١٩٦٨)، تعتبران من الأعمال المبدعة والخلاقة. لذا كانت وفاة عوني المبكـــرة (١٩٧٢) خسارة حقيقية للعمارة العراقية. أما أعمال مكيـــة فبـــدأت تـــأخذ خصوصيتـــها ونكهتها (الإسلامية) مع مشروع جامع الخلفاء (١٩٦٣) وبعض الأعمال المتمـــيزة مثـــل: بناية كلية الشريعة (١٩٦٦) ومكتبة الأوقاف العامة (١٩٦٧)، وانتشرت أعماله في كافـــة أنحاء العراق.

قاوم المدفعي الموجة الجديدة، فكانت أغلب أعماله تعكس الصرامة في الشكل وعـــدم الحيوية في الهيكل. مع هذا، تتصف أعماله بتماثل متماسك، لكنه لم يطور خطاً خاصاً بـــه، فكل بناية كانت أشبه بحقل تجارب جديد. إن المثال الوحيد الذي تحدى به المدفعـــي هـــو جامع بنية (١٩٦٤ – ١٩٧١). المشروع، كما يبدو، يعكس قلق المدفعي في شكل المســجد الذي ينبغي أن يكون لبغداد.

في الجانب الآخر، ومنذ الستينيات، أخذت أعمال هشام منير تتفاعل بعزم مع حركـــة المعماريين الجدد. إن عمله مع مظلوم في جامعة بغداد لكروبيوس أثر كمـــا يبـــدو فـــي أسلوبه بشكل واضح. كل هذا لا يقلل من أهمية مشاريع منـــير المتمـــيزة بأســـلوبها، وإن كانت ليست بالضرورة إسلامية. مع ذلك، يتصف أسلوب منير بالدقة والأناقة والهدوء مـــن ناحية الشكل والكتلة، لكنه قد يفتقد الإثارة. والواقع أن منير بطبيعته لم يكن مغامراً، بـــل كان دائماً لطيفاً وهادئاً، وهو ما انعكس في أعماله أيضاً. من الناحية الكمية فإن منير قـــد حصل على أكبر عدد من المشاريع. وقد يكون شيّد في العراق أبنية أكثر من أي معمـــار آخر.

غالبا ما تقيم أعمال منير بكونها ذات نمط عالمي فاقدة للهوية. أعتقد أن مثل هذا الحكم يتصف بالسطحية والتعسف. فلو درست أعماله بشكل معمق، لعرفت قيمة ابتكاراته المثيرة والمتماسكة التي تعكس إخلاصه للاعتبارات المناخية، الإنهاء والتفاصيل. إضافة لذلك، فإن منير يستحق التقدير لزجه الفنانين في أعماله[١٥]. وقد تكون أجمل أعماله وزارة الأوقاف (١٩٦١) وقصر الضيافة – السلام (١٩٦٤) وكلية الصيدلة (١٩٦٥).

خلاصة ما أعتقد، أن من الممكن اعتبار فترة الستينيات ذروة المسيرة التاريخية للعمارة العراقية الحديثة. لذا ينبغي القول: إن فترة السبعينيات ككل كانت فترة كئيبة، تدهورت العمارة فيها بشكل واضح. كما أن التقييم والحكم على فترة الثمانينيات مازال مبكرا جدا. وعموما، فإن ظاهرة ازدهار عمارة الستينيات قد تكون أملا كبيرا في مقدرة بغداد، مرة أخرى وبسرعة، على أن تظهر قيم العمارة في الوطن العربي. وأرى بشكل مؤكد، أن تحديد الهدف بدقة مع الدعم الرسمي الضروري والفاعل كفيلان بإظهار مقدرة المعمار العراقي على تقديم عمارة لن تكون أقل روعة من عمارة أسلافهم العباسيين العظام.

الجدول (١)

الآثار العباسية في بغداد

أ- العصر العباسي (٧٦٢ – ١٢٥٨م)		ب- العصر الايلخاني (١٢٥٨ – ١٣٣٨)	
١- الباب الوسطاني	١١٣٥	١٠- جامع الخلفاء	١٢٨٩
٢- قبر زمرد خاتون	١٢٠٢	١١- جامع العاقولية	١٣٢٨
٣- جامع الخفافين (منارة)	١٢٠٢		
٤- جامع الكرخي (منارة)	١٢١٥	ج- العصر الجلائري (١٣٣٨ – ١٤١١)	
٥- باب الطلسم (الأسس)	١٢٢١		
٦- المدرسة المستنصرية	١٢٢٦-١٢٣٣	١٢- جامع مرجان (منارة ومدخل)	١٣٥٦
٧- القصر العباسي (أو المدرسة)	١٢٢٦ حوالي	١٣- خان مرجان	١٣٥٩
٨- جامع قمرية	١٢٢٨		
٩- جامع السهروردي (قبر)	١٢٣٤		

د- العصر الصفوي (١٥٠٨-١٥٢٣) (١٥٢٩-١٥٣٤) (١٦٢٢-١٦٣٨)			
١٤- جامع الكاظمية	١٥١٩	٢٥- حمام أيوب	١٧١٣
١٥- جامع الكيلاني	١٥٣٤	٢٦- جامع العادلية	١٧٥٥
١٦- خان سرور	١٥٣٤	٢٧- جامع النعمانية	١٧٧٢
١٧- جامع أبو يوسف	١٥٣٥	٢٨- جامع الأحمدية	١٧٩٦
١٨- جامع المرادية	١٥٦٦	٢٩- سوق السراجين	١٨٠٢
١٩- الجامع الصفوي	١٥٨٠	٣٠- جامع الباندانجي	١٨١٠
٢٠- جامع الخاصكي	١٦٥٨	٣١- جامع الاحصائي	١٨١٥
٢١- جامع القبلاني (منارة)	١٦٧٦	٣٢- جامع الآصفية	١٨٢٥
٢٢- جامع الإمام الأعظم	١٦٨١	٣٣- جامع الحيدرخانة	١٨٢٦
٢٣- جامع حسن باشا	١٦٨٤	٣٤- السراي والقشلة	١٨٦٩
٢٤- جامع السراي	١٧٠٧	٣٥- مدرسة الصنائع	١٨٦٩

المصدر: الكاتب

الجدول (٢)

المعماريون العشرون الأوائل خلال عشرين عاما (١٩٣٦ - ١٩٥٦)

الاسم	الولادة (والوفاة)	تاريخ التخرج	الجامعة
١- أحمد مختار	١٩٠٧-١٩٦٠	١٩٣٦	ليفربول - بريطانيا
٢- حازم نامق	١٩١١-	١٩٣٦	كارديف - بريطانيا
٣- مدحت مظلوم	١٩١٣-١٩٧٣	١٩٣٩	ليفربول - بريطانيا
٤- جعفر علاوي	١٩١٥-	١٩٣٩	ليفربول - بريطانيا
٥- محمد مكية	١٩١٤-	١٩٤٢	ليفربول - بريطانيا
٦- عبد الله إحسان كامل	١٩١٩- ؟	١٩٤٣	ليفربول - بريطانيا
٧- نعمان الجليلي	١٩٢٠- ؟	١٩٤٦	القاهرة - مصر
٨- سعيد مظلوم	١٩٢٠- ؟	١٩٤٩	ليفربول - بريطانيا
٩- فاضل لازار	١٩٢٢- ؟	١٩٥٠	دورهام - بريطانيا

١٠- قحطان المدفعي	١٩٢٧-	١٩٥٠	كارديف - بريطانيا
١١- قحطان عوني	١٩٧٢-١٩٢٦	١٩٥١	بيركلي - الولايات المتحدة
١٢- حامد رشيد	١٩٢٦- ؟	١٩٥١	القاهرة - مصر
١٣- رفعة الجادرجي	١٩٢٦-	١٩٥٢	هامرسميث - بريطانيا
١٤- حازم النك	١٩٢٧-	١٩٥١	بيركلي - الولايات المتحدة
١٥- ناصر الأسدي	١٩٢٩- ؟	١٩٥٢	تكساس - الولايات المتحدة
١٦- محمد حمندي	١٩٣٠-	١٩٥٢	الولايات المتحدة
١٧- هشام منير	١٩٣٠-	١٩٥٣	تكساس - الولايات المتحدة
١٨- مهدي الحسني	١٩٣٢- ؟	١٩٥٥	كارديف - بريطانيا
١٩- إحسان بربوتي	١٩٣٢- ؟	١٩٥٦	ألمانيا الغربية
٢٠- عدنان أمين	١٩٣٢- ؟	١٩٥٦	هامرسميث - بريطانيا

هوامش المترجم

* العنوان الأساسي للمقال:

"CONTEMPORARY ARCHITECTURE IN BAGHDAD - Its Roots and Transition"

نشر المقال في مجلة "Process-Architecture"، العدد ٥٨، أيار ١٩٨٥، طوكيو - اليابان.

الكاتب أستاذ صيانة العمارة في جامعة بغداد، رئيس القسم المعماري لسنوات، حصل على بكالوريوس عمارة من جامعة ويلز والدكتوراه من جامعة شيفيلد - بريطانيا.

ارتأيت ترجمة المقال رغم مرور سنوات على نشره، لكون المعلومات، والأهم آراء وتقييمات الكاتب العميقة، تجعل المقال محتفظا بحيويته اليوم.

[1] أبو جعفر المنصور (٧١٢-٧٧٥م)، بدء خلافته عام ٧٥٤ وليس ٧٦٢ كما ذكر الكاتب. كانت الهاشمية، قبل بغداد، هي عاصمة الخلافة العباسية الأولى.

[2] لتفاصيل أكثر حول تأسيس مدينة السلام، بغداد المدورة، انظر: د. مصطفى جواد وآخرين "بغداد"، نشر نقابة المهندسين العراقيين، بغداد ١٩٦٩. كذلك انظر: هادي العلوي "من التاريخ المعماري لبغداد"، مجلة البديل العدد ٨، حزيران ١٩٨٦. كذلك انظر للمترجم: "نظرة خاصة لمدينة بغداد المدورة"، الثقافة الجديدة، العدد ٢١٨ - ١٩٩٠.

[3] إن كل المصادر التاريخية تثبت أن بغداد أهملت تماما بعد ٧٥ سنة من تأسيسها حيث انتقلت العاصمة الى سامراء، ثم عادت العاصمة الى بغداد ثانية بعد ٥١ عاما من هجرها. ولكنها نمت وازدهرت في الجانب الشرقي من دجلة (يقع مركزها حاليا في شارع النهر).

[4] لتفاصيل أكثر حول البيت البغدادي، انظر للمترجم "البيت البغدادي"، الثقافة الجديدة العدد ١٧٩ - ١٩٨٦.

[5] إن هدم الأسوار قد أدى فعلا الى توسيع عمراني. لكن مما ينبغي الإشارة إليه، هو أن معظم الأسوار في مدن العالم قد هدمت في تلك الفترة. ولم يكن سبب ذلك التوسع العمراني فحسب، ولكن في الأساس بسبب اكتشاف البارود (الديناميت) الذي جعل الأسوار غير ذات فائدة.

[6] العقادة Jack Arching: نظام خاص بالتسقيف. يعتمد على جسور حديدية على شكل حرف (I) (في البداية تم استخدام حديد السكك الحديدية)، يتم توزيع هذه الجسور على المسافة الأقرب من الفضاء المراد تسقيفه، وبمسافات، عادة لا تتجاوز ٧٥-٨٠سم. يتم التسقيف من خلال ملء الفضاءات المتولدة بالطابوق مع مونة الجص. يبنى الطابوق على شكل أقواس، إن العائدة من استعمال الجص تعود لكونه سريع التصلب فتلصق الطابوقة فوق الأخرى به، ويتم تركها للحظات ثم توضع الأخرى وهكذا دواليك.

[7] لتفاصيل أكثر انظر: سعاد عبد علي مهدي "عمارة الألمان في بغداد في القرن العشرين"، مجلة مكـــر وهــن - العـــدد ٥٠/ ١٩٩٦، انترنيشن - ألمانيا.

[8] يبدو لي أنه خطأ مطبعي، حيث أن لويلسون أعمال في بغداد قبل وبعد هذا التاريخ. وهو موظف في بغداد قبل عام ١٩٢٠ في الأقل.

[9] د. محمد مكية: درس العمارة وتخطيط المدن في انكلترا والولايات المتحدة. أسس مكتبه الخاص منذ ١٩٤٦ (د. مكيــة ومشــاركوه). رئيس جمعية المهندسين العراقيين سابقا، ورئيس القسم المعماري في جامعة بغداد حتى عام ١٩٦٨ ثم اضطر لمغادرة العراق الى بلدان الخليج العربي. استقر لسنوات في سلطنة عمان، حاليا يقيم بشكل دائم في بريطانيا.

[10] بدري قدح: معمار سوري، ولد في حلب. تخرج من البوزار - باريس. أقام في العراق منذ أوائل الثلاثينيات حيث كــان موظفــا في مديرية الأشغال العامة. غادر العراق هاربا، بعد مشاركته في حركة الكيلاني عام ١٩٤١.

[11] لو كوربوزيه (١٨٨٨-١٩٦٥): سويسري الأصل، عمل في فرنسا ونال الجنسية الفرنسية. فنان ومعمار. لم يدرس العمارة. يعتــبر أشهر رواد العمارة الحديثة في القرن العشرين. هيمن على العمارة كما لم يهيمن عليها أحد. له مؤلفات معمارية عديدة. لـــه مشــاريع عديدة من أهمها تصميم مدينة تشانديكار في الهند، الوحدة السكنية في مارسيليا، كنيسة رونشان، فيلا سافوا في فرنسا. صمـــم المجمــع الرياضي الحالي في العراق.

والتر كروبيوس (١٨٨٣-١٩٦٨): معمار ألماني يعتبر أحد رواد العمارة الحديثة. أسس ودرس في مدرسة الباوهاوس الشهيرة. انتقــل الى الولايات المتحدة في الثلاثينيات. أسس مكتب (T.A.C.) العامل حتى الآن. صمم في أواخر الخمسينيات مجمع جامعـــة بغـــداد (تحـــت التشييد)، أصبح هشام منير ومشاركوه الممثلين المحليين له.

أوسكار نيماير (١٩٠٧- ؟): ولد في البرازيل. معمار ورسام وكاتب وشاعر. يعتبر من أشهر المعماريين ومخططي المدن العالميين، وهـــو أحد ممثلي العمارة الحديثة. يعتبر المصمم الأول لعاصمة البرازيل (برازيليا). عمل مع لوكوربوزيه (١٩٣٧). صمم في نهاية الســتينيات، جامعتي قسنطينة وباب الزوار في الجزائر.

[12] فرانك لويد رايت (١٨٦٩-١٩٥٩): أحد أشهر المعماريين الرواد للعمارة العضوية الحديثة، خاصة في الولايات المتحدة. أسس مكتبـه الخاص منذ أواخر القرن الماضي. غادر شيكاغو الى طوكيو ثم الى برلين. لم يدرس العمارة. له مشاريع متميزة ورائعة من أهمــها: فيــلا الشلالات، مجمع جونسون للشمع، متحف كوكنهايم، وكلها في الولايات المتحدة.

[13] دوكسيادس ومشاركوه: معماريون ومخططو مدن يونانيون. من أهم مشاريعهم في العراق: مجمع إسكان عربي بغداد.

[14] آن باستا وزوجته المعمارية، كانا أستاذي العمارة في القسم المعماري حتى عام ١٩٧٢، وهما من جيكوسلوفاكيا وليس من بولونيا كما أشار الكاتب. ويبدو أن الاسم اختلط مع اسم باشينا وهو من بولونيا فعلا الذي كان أستاذ العمارة وتاريخ الفن المعماري حتى عـــام ١٩٧٢ أيضا.

[15] حرص هشام منير أثناء توليه رئاسة القسم المعماري في جامعة بغداد (١٩٦٨-١٩٧١) على استقدام أشهر الفنانين العراقيين لتدريــس الرسم اليدوي والخط العربي: فرج عبو ومحمد مهر الدين ومحمد علي شاكر وغيرهم.

أهوار جنوب العراق عبر الرواية الإسلامية

(٢ من ٢)

د.رشيد الخيّون

القول بالأصل العربي لأهل الأهوار كافة تعترضه طبيعة المنطقة؛ فهي تحتاج إلى نوع من الخبرة التاريخية في أسلوب الحياة أو بناء عمارة القصب التي لا تختلف بمكان عنها أيام السومريين. والفارق كبير بين بيئة البادية وبيئة الماء، فأهل الماء مثلما وصفتهم الرحالة الإنكليزية ليدي دراور: "فيهم شيء من الطيور المائية، وما يدرج الصبي إلا وتجده سابحاً في الماء، وسيبقون كذلك على الراجح أبد الدهر". وكان عتبة بن غزوان نبيهاً بوصفه للأهوار: "ليس هذه من منازل العرب". وتستدل (هلبوش) دلائل قدم سكان الأهوار باستخدامهم للأدوات التالية: الحصران (البواري)، والقارب العجيب (المشحوف) والمنجل، وأن هذه الأدوات "معروفة في بلاد الرافدين الجنوبية". وأكد أحمد سوسه، صاحب الدراسات المستفيضة في حضارة الماء بالعراق، قدم سكان الأهوار بقوله: إنهم "جماعة من السومريين الأوائل، قد انفردوا في نمط حياتهم البطائحية الخاصة بهم، حيث كانت الأهوار الشاسعة مقرهم، وميدان تنقلاتهم وحركاتهم"[١].

ومن تركة اللغة السومرية في لهجة أهل الأهوار، الحالية، كلمة (ايشان) وتعني التل المحاط بالماء، و تسمى الأهوار بالسومرية "الأكامي وهي قريبة من لفظة الأجمة، التي تعني المسطحات المائية، التي تنمو فيها نباتات القصب والبردي"[٢]. وفي الملحمة السومرية ورد ذكر الهور بالقول: "العلي": "عندما لم تكن بعد مراع خضر، عندما لم تكن بعد أجمات القصب"[٣]. وعن قدم الهور أيضاً، أشار عالم الآثار طه باقر في سياق دراسته أن

البردي معروف بـ: "أربتو" عند السومريين، كما وردت في كتابات الملك الآشوري شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، قال باقر: "ذكر نوع من القوارب صنعت من نبات أربتو، وميزت عن نوع آخر من القوارب كانوا يستعملون فيها الجلود المنفوخة، أي أن النوع الأول من القوارب هو الذي يشبه القوارب التي تصنع في العراق الآن من البردي والقير، كالمشاحيف والقارب المدور المسمى في العراق الآن باسم القفة، كما ذكرت المصادر المسمارية الحصر المصنوعة من هذا النبات، وقد سمتها باسم أرشو أربتي، أي فرش البردي"[٤].

والأهم من هذا أن كلمة سومر ما زالت تتردد بالمنطقة بالسيمر أو الصيمر، كإسم لشريحة كبيرة من الناس يقطنون شمال البصرة على حافة الهور، وإسم لقادة كلفتهم الدولة العباسية والسلطة البويهية بمطاردة المتمردين. قال عامر حسك في "أهوار جنوب العراق" (ص ٤٥): "إن قبائل أهوار نهاية الفرات الجنوبية، ضمن هور الحمّار، يطلق عليهم أسم السيامر المشتقة من أسم السومريين، غير أنه لا توجد قبيلة بمفردها تحمل أسم السيامر، وإنما كل قبيلة تحمل اسمها الخاص بها، وترجع بنسبها إلى قبيلة من القبائل العربية المعروفة، وتعتبرها القبلية الأم، ومع هذا أن الانتماء إلى السومريين لا ضير فيه ما دام هم سكان العراق الأصليين". وذكر ابن حوقل في "صورة الأرض" منطقة بإسم الصيمرة أي السيمرة، وهناك قادة عسكريين لقبوا بالصيمري. وأحسب أن القوارب المعروفة بالسميريات، والتي كثيراً ما ذكرها الطبري في تفاصيل ثورة الزنج، محرفة من السيمريات أي السومريات، مثلما حرف العراقيون اسم القوارب المعروفة بالبرمات إلى بلمات أو بلام (عبود الشالجي، تحقيق الرسالة البغدادية، هامش ص٣١٧). ويعرف علي الشرقي السيمريات بقوله: "الزوارق الدقيقة ولا سيما لقطع السهورين المجاورين لها" (بعض مدن البطائح القديمة، مجلة لغة العرب، ١٩٢٧).

وعند مجيء العرب بعد الفتح الإسلامي عرف سكان الأهوار، وفلاحو الجنوب العراقي بالنبط، وعمم بعض المؤرخين هذه التسمية لتشمل سكان العراق كافة، وفي ذلك قال المسعودي في "التنبيه والإشراف": "العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم من النماردة، وهم ملوك السريانيين، الذين تسميهم العرب بالنبط". ويخص المؤرخ عبد العزيز الدوري أهل الأهوار باسم النبط، بقوله: "يستعمل لفظ النبط للإشارة إلى الفلاحين، الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وخصوصاً في منطقة البطيحة"[٥]. وقال المسعودي، في المصدر نفسه، حول اختلاط النبط بالفرس بعد سيطرتهم على العراق: "فلما غلبت الفرس

عليهم لما كان بينهم من التحزب والحروب، واختلاف الكلمة، وتباين الممالك، ودامت أيامهم، واتصل ملكهم دخلوا في جملتهم، وتعززوا بهم، انتسبوا إليهم". وأيد عبد العزيز الدوري، بدوافع أخرى نسبة هؤلاء النبط إلى الفرس بقوله: "ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء، وأن الفرس أضعفوهم، ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس – انتسبوا إليهم ع د – وإنه لما حصلت الفتوحات الإسلامية ذهب بعض النبط إلى الانتساب للفرس". لكن الواقع ينقض قول الدوري الذي لا يحمل وداً للمنطقة وأهلها، فأهل الأهوار الأنباط، منهم منْ ظل على لغته الآرامية وتقاليده الدينية كالصابئة المندائيين، ومنهم منْ تكلم العربية بعد إسلامه، وأغلب مفكري البصرة من المعتزلة وغيرهم كانوا من الآراميين، وموالاتهم لا تعني فارسيتهم، فكل عراقي غير عربي يُعدّ مولى.

وفي تشيّع سكان الأهوار وردت آراء عديدة، أغلبها جانب الحقيقة، فمنها ما أكد علاقة ذلك بالنفوذ الإيراني، أيام وبعد، إسماعيل الصفوي، الذي حول إيران إلى المذهب الشيعي رسمياً، وأن ذلك حصل عند تبادل المواقع بالبصرة بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنّة. ومن مؤرخي العهد العثماني أعتقد إبراهيم صبغة الله الحيدري في كتابه (عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد) أن تشيع عشائر جنوب العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان سببه، حسب رأيه، ضعف تأثير فقهاء المذاهب السنّية لقلتهم آنذاك. لكن الذين بحثوا في هذا الأمر لم يلتفتوا إلى وجود الإمارة الشيعية الإمامية في الأهوار التي أسسها عمران بن شاهين ربيب البويهيين السابق، والمختلف معهم فيما بعد بالسياسة والمذهب – كان البويهيون على المذهب الشيعي الزيدي صاحب الفروع الحنفية، أي هم اقرب إلى التسنن من التشيع –، والتي تابع يومياتها بالتفصيل ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ)، والقرطبي في كتابه (صلة تاريخ الطبري) وآخرون. ولا نعتقد أن هذه الإمارة كانت بداية التشيع في ذلك المكان.

أما حكاية نقل الزّط إلى الأهوار مع جواميسهم فقد بُنيت عليها روايات شككت بأصل سكان المنطقة العراقي. لكن لأمر ليس هكذا، لأن الزّط قدموا من الهند أيام الساسانيين، وقاموا بثورات عديدة ضد العباسيين، وكان منهم المزارعون وأهل الطرب والفن والخدمة العامة، وقد سكنوا المدن مثل البصرة وواسط، ولم يقتربوا من الأهوار، حتى قضى عليهم المعتصم بالقتل والتهجير إلى حدود الروم البيزنطيين، حيث ثغور الحرب بين الدولتين، وبقياهم اليوم في بلدان شرق أوربا يعرفون بالسيكَان. ومن المؤسف له أن الفقيد العلامة

هادي العلوي ينقل في (قاموس الإنسان والمجتمع) مثل هذه المعلومة دون تمحيص، فقد ورد تحت عنوان زُطي: "رديء جاهل جلف نسبة إلى الزط، وهم نُزاع من الهند استوطنوا البطائح (أهوار العراق/ العلوي) وأثاروا مشكلات للدولة العباسية".

ووجود حيوان الجاموس بالمنطقة قديماً يكذب تلك الرواية وناقليها، فهي بيئته الطبيعية، أكدت ذلك المنحوتات السومرية، ومنها ختم يصور "جلجامش يصرع جاموسين وحشيين من رجليهما الخلفية". ورداً على من جعل من الحجاج بن يوسف الثقفي خبيراً بأمر الأهوار، حتى جلب ما يلائمها من البشر والحيوان من الهند، قال أحمد سوسه: "إن الجاموس الوحشي كان موجوداً في منطقة الأهوار، قبل أن يظهره السومريون الفنيون على أختامهم وألواحهم بزمن طويل، ويعتقد أنه كان أول الحيوانات الوحشية التي انقرضت في جنوبي العراق، حيث اختفى كحيوان وحشي بعد منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وهذا يكشف خطأ النظرية القائلة بأن الجاموس عرف أول مرة في العراق في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، حين أتى محمد بن القاسم، الذي أقتحم بلاد الهند والسند، باناس من شط السند والهند ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم، وأسكنهم البطيحة"[٦].

ومن تراث أهل الأهوار الشفاهي المتواتر أسطورة تدجين هذا الحيوان، سجلتها (هلبوش) عن قبيلة الشغابنة المتأصلة بالمنطقة: "جاء الجاموس من النهر العظيم، من الماء، وعندما ظهر لم يدر أحد نوع هذا الحيوان، فخافه الناس، ولكن أحد المعدان كان يعيش عند الهور، وكان يرى كل يوم قطعان الجاموس تمر من أمام بيته عند الصباح، وتعود في المساء، فتنام خلف كوخه. فخاف منها كثيراً، وهكذا مرت عليه ثلاثة أشهر وهو في هذه الحال. وذات يوم ولدت أنثى الجاموس، ولكن المعيدي لم يفهم ما حدث، إلا أنه كان يرى أن الجاموس الصغير يذهب إلى الجاموس الكبير ويمص ثدييها فيخرج بعد ذلك ماء أبيض ويسيل من الثديين على الأرض. واستمرت به هذه الحال عشرة أيام وهو لا يستطيع فهم ما يشاهده، وبعد مرور هذه الأيام العشرة رأى أن الحليب يقطر من الثديين على الأرض فجاء بقدر ووضعه تحتهما ثم ذاقه ليتعرف على طعمه فاستطابه، فأراد أن يحصل على جميع الحليب من الجاموس فربط عجل الجاموس حتى لا يشرب جميع الحليب، وبهذه الطريقة تعرف الإنسان على حليب الجاموس"[٧].

كانت بيئة الأهوار حاضرة في "مناظرات المياه" بين البصريين والكوفيين، وذكر المسعودي منها بقوله: "ولأهل البصرة وأهل الكوفة، ومنْ شرب من دجلة مناظرات كثيرة

في مياههم ومنافعها، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا: ماؤكم كدر زهك نفر، فقال أهل البصرة: من أين يأتي ماؤنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة صاف، وهما يمتزجان في وسط بلادنا؟ قال الكوفيون: فضيلة مائنا على دجلة – الكوفة تشرب من الفرات – فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة، وهو يختلط بماء البحر، ومن الماء المستنقع في أصول القصب والبردي"[8]. وذكر صالح أحمد العلي مناظرة في المياه جرت في مجلس أبي العباس السفاح بين بصري وكوفي، قال الكوفي: "وإنما البصرة من العراق بمثابة المثانة من الجسد، ينتهي إليها الماء بعد تغييره وفساده، مضغوطة من قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرا، ومضغوطة من فوقها ببطيحتها – أهوارها –"[9].

رأى الجاحظ أن الأهوار مصفاة طبيعية للمياه، جاء ذلك في رده على تقولات أهل الكوفة على مياه البصرة: "وهم يعيبون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق، قد ذهب عنه الطين والماء المشوب بماء بغداد والكوفة لطول مقامه بالبطيحة، وقد لان وصفا"[10]. ومقولة الجاحظ في الماء بعد مروره بالأهوار نابعة من اعتقاد ما زال حيا بين الناس، فمن تجربة متراكمة يرى أهل المنطقة أن الماء يبدو عذبا كلما توغلوا في عمق السهور، فعادة يكون الماء هناك صافيا، وزلالا عند الشرب. ومن غير مروره بين القصب والبردي يمر ماء الهور عبر نباتات أخرى عديدة تعلق فيها الجسيمات الصغيرة جدا، ومنها نبات (الشمبلان) الخشن الملمس، الذي تشبه أوراقه الشوكية وتماسكها أسلاك مصافي الماء الاصطناعية.

ظلت الأهوار، قديما وحديثا، ملجأ آمنا للمغضوب عليهم من السلطات، وقد آمن من استجار بقصبها وبرديها، وحول ذلك يخبرنا التاريخ القديم بخبر الملك الآشوري (سنحاريب) وهو يطارد اللاجئين المتحصنين بالأهوار، وتظهر إحدى التحف الفنية جنود آشور وهم يركبون الزوارق (السيمريات) يشقون بها غابات القصب والبردي. كذلك لجأ أهل البصرة إليها عقب الفتح الإسلامي، ولجأ إليها أيضا ثوار الزنج بعد أن ضاقت البصرة بهم، ولجأ إليها أهل البصرة وأهل واسط بعد سماعهم بحصار المغول التتار بغداد، كما لجأ أهل الحلة والكوفة وما حواليها إلى الأهوار المحيطة بمنطقة الديوانية، والصغيرة بالقياس لأهوار الجنوب.

ومن أبرز لاجئي الأهوار كان الخليفة القادر العباسي، قبل أن يتولى الخلافة، هاربا من تربص الطائع بالله به، ذكر ابن الأثير خبره في (الكامل في التاريخ) بقوله: "خرج من داره واستتر ثم سار إلى البطيحة (...) وكانت مدة إقامته سنتين وأحد عشر شهرا". وذكر

القاضي أبو علي المحسن التنوخي (ت٣٨٤هـ) قصة لجوئه إلى الأهوار بقوله: "كان لي في هذا الحديث، خبر طريف، وذلك أني كنت لجأت إلى البطيحة، هاربا من نكبة لحقتني (...) فألقيت هناك جماعة من معارفي، بالبصرة وواسط، خائفين على نفوسهم، قد هربوا من ابن بقية، الذي كان في ذلك الوقت وزيرا – عند البويهيين –، ولجئوا إلى البطيحة"[١١].

وجاء في (صلة تاريخ الطبري)، (أحداث السنة ٣٣٨هـ)، خبر هروب عمران بن شاهين من أمير واسط البويهي، فأقام بعد ذلك إمارة في الأهوار، وعاش "بين القصب يصيد السمك، ثم تلصص، واجتمع معه جماعة من الصيادين". ومن اللاجئين الأمير الأموي يزيد بن المهلب، ذكر الطبري (أحداث السنة ٩٠هـ) قصة لجوئه، بقوله: "بعد هروبه من سجن الحجاج إلى البطائح ثم السماوة". وذكر ابن الجوزي في (المنتظم)، و(الروذراوري) في (ذيل تجارب الأمم) خبر لجوء نقيب الطالبيين محمد بن عمر العلوي (ت٣٩٠هـ) بعد أن نقم عليه عضد الدولة البويهي، وخبر وجهاء آخرين. ولعل الزعيم المصري أحمد عرابي كان حفيدا لأحد اللاجئين في الأهوار، فقد ورد في مذكراته: "أن جده السيد صالح البلاس نسبة إلى بلاس وهي قرية صغيرة في بطائح العراق"[١٢]. ويختصر صاحب (معجم البلدان) مهام الأهوار في مقارعة الأنظمة بقوله: "وتغلب عليها في أوائل أيام آل بويه أقوام من أهلها، وتحصنوا بالمياه والسفن، وجارت تلك الأرض عن طاعة السلطان، وصارت تلك المياه لهم كالمعاقل الحصينة". كما كانت الأهوار في العهد العثماني ملاذا للاجئين، فلجأ إليها حسين باشا، وهو من أسرة أفراسياب، بعد أن عزل وعين ولده أميرا على البصرة بدلا عنه، وقد طاردته القوات القادمة من بغداد بقيادة وزير العراق، ودخلت إلى الأهوار منطقة الجبايش العام ١٦٦٨م، ورد في الخبر "وفي دار بني أسد أصطدم الجيش وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من أتباع حسين المدججين بالسلاح، فكسرت شر كسرة، وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات. فتفرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردي العالية في الهور. وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديدا لعزم رجاله"[١٣]. ولعل هذه الرواية الصادرة من المفتش الإداري في الحكومة العراقية آنذاك، حسب تعريف مترجم الكتاب للمؤلف، غائبة عن أنظار الذين كتبوا عن العهد العثماني برومانسية، ومن الذين جعلوا من بناية السراي، وبعض أعمال مدحت باشا، وجادة خليل باشا (شارع الرشيد) مفخرة تركية، أما منارة الرؤوس ليس لها أثر في كتبهم، وبالتأكيد جمع لها الحاكم العثماني آلاف الرؤوس، بعد أن فصلها عن الأجساد، حتى ترتفع فوق قامة القصب السامقة. ومن أخبار تسعينيات القرن التاسع عشر أن عاقب

قائد الخيالة بالعراق كاظم باشا - أخو زوجة السلطان عبد الحميد - الشيخ صيهود شيخ آل بو محمد وعشيرته من أهوار العمارة، وأبعد الشيخ حسن الخيون "من الهور عنوة"، وهناك أحداث كثيرة لا مجال لذكرها في هذا البحث.

وفي العهد الملكي اشتدت ثورات الأهوار بالناصرية بقيادة الشيخ غضبان الخيون، الذي أبعد أخوه سالم الخيون بعد محاكمة بدسيسة من محسن السعدون إلى خارج العراق، وقصف الجبايش العام ١٩٢٥ بالطائرات البريطانية، ولم تهدأ تلك الثورات حتى قيام الجمهورية في ١٤ تموز، وذهاب الشيخ غضبان لمقابلة الزعيم عبد الكريم قاسم لكنه توفي في الفندق ببغداد، بعد تناول طعام الغداء بالفندق، وما زال الناس يشيرون إلى تعرضه لعملية اغتيال. وآخر ما حدث في الأهوار قبيل مجيء البعث إلى السلطة ظهور حركة الكفاح المسلح، والمعروف من رجالها في هور الحمار أمين الخيون، وقد قتل أخوه جميل الخيون من قبل الجمعيات الفلاحية بعد انقلاب ١٩٦٨ بشهور، والجمعيات المذكورة تنظيمات أمنية لا علاقة لها بالفلاحة، ومن مهامها الرئيسية تنفيذ عمليات الإغتيال والتجسس. كذلك اتخذت سلطة البعث إجراءات احترازية من قيام حركة ما بالأهوار بعد فشل تنظيم القيادة المركزية، فقامت بترتيب تنظيم أمني. وبأثر ذلك اغتيل في ٥ مايو ١٩٧٠ محسن الخيون، وهو رجل لا علاقة له بالسياسة ولا يقرأ ولا يكتب، ولكن دخل ذلك التنظيم الوهمي المتصل بأمن البصرة بدافع مصلحة العائلة. وقد شهدت جثته وهي مرمية على حافة الهور، وكانت حادثة مرعبة للمنطقة الآمنة، والذي نفذ العملية رجال أمن قدموا من بغداد ليلاً، بالتعاون مع شخص كان من تنظيمات الكفاح المسلح بالمنطقة، يدعى جاسم مكطوف خشان. وطريقة الاغتيال كانت بحشر كوفيته بفمه حتى الرئتين، وربط يديه وكسرهما، وثلاث رصاصات في عنقه، سمعنا صوتها وسط أجواء الهور الهادئة، ولكننا فسرناها برمي طيور أو ما شابه ذلك.

حول تجفيف الأهوار

إن لتجفيف الأهوار أكثر من دافع، لكن دافع تصفية المعارضة، التي تتخذ عادة من أغوارها مكانا للتحرك، يبقى الرئيسي، فالدولة التي لا تبحث بالأسباب وتعالجها لا تجد أمامها غير قتل المنطقة بسد منافذ الماء إليها، لتسهل دخول جنودها بوسائل النقل البري. ومن دوافع التجفيف الأخرى توسيع الأراضي الصالحة للزراعة وتنظيم الري، ويعني هذا قديما زيادة الخراج، وتسهيل دخول جباته إلى المنطقة، وبطبيعة الحال لا يحسب مصلحو

الأرض حسابا لطبيعة المنطقة، وما فيها من تفاصيل نادرة.

ومن تاريخ تجفيف المنطقة قديما ما قام به الملك البابلي (نبوخذنصر)، من عمليات في سبيل تنظيم الري. ومن أعمال هذا الملك، قريبا من الأهوار، أنه "أحتفر النهر المعروف بنهر الملك – لعله نهر الغراف حاليا –، وهو الذي حفر موضعا واسعا وترعة للماء الزائد من الفرات، أي خزانا، وأقام سدودا كثيرة"[١٤]. كذلك حاول الملوك الساسانيون تنظيم الري، فأقاموا "القناطر والسدود، وردع الماء بالمسنيات، حتى أن الملك ابرويز صلب في يوم واحد أربعين جسارا لتسامحهم في شأن السدود". وفي سبيل زيادة نسبة الخراج ولى معاوية بن أبي سفيان، عبد الله بن دراج مولاه على خراج العراق: "واستخرج له من الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف درهم، وذلك أنه قطع القصب، وغلب الماء بالمسنيات"[١٥]. وذكر الجغرافي ابن رستة: "أن خالد بن عبد الله عامل الأمويين حاول أن يسكر – يسد – دجلة، وأنفق الأموال فلم ينجح سعيه، وسط دجلة على البنيان المعمور"[١٦]. وفي محاولة لإصلاح الأرض بتجفيفها استكثر الوليد بن عبد الملك ثلاثة ملايين درهم، بعد أن عرض عليه الحجاج بن يوسف الثقفي تقديرا لتكاليف المشروع. ويذكر البلاذري في (فتوح البلدان): أن حسان النبطي، صاحب حوض البصرة تمكن من تجفيف جزئي في الأهوار، و"استخرج للحجاج أيام الوليد، ولهشام بن عبد الملك أرضين من أراضي البطيحة". وجرت محاولات عديدة، غير ناجحة، لسد نوافذ المياه على المنطقة في مواجهة المعارضة في العهدين البويهي والسلجوقي، وقبلهما من قبل العباسيين أيام ثورة الزنج بالبصرة وامتدادها إلى الأهوار. وفي العهد العثماني أجتهد أحد شيوخ المنطقة، بموافقة آل سعدون بالمنتفك (الناصرية) بإقامة سد على طول هور الحمار، لا يحجز الماء عن الأهوار، وإنما يحمي الأرض التي خلفه، من أجل زراعتها، ويمتد هذا السد من سوق الشيوخ إلى القرنة، وكان ذلك بالسبعينيات من القرن التاسع عشر، ومن تفاصيل هذه العملية: "قام الشيخ حسن لبنائه الآلاف من أفراد عشيرته بطريقة السخرة، فلما ساءت العلاقة بين حسن آل خيون وناصر باشا آل سعدون هدم الشيخ حسن السد وبقي بعد ذلك مخربا"[١٧]. ويذكر أهالي هور الحمار خراب هذا السد لخلاف مع آل السعدون، بسبب منه المذهبي ومنه الاقتصادي، ويشار إلى هدم ذلك السد بمكان يسمى حاليا بكرمة حسن، قريبا من سوق الشيوخ[١٨].

ومن محاولات التجفيف في العهد الملكي يذكر عامر حسك – من شيوخ الإمارة بالبصرة، وضابط كبير بالجيش العراقي ومتصرف لواء الناصرية العام ١٩٦٦–١٩٦٧ –

قرار مجلس الأعمار بتجفيف أهوار شرق دجلة ثم هور الحمار، بقولـــه: "كـــان مجلـس الأعمار قد أعد مشروعا لتجفيف الأهوار التي نحن بصددها، غير أن المشروع أصطـــدم بواقع أن الأهوار تعتبر الأماكن الطبيعية لتربية الأسماك، حيث تتغـــذى علـــى حشائشـــها وأعشابها، وتحتمي في مخابئها وكهوفها المتواجدة تحت منابت القصب (...) ولما كـــانت الأسماك مادة غذائية واقتصادية لا غنى للشعب العراقي عنها، لذا صـــرف النظـــر عـــن تجفيف أهوار المنطقة الوسطى – بين دجلة والفرات – والمنطقة الشرقية – شرق دجلة – لعلاقة الحكومة الإيرانية بها، واتجهت الفكرة إلى تجفيف أهوار منطقة الحمار فقط. هـــذا ما نقله لي المرحوم طه الهاشمي رئيس مجلس الأعمار حينـــذاك"[١٩]. وفـــي الســـبعينيات وردت حجة التجفيف في المرجع نفسه: "بعد أن وجد النفط، ولا سيما في منطقة الأهـــوار الوسطى، فقد بدأت الطرق تشق وسط الأهوار، وبدأ الحوض يتقلص، ولا شك أنه ماشـــي إلى التجفيف". ومعلوم، أن استخراج النفط يتم بطرق فنية من البحار العميقة جدا، فلمـــاذا يشترط استخراجه، إن وجد، من تحت مياه الأهوار بضريبة التجفيف؟ إن لم يكـــن هنـــاك دافع آخر!

أما ما شاع حول النهر الثالث بأنه إحياء لمشروع اروائي قديم، لم تتمكـــن الســـلطات السابقة تنفيذه، فلا وجود له على أرض الواقع، بالصورة المطروحة مـــن قبـــل الجـــهات الرسمية، صرح بذلك وزير الزراعة والري (١٩٥٣– ١٩٥٤) عبد الغني الدلـــي بقولـــه: "إن ما رأيته عند زيارتي لمشروع البزل الرئيسي في لواء الحلة (بابل) كان مدهشا حقـــا، حيث كانت مكائن الحفر الضخمة تشق جدولا بلغ عرضه نحو(٣٠–٤٠) مـــترا، وترتفـــع أكداس التراب على جانبيه إلى علو شاهق، أما عمقه فكان يتراوح من ســـتة إلـــى ســـبعة أمتار، واذكر جيدا أن أحد المهندسين قال لي متباهيا: إننا نسمي هذا البزل النهر الثـــالث، لأنه سوف لا يقل أهمية وسعة بعد إكماله عن النهرين، دجلة والفرات. وهكـــذا فـــأن مـــا صار يعرف منذ ذلك الحين بالنهر الثالث لم يكن مشروعا لسقي الأرض وريها، بل كـــان مشروعا ضروريا لتصريف المياه من المزارع بعد سقايتها، ومنـــع المـــاء مـــن تكـــون مستنقعات"[٢٠].

لا يليق بتلك المنطقة غير أن تبقى مؤثرة في توازن البيئة والمنـــاخ ووطنـــا كبـــيرا للأسماك والطيور، ومشتا رائعا للسائحين من المناطق الباردة. وأخيرا إن جفت الأهـــوار فالأمل في محاديد (جذور) البردي والقصب، فإنها ستورق من جديد ولو بعد حين.

الهوامش:

[1] الري والحضارة في وادي الرافدين، مطبعة الأديب البغدادية ١٩٦٨، ص٢٠٨.

[2] جبار الجبيوراوي، جريدة الثورة العراقية، ٧ أيلول ١٩٩٢.

[3] أنيس فريحة، ملامح وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر، ص٨٩.

[4] النباتات في المصادر السومرية، مجلة سومر، ١٩٥٧/٩.

[5] تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، ص٣١.

[6] الري والحضارة في وادي الرافدين، ص٤٩.

[7] مدينة المعدان في الحاضر والماضي، مجلة سومر ١٩٥٧/١٣.

[8] مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، ٤ص١٩٠-١٩١.

[9] خطط البصرة، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦، ص٣٠.

[10] المصدر نفسه، عن كتاب البلدان للجاحظ.

[11] الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، دار صادر ١٩٧٨، ١ص١٧١أ-١٧٢.

[12] أهوار جنوب العراق، ص٤٩، عن كتاب الهلال، فبراير ١٩٥٣.

[13] ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، الطبعة الرابعة، ص١٤٦.

[14] علي الشرقي، مجلة لغة العرب، السنة الخامسة ١٩٢٧.

[15] فتوح البلدان، ٤ص٤١١.

[16] مجلة لغة العرب، عن ابن رستة، "الأعلاق النفيسة".

[17] مجلة سومر، ١٩٥٧/١٣.

[18] كان آل السعدون قبيلة نجدية سنية قدمت من نجد إلى جنوب العراق، وينتمي آل خيون، قبيلة بني أسد، إلى الشيعة، وأستمر هذا العداء حتى تبوأ عبد المحسن السعدون منصب وزير الداخلية، وأنتقم بطريقته من الخصوم الأوائل، بتحريضه الأنكليز على قصف منطقة الجبايش بالطائرات، بعد أن أشترط سالم الخيون مشاركته في انتخابات المجلس التأسيسي بإسقاط وزارة السعدون وعودة علماء الشيعة الذين أبعدتهم تلك الوزارة عن العراق(عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات، بيروت ١٩٨٢، ١ص٢٦٦).

[19] أهوار جنوب العراق، ص٦١.

[20] حقيقة النهر الثالث، مجلة النور، العدد ٤٣، ديسمبر ١٩٩٤.

التغيرات الدولية وإشكالية الكفاح الثوري

خاصة على الصعيد العربي

لطفي حاتم

يتوصل لطفي حاتم في هذه المقالة الى ضرورة التجديد في اليسار العربي من حيث الفكر والممارسة وذلك استناداً الى قراءته لما شهد العالم في السنوات العشر الأخيرة من تحول، بالإضافة الى خبرة تجربة بناء الاشتراكية ومسار حركة التحرر الوطني.

يثير انهيار ازدواجية التطور الاجتماعي وسيادة وحدانية التطور الرأسمالي الكثير من الإشكالات الفكرية والسياسية لقوى اليسار العربي، وتبرز هذه الإشكالات في كيفية الجمع بين النضال الديمقراطي الذي يتمتع بأهمية أساسية وبين التصدي لهجوم القوى الطبقية الماسكة بالسلطة السياسية على مكتسبات الشعوب العربية التي أنجزتها في نضالها الوطني.

وإزاء تداخل المصالح الوطنية/ الدولية وتنامي ميول التبعية والتهميش التي تفرضها المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تثار أسئلة عديدة منها: هل تستطيع الأحزاب الشيوعية تجديد منطلقاتها الفكرية والسياسية بما يتلاءم والتحديات الجديدة؟ وهل بإمكانها صياغة أساليب فاعلة محركة للنضال الوطني الديمقراطي؟ واستناداً الى ذلك هل بإمكان اليسار العربي أن يوسع قاعدته الاجتماعية من خلال جذب قوى طبقية تتعدى إطاره الطبقي التقليدي؟.

بهدف المساهمة في إدامة الحوار الجاري حول عملية التجديد المستمرة في الكثير من أحزاب اليسار الراديكالي أحاول التعرض الى موضوعتين أساسيتين: أولهما العنف الثوري وموقعه في الجدل السياسي التاريخي بين فصائل الحركة الاشتراكية العمالية. وثانيهما التعرض بملاحظات عامة لمفاصل التجديد في البنية الفكرية – الاجتماعية لقوى اليسار العربي.

الحركة الاشتراكية بين الثورة والإصلاح

انقسمت الحركة الاشتراكية العمالية الى تيارين كبيرين انطلاقاً من رؤيتين متعارضتين لطبيعة الرأسمالية، فبالوقت الذي استندت الرؤية الأولى الى تقدمية النظام الرأسمالي، وتواصل مستلزمات تطوره وضرورة استثمار مؤسساته للوصول الى السلطة السياسية، استندت الرؤية الثانية الى اعتبار الامبريالية (أعلى مراحل الرأسمالية وعشية الثورة الاشتراكية).

إن اختلاف الحركة الاشتراكية حول طريقة الوصول الى سلطة الدولة فرضتها درجة تطور البلدان الرأسمالية حيث رأت بعض الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في المراكز الرأسمالية أن النضال السلمي ونهج الإصلاح يتطلب الإقرار بالشرعية البرجوازية والعمل على تطوير الديمقراطية المتمثلة بمبادئ الانتخاب العام، والحريات السياسية، واستندت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في محاججاتها تلك على أن مبادئ الشرعية البرجوازية خاصة مبدأ فصل السلطات حقوق سياسية وقانونية مكتسبة تؤدي إذا ما تعزز النضال الديمقراطي السلمي الى تفكك احتكار السلطة السياسية من قبل الطبقة البرجوازية الحاكمة ويفرض في نهاية المطاف اقتسامها – السلطة – بين القوى الاجتماعية المتصارعة على أساس الموازنة الطبقية. إن الرؤية المشار إليها تقاطعت معها رؤية التيار اللينيني الذي رأى في اعتماد العنف الثوري وسيلة ضرورية للوصول الى السلطة.

لقد نضجت الرؤية اللينينية حول الانقلاب الثوري من عوامل ثلاثة: أولها دراسته لتجربة الحركة العمالية الأوربية بدءاً من كومونة باريس وانتهاء بتجربة الحركة الديمقراطية الروسية. وثانيها طبيعة الظروف الاقتصادية – السياسية التي تفردت بها روسيا القيصرية والتي يمكن تحديدها بـ:

١– حكم استبدادي مطلق حوّل البلاد الى سجن لشعوب الامبراطورية. فضلاً عن اضطهاده للحركة الديمقراطية الثورية.

٢- تعرض الطبقة العاملة الروسية الى استغلال مزدوج من قبل الرأسمال المحلي والوافد، وما نتج عن ذلك من تداخل المهام الوطنية - الطبقية.

٣- قدرة الحركة الثورية الروسية على استنهاض حركة جماهيرية وطنية معادية للحكم الاستبدادي.

وثالثها القراءة اللينينية للفكر الماركسي المتعلق بطبيعة الدولة البرجوازية حيث شكلت موضوعات الاستيلاء الثوري على السلطة السياسية وتحطيم ماكنة الدولة الرأسمالية، وضرورة ديكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقالية في التطور الاشتراكي وأخيراً ضرورة الثورة الاجتماعية، أساساً نظرياً لتبرير العنف الثوري.

إن الرؤية اللينينية حول الثورة الاجتماعية اكتملت بتحديدها النظري لطبيعة الامبريالية وموقعها في التطور التاريخي اللاحق حيث توصلت الى استنتاجات فكرية - سياسية أبرزها إمكانية انتصار الثورة الاشتراكية في الحلقة الأضعف من النظام الرأسمالي.

إن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية والذي جاء بفعل عوامل دولية/ وطنية يتصدرها استخدام وتوظيف مختلف أشكال النضال الاقتصادي السياسي الفكري في خدمة التكتيك الانقلابي أعطى دفعة جديدة للنضال الثوري، حيث استثار انقلاب أكتوبر موجة جديدة من النضالات السياسية والتحولات الفكرية - التنظيمية لدى الكثير من الأحزاب العمالية، وجرى اعتماد العنف الثوري وسيلة أساسية لاستلام سلطة الدولة. لقد أدى ذلك الى تكريس التعارضات الفكرية بين فصائل الحركة الاشتراكية العمالية وتحولها فيما بعد الى تناقضات عدائية. والسؤال الذي يواجهنا هو كيف أثرت ثورة أكتوبر العظمى على نضالات حركة التحرر الوطني؟ وكيف تطورت موضوعة العنف الثوري عند مختلف الحركات الثورية؟. لغرض الإجابة يجدر بنا التوقف عند بعض أشكال الكفاح الثوري الذي أفرزته التجربة التاريخية.

العنف الثوري في مرحلة النضال الوطني

من المعروف أن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية وظهور الدولة السوفيتية أوجد مناخاً دولياً ملائماً لتطور نضال الحركة الوطنية التحررية العالمية التي اعتمدت بدورها على التكتيك الثوري لتحقيق طموحاتها الوطنية والاجتماعية. إن اعتماد الكفاح الثوري الذي أملته شرعية المقاومة الوطنية للهيمنة الكولونيالية من جهة ومواجهة شراسة القوى المحلية من جهة أخرى تجلى بأساليب متنوعة نشير الى بعض منها:

أولاً: الكفاح المسلح

لقد اعتمدت الحركات الثورية في بلدان مختلفة هذا الشكل الكفاحي، حيث عكس خصائص تاريخية ملموسة عاشتها تلك البلدان وعلى أساس تلك الخصائص يمكننا الإشارة الى نماذجه الأساسية:

١- **كفاح مسلح** اندلع في دول تشكلت تاريخياً بمعنى أنها ترتكز على تشكيلة اجتماعية تبلورت بفعل التطور التاريخي الداخلي لها. وعلى الرغم من غلبة العنصر الفلاحي فيها إلا أنها أفرزت أحزاباً ديمقراطية – ثورية مكنتها من قيادة النضال الوطني – الطبقي وتمثل المسيرة الصينية الكبرى، وكفاح شعوب شرق آسيا نموذجاً لذلك الشكل النضالي.

٢- **حروب تحرير** ساهمت في إنضاجها عوامل عدة تتقدمها الهيمنة الكولونيالية المباشرة وغياب الدولة الوطنية من جهة وقوة المؤسسة العشائرية التي احتضنت المشاعر المعادية للأجانب من جهة أخرى. إن أهداف تلك الحروب التحررية تتلخص بطرد القوى الأجنبية وإقامة السلطة الوطنية، فضلاً عن تحقيق تحولات اجتماعية معادية للرأسمالية كخيار للتطور الاجتماعي. وتقدم القارة الأفريقية المثال الملموس لهذا الأسلوب الكفاحي.

٣- **حروب أنصار** تطورت الى حروب أهلية كخيار فرضته متطلبات مواجهة عنف الديكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية ومن الملاحظ أن الحروب الثورية ركزت على التخلص من الوصاية الأجنبية وإقامة سلطة العدالة الاجتماعية.

ثانياً: الانقلاب العسكري

لقد ظهر هذا الشكل في الكثير من الدول الوطنية التي نشأت كاستجابة ضرورية لمتطلبات محاربة الهيمنة الخارجية وبروز الجيش كأداة من أدوات الدولة الوطنية الناهضة. إن تنامي دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية واستخدامها للتغير السياسي – الاجتماعي فرضته طبيعة الدولة الوطنية الوليدة المتّسمة بـ:

– ضعف مكونات التشكيلة الطبقية في الدولة الجديدة، فضلاً عن غياب الكتلة الاجتماعية المنظمة القادرة على فرض إرادتها الوطنية.

– تناقضات التشكيلة الكولونيالية وتطورها بالضد من المصالح الوطنية.

– تنامي الروح الوطنية، والقومية لدى الطواقم الوسطية في المؤسسة العسكرية بسبب حصولها على التعليم الضروري لاستخدام التكنيك العسكري.

إن المواصفات المشار إليها وفرت الشروط اللازمة لنمو وتطور النزعة الانقلابية.

وقبل ختامنا لأشكال العنف الثوري لابد من إيراد الملاحظات التالية:

أولاً: إن أشكال العنف الثوري المشار إليها قد استنفدت مشروعيتها التاريخية، ولم تعد إطاراً ملائماً لاستنهاض حركة شعبية ديمقراطية.

ثانياً: إن الشرعية الثورية التي أفرزتها حروب التحرير، والنزعة الانقلابية قد تحولت الى غطاء ايديولوجي لاستمرار الأنظمة اللاديمقراطية.

استناداً الى هذه الاستنتاجات نتساءل هل يستطيع اليسار أن ينهض كقوة اجتماعية – سياسية فاعلة في الظروف التاريخية الملموسة؟ وهل بمقدوره الوصول الى السلطة السياسية بأساليب سلمية – ديمقراطية؟.

إن الرد بإيجاب يفترض دراسة حقلين: أولهما التوقف عند التغيرات الاقتصادية – الاجتماعية التي تتعرض لها الدولة الوطنية. وثانيهما انعكاساتها على عملية التجديد الجارية في الأحزاب اليسارية. ولكن قبل تعرضنا للتغيرات الجارية وانعكاساتها دعونا نتوقف عند الظواهر الجديدة في السياسة الدولية.

التوسع الرأسمالي والصراعات الوطنية

أفرزت وحدانية التطور الرأسمالي الكثير من التداخلات الوطنية/ الدولية، وتتشكل الكثير من القواعد الجديدة الناظمة للعلاقات الدولية، لعل أبرزها احتكار العنف بشكليه الاقتصادي والعسكري (المشروع دولياً) بيد المراكز الرأسمالية من جهة وتكييف السياسة الدولية بما يتلاءم واستراتيجيات الهيمنة من جهة أخرى. إن تبدلات السياسة الدولية تتداخل مع ظواهر أخرى فرضتها المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تتمثل بـ:

١- تشترط المرحلة الحالية من حركة التوسع الرأسمالي تفكيك الدولة المركزية وتحويلها من مالك/ منتج لثروات البلاد الأساسية ومحتكر رئيسي للتجارة الخارجية الى (شريك) تابع للاحتكارات الدولية.

٢- تفضي وحدة العالم الرأسمالي بشطريه التابع المتخلف والمتبوع المتطور الى وحدة المصالح بين التكتلين المتحالفين الداخلي/ الخارجي وما يعنيه ذلك من نمو وتطور طبقة برجوازية كسموبوليتية.

٣- يؤدي التدويل المتسارع لرأس المال وما يفرزه من تنامي ازدواجية الهيمنة الوطنية/ الدولية على اقتصادات الدول الوطنية الى ازدواجية الكفاح الوطني/ الديمقراطي.

وتشير التجربة الى أن القوى الخارجية تمارس تأثيرات متزايدة على النزاعات الداخلية. بمعنى نقل الصراعات الاجتماعية من محيطها الوطني الى شأن من شؤون السياسة الدولية.

الدولة العربية بين التبعية والتهميش

تتعرض البلدان العربية الى تطورات اقتصادية – اجتماعية متسارعة أفرزتها الحركة الراهنة من التوسع الرأسمالي والمتمثلة بشروط وتوصيات رأس المال الوافد ومؤسساته الدولية. ولدى تفحصنا لهذه التغيرات نراها تتركز بـ:

– العمل على تصفية منجزات حقبة الاستقلال الوطني واستبدال خطابها السياسي – الاقتصادي الهادف الى تعزيز الروح الوطنية وتطوير التنمية الاقتصادية بخطاب ليبرالي يعتمد سياسة الانفتاح وتعميق التبعية للمراكز الرأسمالية.

– التفكك المتسارع لقطاع الدولة الاقتصادي الذي شكّل ركيزة أساسية للتنمية الوطنية، حيث تظهر عملية التفكك بشكلين أحدهما مشاركة رأس المال الأجنبي في ملكية الأصول الأساسية لقطاع الدولة. وثانيهما خصخصة أصول أخرى لصالح القطاعين الوطني والأجنبي.

– الانفتاح الشامل على الرساميل الدولية وما يفترضه ذلك من مساهمة قوى خارجية في صياغة التوجهات العامة للسياسة الاقتصادية عبر التزام الدولة العربية بتوصيات المراكز المالية المعادية للمصالح الوطنية.

– تنامي بناء الأسس المادية لازدواجية الهيمنة الاقتصادية (داخلي/ خارجي) على الدولة الوطنية وما يشترطه ذلك من بناء أسس تحول الدولة الى وكيل وطني حارس لمصالح الاحتكارات الدولية.

إن إشارتنا الى بعض التغيرات السياسية – الاقتصادية لا يستثني القوى الحاكمة وقاعدتها الاجتماعية، ويمكن للمتتبع رصد أهم مظاهرها والتي تتجلى في تحول الأسر الحاكمة خاصة في الدول الريعية الى طبقات اجتماعية تحتكر السلطتين السياسية والاقتصادية. ويرتكز هذا التحول الطبقي على عمليات الخصخصة الجارية لقطاعات الدولة الاقتصادية والخدمية، الأمر الذي يفسر قدرة الأسر الحاكمة على التحول الى قوى اقتصادية فاعلة تستمد قوتها من سلطة الدولة أولاً ومن تحالفاتها الخارجية ثانياً.

إن التحولات الجارية في دول الشرعية الوراثية تتزامن مع تحولات في دول

الشرعية (الثورية) حيث تتحول الطواقم العسكرية الحاكمة الى قوى سياسية ناشطة في دعم وحماية القوى الطبقية الناهضة في هذه البلدان والمتحالفة مع قوى وفعاليات الرأسمال الدولي.

وبعكس التحولات السلمية الهادئة في بلدان الشرعية الانقلابية يلاحظ أن الحصار الاقتصادي على العراق قد ساهم بتعديل وتغيير التركيبة الطبقية للمجتمع العراقي. حيث أنجز العنف الاقتصادي بشكليه الداخلي والخارجي تحول العشيرة الحاكمة الى طبقة كمبرادورية جديدة راغبة في التحالف مع الاحتكارات الدولية شريطة ضمان مصالحها الاقتصادية والسياسية في نظام مستقبلي للعراق. إن طبيعة الحراك الجارية في القاعدة الاجتماعية السائدة لنظام الحكم في العراق تتلازم مع تغيرات أخرى تشهدها منطقة الحماية الدولية في كردستان حيث تجري تحولات متسارعة في بنية بعض الأحزاب وتبرز فيها شرائح تجارية مترابطة المصالح مع القوى السائدة لنظام الحكم المركزي، وما يعنيه ذلك من مصالح مشتركة تشكل عتبة لتحالفات سياسية لاحقة.

إن التغيرات الحاصلة في طبيعة القوى الحاكمة تترابط مع تفاعلات متواصلة داخل الطبقات الاجتماعية الناشطة في المجتمعات العربية. فعلى صعيد البرجوازية العربية يتسارع نمو وتطور الطبقة الكومبرادورية الجديدة التي تتصف بسمات منها تبعيتها لحركة رأس المال الدولي، وثانيها اغترابها عن المصالح الوطنية، وثالثها تمركز أنشطتها بقطاعات هامشية. وتشهد الساحة السياسية العربية ملامح تحالفات اجتماعية – سياسية بين فئات البرجوازية المالية وبين الشرائح العليا من الطبقة الكومبرادورية، حيث تتصدر هاتان القوتان المشهد الاقتصادي – السياسي العربي المدعوم من الاحتكارات الدولية. وبذات الاتجاه يلاحظ تراجع مواقع البرجوازية الوطنية التي تشكل التطورات الاقتصادية الجديدة (حرية حركة رأس المال والتجارة الحرة) كوابح لتطورها اللاحق وما ينتج عن ذلك من تحجيم دورها السياسي.

إن الإشارة بملاحظات عامة الى شرائح وفئات البرجوازية العربية تشترط معاينة التغيرات الحاصلة في الطبقة الوسطى التي تشكل الطبقة الأوسع والأكثر تأثيرا في المجتمعات العربية، وتشير بعض المعطيات العامة الى أن الفئة العليا من هذه الطبقة خاصة (ذوي الكفاءات والمؤهلات العلمية) تترابط مصالحها مع الشركات الأجنبية والمكاتب التجارية. وتستفيد أقسام أخرى من التطورات الاقتصادية التي تشهدها الأسواق العربية. وعلى أساس تنامي الانقسامات الحاصلة في الطبقة الوسطى يتعين دراسة

التغيرات المستمرة في شرائحها وتحديد مواقع فئاتها في الحركة السياسية واتجاهاتها الفكرية والتي سيتوقف على مشاركتها الفعلية في النضال اللاحق حل الكثير من الإشكالات السياسية والاجتماعية.

إن عملية الحراك الاجتماعي المتواصلة في المجتمعات العربية تترافق مع تطورات أخرى على صعيد الطبقة العاملة، حيث تتطور قاعدتها الاجتماعية بسبب رفدها بقوى من البرجوازية الصغيرة – الريفية والمدينية – التي ينحدر مستوى معيشتها الى مستوى الطبقات الكادحة. إن توسع حجم الطبقة العاملة يتداخل مع تغيرات بنيوية في إطارها الطبقي يتركز في ظاهرتين: أولاهما نمو شريحة عمال الخدمات انطلاقا من التطور السريع لقطاع الخدمات والسياحة مقابل تراجع نسبة العمال الصناعيين. وثانيتهما إحاطة الطبقة العاملة بحشد هائل من القوى الهامشية وما يفرزه ذلك من تأثيرات على تطور تماسكها الطبقي وضياع خبرتها النضالية.

خلاصة القول إن بلادنا العربية تشهد تحركات اجتماعية – اقتصادية كبيرة تتمثل بضياع فرص التنمية الوطنية المستقلة وتنامي ازدواجية الهيمنة الاقتصادية، الأمر الذي يفرض على قوى اليسار التحول والاستناد الى قوى اجتماعية عديدة تشكل في المحصلة الأخيرة (كتلة تاريخية) قادرة على التصدي والمقاومة لعمليات التبعية والتهميش. إن التحول المفترض لقوى اليسار أراه في ركيزتين أساسيتين أولاهما تفعيل بنيته الفكرية – التنظيمية. وثانيتهما تطوير برامجه النضالية وأساليبه الكفاحية.

تفعيل البنية الفكرية – التنظيمية

إن تقدير السياسة كعلاقة قوة بين الطبقات الاجتماعية يتطلب تحديد الإمكانات الفعلية لقدرة الطبقات وموقعها في الصراعات الدائرة في الظروف التاريخية الملموسة. واستنادا الى ذلك يتطلب الأمر صياغة خطاب سياسي يتبلور في توجهات سياسية – فكرية تاريخية ملموسة تنطلق من مستويين: صياغة رؤية وطنية للعلاقات الطبقية الداخلية/ الخارجية، ومستوى المساهمة في صياغة منطلقات فكرية تشكل أساسا لنقل اليسار من حركة سياسية معارضة الى حركة فاعلة تساهم بنشاط في صياغة توجهات السياسة الوطنية. إن ترسيخ العلاقة بين المستويين يشترط بناء سياسة تكون محصلة للعقل الجماعي للحزب خاصة قواه الفكرية الحية التي يقع على عاتقها دراسة وقائع الحياة الحقيقية وتحديد اتجاهات تطورها وعدم الارتكان الى صياغة شعارات سياسية عائمة

تشكل عبئا على الممارسة النضالية وتكون نتيجتها القطع بين الفكر والممارسة. استنادا الى ذلك أرى أن رسم سياسة واقعية يشترط عاملين أولهما مزاوجة التجربة النضالية للحزب الثوري والتطورات الجديدة بعد تطعيمها برؤية واضحة للمهمات النضالية الملموسة. وثانيهما الأنتشار الجماهيري في منظمات المجتمع المختلفة – النقابات، الجمعيات، الاتحادات، النوادي – وما يوفره ذلك من قراءة صحيحة لطبيعة المهام النضالية، فضلا عن ترسيخ العلاقات الفعلية بين الجهاز السياسي القائد للحزب وبين الحركة الفعلية لتطور الحياة الاجتماعية.

أخيرا لابد من التركيز على الانتقال من موضوعة القفزة الثورية ونقل الحزب من (هيئة أركان) الى جهاز سياسي – تنظيمي جماهيري يستند الى التطور الارتقائي. وبهذا الطريق يستطيع اليسار أن يساهم بفعالية في إنضاج الحلول الاجتماعية – السياسية الهادفة الى صيانة مصالح شعوبنا العربية. إن تفعيل البنية الفكرية – التنظيمية تتطلب الخوض في مرتكز آخر من مرتكزات الحركة اليسارية وبالتحديد طبيعة البرامج النضالية والقوى الاجتماعية الساندة لها.

برامج المهام الوطنية الملموسة

على الرغم من وضوح الهوية الطبقية لليسار العربي إلا أن وحدانية التطور الرأسمالي، وتنامي عمليات التبعية والتهميش ترغم اليسار الراديكالي على تعديل تمثيله للقوى الطبقية وتجاوز حصرها بطبقات اجتماعية محددة. ويستند هذا التقدير على بعض المؤشرات منها سعة القاعدة الاجتماعية المتضررة من الطور الجديد لحركة التوسع الرأسمالي، ومنها تفاقم المشاكل الاجتماعية النابعة من هجوم الرأسمال الدولي والقوى الحليفة على المكتسبات الشعبية التي أفرزتها سنين التطور الوطني، وآخرها الاستقطاب الاستراتيجي المتنامي بين توجهات (الرأسمالية المتوحشة) وبين تطلعات الإنسانية نحو التنمية والسلام. إن هذه المبررات تدعو قوى اليسار الى مراجعة برامجها النضالية، وتتركز هذه المراجعة حسب ما أرى على محورين: الأول منهما التخلي عن البرامج التي تغطي مراحل تاريخية أو ما يسمى ببرامج الحد الأعلى والتي تشكل بجوهرها صياغة ايديولوجية ترتبط بموديلات فكرية للتطور. بمعنى آخر التخلي عن البرامج ذات المضامين الطبقية المشيدة لأغراض استلام السلطة واحتكارها. والثاني التركيز على صياغة برامج ملموسة تغطي فترات زمنية قصيرة معبرة عن الظروف التاريخية

الملموسة التي تجد تعبيرها في الصراعات الاجتماعية الحقيقية. بعبارة أدق لابد أن تتوفر في هذه البرامج مواصفات عديدة منها ظرفية وملموسية الأهداف البرنامجية، ومنها واقعيتها وإمكانية تحقيقها. وهنا لابد من التذكير بأن الكثير من البرامج لازالت تصاغ على أساس مهمات تعوزها القوى الاجتماعية القادرة على تنفيذها الأمر الذي يجعل تلك البرامج في مصاف الطوباوية رغم أهميتها الإنسانية. وأخيرا تعبير البرامج عن أهداف وتطلعات قوى اجتماعية متعددة، بمعنى عدم اختصارها على تمثيل مصالح اجتماعية محصورة بالتمثيل الطبقي التقليدي لليسار، والسبب يتلخص في أن المهام المطروحة هي مهام إنسانية – وطنية شاملة الأمر الذي يتيح لقوى اليسار إمكانية التحرك على قوى اجتماعية عريضة تؤهله لبناء تحالفات اجتماعية – سياسية واسعة مقاومة لنهج التبعية والإفقار. إن صياغة برامج وطنية ملموسة تتطلب تقدير العلاقة الواقعية بين الوطني/ الدولي من جهة، وتحديد طبيعة التحولات الدولية من جهة أخرى...

النضال الوطني وازدواجية الهيمنة

إن التشابكات الوطنية/ الدولية وتنامي ازدواجية الهيمنة الاقتصادية على الدولة الوطنية تفترض ازدواجية النضال الوطني المعادي للتبعية والتهميش، والديمقراطي الهادف الى خلق توازنات سياسية – اجتماعية في المحيط الوطني. والسؤال الذي يواجهنا هو كيف يتسنى لليسار الراديكالي موازنة طرائقه النضالية؟ وما هي الايديولوجيا القادرة على أن تكون أداة الموازنة في الكفاح المناهض لأطراف الهيمنة الداخلية/ الخارجية؟. الإجابة تتطلب الالتفات الى الموضوعات التالية:

أولا: تتطلب ازدواجية النضال المناهض لأطراف الهيمنة الداخلية/ الخارجية تحويل ايديولوجية الديمقراطية وحقوق الإنسان الى ايديولوجية وطنية/ دولية بعد تحويلها من ايديولوجية عائمة للرأسمال وذريعة للهيمنة الى قاعدة من قواعد القانون الدولي.

ثانيا: تشترط عالمية حقوق الإنسان إقامة علاقات دولية تنطلق من وتستند الى موازنة المصالح الوطنية/ الدولية من خلال:

– تحريم استخدام العنف بأشكاله الاقتصادية/ العسكرية في العلاقات الدولية.

– تفعيل دور الدول الوطنية باعتبارها مساهمة في السياسة الدولية بهدف خلق مجتمع دولي يرتكز على وحدة المصالح الإنسانية، وتطوير تلك الوحدة الى مبادئ أخلاقية تدين تمركز الثروة وتأبيد الفقر والتبعية.

– الاحتكام الى شرعية دولية مرتكزة على قواعد قانونية ناظمة لوحدة المعايير في السياسة الدولية.

ثالثا: تشكل عالمية حقوق الإنسان ركيزة أساسية للنضال الداخلي/ الديمقراطي الهادف الى تجسيد تلك الحقوق في تشريعات وطنية وما يفرضه ذلك من رقابة شعبية/ دولية لأوضاع حقوق الإنسان.

رابعا: تتيح دمقرطة العلاقات الدولية لقوى اليسار حرية اختيار برامجه السياسية/ الاجتماعية في حال استلامه/ دخوله السلطة السياسية بعيدا عن التدخلات الخارجية في شؤون بلاده الوطنية.

استنادا الى ذلك يمكن القول إن تحويل اليسار الى قوة شعبية وطنية يتطلب تكييف الرؤية السياسية الملائمة لايديولوجيا الديمقراطية وحقوق الإنسان بمستويين، مستوى دولي يتمثل في النضال من أجل إقامة علاقات دولية ترتكز على احترام وموازنة المصالح الوطنية/ الدولية حيث يشكل هذا النضال الركيزة الخارجية للكفاح الوطني ومستوى داخلي بمعنى الدفاع عن الحقوق السياسية – الاجتماعية للإنسان المواطن. وبهذا المعنى فإن النضال الوطني/ الديمقراطي الداخلي/ الخارجي يرتكزان على شرعية دولية واحدة.

إن الملاحظات الآنفة الذكر لا تشترط تحديد أساليب الكفاح الوطني/ الديمقراطي بل تطرح إطارا عاما للنضال، إذ أن التطورات اللاحقة ستمد الحركة اليسارية بأساليب نضالية تفرضها الحركة الفعلية للصراعات الاجتماعية المنبثقة من المصاعب الاقتصادية وتطور المشاعر الإنسانية المناهضة لسياسة التبعية والتهميش.

١٩٩٩/٢/٤

الاشتراكية البيئوية

ديفيد رانسوم
ترجمة: مصطفى الكاظمي

هذه المقالة تعالج موضوعا كان الشيوعيون حتى وقت قريب يهملونه أو لا يعيرونه ما يستحق من اهتمام في النظرية والتطبيق. فقد انصب اهتمامهم على الاقتصاد دون العناية بشؤون البيئة. الكاتب داعية للاشتراكية الايكولوجية، مؤكدا على ضرورة التعاون بين "الحمر والخضر"، وهي دعوة تقتضي مراجعة الفكر والممارسة على حد سواء. وقد نشرت مقالته هذه في مجلة New Internationalist (الأممي الجديد) في تشرين الثاني ١٩٩٨.

[ث ج]

كانت غابات الأمازون في حالة من الفوضى في كانون الثاني ١٩٩١، وكنت أبحث عن أي أثر للمنطق في عبثية تدمير هذه الغابات الاستوائية. ولقد شعرت بقدر لا يستهان به من الإحباط عندما وصلت الى مكتب عالم البيئة الأميركي، فيليب فيرنسايد، الذي قال "إن السؤال هو: من يربح من التدمير؟ فلو تم توزيع الربح ما كان لهذا التدمير أن يحصل لو أن الربح والتكاليف المترتبة عليه قد وزعت بالتساوي، إذ لن يكون ثمة نفع يذكر لشخص واحد. الحقيقة هي أن أصحاب النفوذ يجنون الأرباح بينما يدفع فقراء المنطقة الثمن. وهكذا فإن الأمر منطقي تماما من وجهة نظر من يجنون الأرباح". ويشير فيرنسايد بذلك الى بناء سدود مائية لمعامل صهر المعادن وللمعامل التي تصدر علب

الألمنيوم. وقد أجرى بطريقة بارعة حسابات للربح والفائدة، لا تهم أحـــدا بشـــيء إلا إذا صادف أن يكون واحدا من أهل السلطة الأوليغارشية في البرازيل، أبرز بلدان العالم مـــن حيث غياب العدالة. ولسبب ليس أهم من تعبئة البيرة أو المشروبات الغازية، أغرقت تلـك الغابات الإستوائية بالمياه، وهجر الآلاف من السكان الذين داهمتهم الأمراض، بينما حــاق الدمار بالثقافات الأصلية التي لا تقدر بثمن. ولأنه لم يحدث الشيء الكثير لغـير مصلحـة الأوليغارشية في البرازيل، لم يكن الأمر مفاجئا بالنسبة لي أن يتواصل تدمـــير الغابـات الاستوائية بهذه السرعة. لقد أقلقني ذلك ودعاني الى تذكر وقت كانت فيه غابات الأمازون على جميع الألسن مقارنة بجميع القضايا البيئية الأخرى، وها هي الآن قد باتت نسيا منسيا بالنسبة لوسائل الإعلام العالمية. أما السياسات الراديكالية فلم تكن مهتمة كثـيرا بالقضايـا الرائجة قدر اهتمامها بكفاح الناس البسطاء لتدبير شؤون حياتهم اليومية.

لقد قدم وليم موريس، عالم البيئة الاشتراكي، تصورا ماهرا في القرن التاسع عشــر لمثل هذه المشاعر إذ وصف كيف أن "الناس يناضلون ويخسرون المعركة، لكن الشـــيء الذي يناضلون من أجله يحصل بالرغم من هزيمتهم، وعندما يحصل هذا الشيء ينقلب الى ما لم يقصدوه ثم يضطر آخرون للنضال من أجل هذا الهدف المقصود باسم آخر"[1]. فليس هناك نضال فاشل كل الفشل أو كامل النجاح.

لا شك أن القضيتين السياسيتين الأساسيتين في عصرنا هما التفاوت بين البشر وتدمير البيئة، وأن نتائجهما جلية في مناطق مثل الأمازون، مع أنها موجودة في كل مكان تقريبـا. وبينما يمتد دفاع المتحمسين للمساواة والبيئة الى خارج حدود هاتين القضيتين أحيانا، فـإن الجسر الذي يربط بين السياسة الراديكالية الحمراء والسياسة الخضـــراء تنقصــه المتانـة الكافية لتحمل ثقل سياسي أكبر ولتوليد تغيير دائم. ومع ذلك يتضح باستمرار أن التفـــاوت الاجتماعي وتدمير البيئة مترابطان بصورة مباشرة، بل إن مـــن العسـير إثبـات عــدم ارتباطهما، علما أنهما يحصلان في زمن واحد، كما أنهما يتفاعلان بطرق معقدة تســـرع من تفاقمهما بصورة تنذر بالخطر.

يعود السبب في ذلك الى أنه ما لم يتم كبح الرأسمالية الاســـتهلاكية العالميـــة، فإنـــها ستنمو باستمرار وستسعى الى تدمير أي شيء، يتعارض مع مصالحها المباشـــرة. إنـــها، فضلا عن ذلك، ذاتية التدمير، ملغومة بالتناقضات، فإما أن تنمو وإما أن تنفجـــر. فـــهي عاجزة عن كبح جماحها بنفسها.

أحد هذه التناقضات هو أن الرأسمالية تقتات على تضخم الأرباح وانخفاض الأجـــور،

مما يؤدي الى تفاقم حدة التفاوت الاجتماعي. وبذلك تتراكم عوامل الأزمـــة، لأن أجـور العمل لا يمكن أن تشتري جميع السلع التي ينتجها العمل، الأمر الذي يقوض، فـي نهايـة المطاف، نزوعها للنمو، فينجم عن ذلك انفجار هائل، من النوع الـذي يـتردد فـي آذان كثيرة، في هذه الأيام بالذات. ويطلق الرأسماليون الموفقون علـى ذلـك تسـمية "الـهدم الخلاق" وهو أحد تسلياتهم المفضلة.

ولأن الاشتراكية تعرف كيف يجري كل ذلك، فإنها لم تفقد أيا من أدواتها التفسـيرية. لكن لدى الاشتراكيين بضع مشاكل علاوة على الإرث الستاليني الثقيل وليس أقل متاعبـهم ما يتردد بأن الاشتراكيين قد اندثروا وحل محلهم أصحاب الطريق الثالث، الناعم الـذي لا طائل وراءه، الذين يرغبون بالكلام عن "العدالة الاجتماعية" و"تكافؤ الفرص"، واليـانصيب هو التجسيد لذلك. وليس مجديا بعث كارل ماركس في صالونات الأرثودوكسية شـريطة التأكيد بأنه أخطأ بشأن الشيوعية رغم صوابه في ما يخص الرأسمالية[٢].

مع ذلك، فإن أكبر مصاعب الاشتراكيين تكمن في أنهم أفضل الى حد كبير في مسـألة إعادة توزيع الثروة منهم في إعادة النظر في تعريف الثروة. فقد تلهفوا الى السيطرة علـى عتلات ماكنة الثروة الرأسمالية، لا الى إعادة النظر في تصميمها. وكان عليهم أن ينصتـوا الى علماء البيئة، فقد ثبت أنه ليس هناك إشكال نظري في إضافة تنـاقض أخضـر الـى التحليل الأحمر للرأسمالية، خصوصا أن ثمة محددات بيئية للنمو الرأسمالي. ولكن الأمـر يستلزم أيضا القبول بعدم وجود أفق، مهما كان، لخلق اقتصاد ذي طابع اشتراكي واضـح لا يلبي متطلبات البيئة[٣].

"عالم الحياة"

أجرى الفلاسفة الراديكاليون، مثل أندريه غورتس، بحوثا أولية حول طبيعة الـثروة، فافترضوا وجود "عالم حياة" Lifeworld يتضمن كـل شـيء نطمـح إليـه كـأفراد أو كجماعات. وفي هذا العالم يجب أن يحتل الاقتصاد حيزا صغيرا، بحق، رغم أن الاقتصـاد يسود حياتنا ويهيمن عليها. ففي نهاية المطاف، ما جدوى الثروة المادية إذا كانت لا تخـدم سعادتنا؟ وكيف يمكن أن نتحقق السعادة مادمنا عبيدا للماكنة الاقتصادية[٤]؟

وهنا يتردد صدى الكتابات الاشتراكية التي تعود الى القرن التاسع عشر، عندما كـان وليم موريس حيا. فقد كان أوسكار وايلد ينادي بإلغاء الملكية الخاصة لمصلحة أصحـاب الملكية أنفسهم، لأنها تشغلهم عن أمور أكثر أهمية، أي أن السؤال هو من نحـن، وليـس

ماذا نملك؟ وفي الواقع أن أوسكار وايلد كان يدافع عن الاشتراكية لسبب ليس في الحسبان حين قال: "المطلوب هو الفردانية. وإذا كانت الاشتراكية تسلطية، وإذا كانت ثمة حكومات مسلحة بسلطة اقتصادية، كما هي مسلحة الآن بسلطة سياسية، وإذا كنا سنخضع الى استبداد صناعي، فإن الدولة الأخيرة أسوأ من الأولى"[٥].

إن غورتس ليس واثقا من أن الرأسمالية قابلة للتحول بدفع تخوم "الاقتصاد" الى الخلف تدريجيا، بحيث أتاحت تقليص وقت العمل، كما يوصي بذلك. ويظل غورتس مدافعا عن أكثر الجوانب الديناميكية في المجتمع الصناعي من منظور أوربي الى حد كبير. لكنه يبقى في غاية الوضوح حين يرى أن المساواة والبيئة ورفاهية الإنسانية جمعاء لا يمكن أن تتقدم إلا بتحويل الرأسمالية.

لا يتفق جميع الخضر، بأية حال، مع ذلك. كما لا يقرون بأي قرابة مع الحمر على الإطلاق. فهم يقولون "لا يسار ولا يمين، بل الى الأمام"، وهم كذلك يحاولون تفادي الإقرار بأن "البطيخة" خضراء من الخارج وحمراء من الداخل، الى جانب وجود فيض من الكراهية الاستبدادية لبعض تدرجات الأخضر الغامقة. مع ذلك، ليس لدى الخضر، الأكثر تبصرا، مشكلة كبيرة مع الاشتراكية.

يقول المفكر الألماني ولفغانغ زاخس إن "الاشتراكية تستند على نظر ثاقب الى حد كبير" وإن "التقدم العلمي يوفر لنا أرضية لا ينبغي لأي أحد أن يسقط تحتها. إن بالإمكان القضاء على العوز، فغاية الاشتراكية أن يحيا الناس حياة كريمة. أما نظرية البيئة فتضيف لذلك بعدا آخر، إذ ترى أنه لا يوجد حد أدنى فحسب، بل كذلك حد أعلى. وهناك نقطة ليس يمكن بعدها تحقيق مزيد من العدالة والديمقراطية، لأن التقدم وخلق الثروة يتخذان عندئذ شكلا ليس بوسع كل واحد المشاركة فيه. فثمة سقف إذا تجاوزناه يكتسي تكوين الثروة طبيعة أوليغارشية"[٦].

إن الصعوبة التي تواجه الخضر هي أنه بالرغم من وجود نفوذ لديهم إلا أنهم لم يمتلكوا السلطة. المشاريع وجداول الأعمال تتكاثر لكن الرأسمالية تتكيف، وتواصل الأشجار سقوطها، ويتعمق التفاوت الاجتماعي. ومع أنه يمكن الرد بأن النفوذ أفضل من السلطة، إلا أن ذلك، كما أرى، تهرب من القصد. وإن ما ينبغي على الحمر والخضر أن يستعدوا له تماما هو إلزام أنفسهم بديمقراطية الشعب.

اللانظام العالمي الجديد

ثمة سبب مقنع للانظام العالمي الجديد، كما تنبأ أوسكار وايلد، هو السلطة الهائلة للدولة الحديثة. وبغض النظر عن الآراء المعارضة، فإن الرأسمالية لابد أن تكون قد آلت الى الانهيار منذ أمد بعيد، لولا الدولة القوية، دع جانبا، إذا شئت، دور الدولة في حماية الملكية الخاصة، واحتواء الاضطرابات، وإنقاذ البنوك الخاصة، وتمويل إعانة العاطلين، وإيجاد صيغ جديدة للمعارك الفاصلة، وخوض حروب مربحة، وخلق ظروف ملائمة لتهرب الشركات والأغنياء وذوي النفوذ من الضرائب، وحشرنا في كارثة متجددة. دعونا نمعن النظر بما يأتي: ساهمت الدولة – حسب الأمم المتحدة – كتقديم منح مالية، في أوائل التسعينات الى نشاطات صناعية مدمرة للبيئة في مجالات الطاقة والمياه والطرق والزراعة، في أنحاء العالم، تصل قيمتها الى ٧١٠ مليارات دولار كل عام. ويعادل هذا الرقم أربع عشرة مرة المبلغ الذي يلزم لإزالة الفقر المطلق[٧].

وهكذا تكون الدولة لاعبا رئيسيا في اللانظام العالمي الجديد. وإذا كنا جادين بإجراء التغيير، فإنه، ببساطة، لا معنى لترك الدولة وشأنها في ممارسة ألاعيبها. فبوسعنا مناقشة ما ينبغي أن تفعله الدولة، بل وافتراض اختفائها في عالم مثالي. وبوسعنا، كذلك، اقتراح أنه مادامت رأسمالية الاستهلاك العالمية بارعة في رعاية مصالحها، فإن الأولى بالحكومة الديمقراطية، أن تتبنى مهمة رعاية مصالحنا، نحن. وللانتقال من ذلك الموقع الى هذا، يجب أن تسود ديمقراطية الشعب.

يراد لنا أن نعتقد بسيادة الديمقراطية الشعبية بالفعل، لأن عصرنا هذا عصر الديمقراطية. فأمريكا اللاتينية أصبحت في حال أفضل بكثير، في الوقت الراهن، إذ يقبع الجنرالات المشبعون بالدماء في ثكناتهم. ورغم أن حال أفريقيا يدعو الى الشفقة، لابد من تحية نيلسون مانديلا. لقد رحل كل من موبوتو وماركوس وسوهارتو جميعهم، ورحل، أيضا، جدار برلين. آه، جدار برلين! كان في موسكو، قبل بضعة أشهر [المقال مكتوب في تشرين الثاني ١٩٩٨ – المترجم] مشهد قصير، فقد كان بيل كلنتون موجودا في المدينة، من أجل رقصة التانغو الأخيرة مع بوريس يلتسن، ليشبه اقتصاد السوق بقوة الجاذبية الأرضية. وجاء هذا التشبيه وسط خراب رأسمالية "قطاع الطرق" في روسيا. إن أحد قوانين الجاذبية، كما كان ينبغي لكلنتون أن يضيف، هو أن ما يرتفع الى أعلى يجب أن يهبط الى أسفل. بعد ذلك، بفترة قصيرة، ينذرنا المضارب الأسطوري، جورج سوروس، الذي ينسب إليه فضل التعجيل بالانهيار الروسي الأخير، بأن النظام الرأسمالي

العالمي آخذ في التمزق[8].

وتحوم منذ عدة أشهر، عقبان "التدمير الخلاق" حول المعمورة، منتظرة أن تسقط جثة أخرى بفعل الجاذبية هذه، بينما تقف نماذجنا الديمقراطية مصلوبة تتباهى بعجزها عن عمل أي شيء، وأن وضع خاتمة لذلك يجسد المعنى الحقيقي لعصر الديمقراطية. يدرك أي شخص عاش، مثلما فعلت، في ظل حكومة الوحدة الشعبية في تشيلي، أوائل السبعينات، أنه حينما يأتي المد الديمقراطي الى شاطئ الرأسمالية، فإن أمثال الجنرال بينوشيه جاهزون "لإنقاذ البلاد من أجل الديمقراطية"! أجل، هذه بالضبط هي كلمات الجنرال في أعقاب الانقلاب العسكري عام ١٩٧٣. لكننا، أيضا، ذقنا لوهلة، مثل جورج أورويل في "برشلونة الجمهورية"، أو ربما في زمن أقرب، مثل شعب جنوب أفريقيا، ذقنا طعم التحرر وتحقيق الذات. وما إذا كان أي منا قد ذاق هذا الطعم فعلا أم لا، فإني أحسب أن الجميع يعرف بالفطرة أنه موجود هناك. إلا أننا لا نستطيع، دائما، تقدير الجهود اللازمة لإيجاد هذا النوع من المجال المتحرر، في أنحاء المعمورة، ضمن زمن محدد، ذلك لأننا لا نملك سوى وسائل قليلة لمعرفة مقدار هذه الجهود:

- مسيرة لشعب الماوري في العاصمة النيوزيلندية ولينغتون احتجاجا على اتفاقية الاستثمار المتعدد الأطراف MAI.

- آلاف المعلمين في الأرجنتين يضربون عن الطعام احتجاجا على التقليصات في قطاع التعليم، التي فرضها البنك الدولي.

- الفلاحون في الهند يحتجون على منظمة التجارة العالمية وسيطرة الشركات على محاصيلهم الزراعية.

- سكان أوربا يقتلعون المحاصيل المطورة وراثيا.

- حركة "احتلال الشوارع" ضد تلويث الجو بواسطة السيارات يتظاهرون تضامنا مع عمال الموانئ الذين طال إضرابهم في ليفربول.

- خمسون ألف شخص يشاركون في احتجاج على معاناة أربعة ملايين جائع في البرازيل.

- ثلاثمئة احتجاج ضد العولمة في سيئول.

- عشرات الآلاف يطالبون قمة مجموعة الدول الصناعية، المنعقدة في برمنغهام، بإلغاء ديون دول العالم الثالث.

... وقد تطول القائمة، التي لو لم تقدمها لي كاترين النغر بغية كتابة تقديم لمقالها، في

المجلة نفسها، لم أكن لأعرف كل ذلك، رغم أن من صلب عملي متابعة الأحداث.

تلك هي قوى "الهدم الخلاق" وهي نذير بأن سياسات اليسار الأخضر قد تحقق في نهاية المطاف ما عجز عن تحقيقه الحمر أو الخضر على انفراد. وسواء أطلقت علينا تسمية "حركات اجتماعية" أو "مجتمع مدني"، أم اعتبرنا أنفسنا نقابات أو محاربين من أجل البيئة، وسواء يحفزنا التفاوت الطبقي المفروض علينا، أم انتهاك حرمة الطبيعة، فيما الرأسمالية، من جديد، عند مفترق طرق، فإننا يجب ألا نقلل من شأن قوتنا وأن نتجنب عدم تحمل مسؤوليتنا بالعمل سوية.

إن معظمنا، كما أعتقد، مشدود الى فكرة أن التوق الى ديمقراطية الشعب سيدفع في المستقبل، كما فعل في الماضي، الى الخلف ما هو "اقتصادي" بحت، ويرفع من مستوى حياتنا. وحالما نسلم بأن هذا هو الهدف عندئذ ننطلق لوضع التفاصيل عن أفضل السبل لعملنا. أما الآن، فلابد من الاحتفاء بما هو موجود: التنوع، والإنسانية وسحر العالم الطبيعي. ونحن نجل المساواة لأننا نشبه بعضنا، ولأنه ليس من سبيل آخر لتحقيق ذواتنا. وها نحن نحث الخطى صوب القرن المقبل لنصنع كل ما هو جميل ونافع، ونحطم كل ما هو بشع وضار، بل ونحمي بعضنا وكل ما لا يمكن تعويضه.

مرة أخرى أعود الى وادي الأمازون وسكانه، فقد كنت في يوم ما جالسا مع مجموعة من النساء على أرض انتزعت من غابة تم تدميرها، وفي هذه البقعة أوجدت هؤلاء النسوة واحة وسط أرض خراب. ومن حين لآخر، رغم ذلك، يأتي مسلحون مستأجرون بهدف السيطرة عليها، قائلين إنها تعود لشخص آخر مهددين بالويل. لم أعرف تماما ما أقوله لهؤلاء النسوة، كما لم أعرف لماذا سألتهن: "هل تعتقدن أن بالإمكان أن تحكمن بلادكن، في وقت قريب؟".

كانت لحظات من الصمت، راودني خلالها شعور متطفل على أفكار مكتومة. كنا مغمورين بسكون الواحة المتحرك، فأحسست بأن ذلك تعبير عن إجابتهن. ثم صرخت إحدى النساء قائلة "نعم" ونظرت إلي مبتسمة. فتبعتها أخرى وأخرى: "نعم، بالطبع". صفقن جميعا إطراء لأنفسهن. وساد ضحك مغلف بالارتياح والبهجة.

الهوامش

المصادر أدناه بالانكليزية:

[1] وليم موريس، "حلم جون بول"، في ثلاثة أجزاء، دار لورانس أند ويشارت، لندن ١٩٨٦ (طبع أصلا في ١٨٨٦/ ١٨٨٧).

[2] مثلا كون كاسيدي: "عودة كارل ماركس" المنشور في "ذا نيويوركر" في ٢٠ و٢٧ تشرين الأول ١٩٩٧.

[3] أكثر ما يدعو للاهتمام هنا مناقشة لذلك في مجلة "الرأسمالية، الطبيعة الاشتراكية" الأميركية، خصوصا مساهمة جيمس أوكونور.

[4] أندريه غورتس، "الرأسمالية، الاشتراكية، البيئة" – دار فيرسو، لندن ١٩٩٤.

[5] أوسكار وايلد، "روح الإنسان في ظل الاشتراكية" دار بنغوين، لندن، ١٩٨٦.

[6] مقابلة شخصية، شباط ١٩٨٨.

[7] تقرير التنمية البشرية، ١٩٩٨، برنامج الأمم المتحدة للتنمية.

[8] صحيفة الغارديان، ١٦ أيلول ١٩٩٨.

خاتمي: نصف دورة رئاسة

حميد سلمان الكعبي

وصل السيد محمد خاتمي الى رئاسة جمهورية إيران الإسلامية في انتخابات تميزت بارتفاع نسبة المشاركة الجماهيرية – وخاصة في أوساط الشباب والنساء والأقليات – ووجود منافسة حقيقية بين المرشحين، أو – إذا أردنا الدقة – بينه من جهة والآخرين معاً من جهة أخرى، ثم فوزه بنسبة عالية من أصوات الناخبين. وكان حقاً لأنصاره أن يصفوا فوزه بالـ"ملحمة"، لهذه الأسباب مجتمعة ولتغلبه على منافسيه رغم ما وضع في طريقه من ألغام، وما استُخدِم إزاءه من أساليب[1]، أيضاً.

ونشأ عن فوز خاتمي وضع شاذ نوعاً ما: رئيس منتخب في أكثر انتخابات إيران انفتاحاً وأعلاها مشاركة وأصحها منافسة، يحصل على تفويض جديد من الشعب، يجد نفسه أمام مجلس شورى منتخب في أقل الانتخابات انفتاحاً وأدناها مشاركة وأشوهها منافسة، في تفويض سبق انتخابات الرئاسة بسنتين.

ولكي يتمكن الرئيس الجديد من تنفيذ مشروعه الذي انتخبه الشعب على أساسه، ضامناً دعم المجلس له فإن الأسلوب المتبع في الأنظمة الديمقراطية – وإيران منها دستورياً – هو الدعوة الى انتخابات جديدة – خاصة وأنه طرأ تغير يشبه الثورة على مزاج واتجاه جمهور الناخبين في الفترة بين انتخاب المجلس الخامس وانتخابات الرئاسة السابعة – ولكن الدستور الإيراني لا يسمح لرئيس الجمهورية بذلك، ولا يبدو أن زعيم الثورة (اللقب الرسمي للولي الفقيه، السيد خامنه إي) كان سيقبل القيام بهذا الإجراء لو أن

خاتمي اقترحه عليه. وهكذا، فقد ترتب على خاتمي أن يعمل مع مجلس يعارضه نحو نصف أعضائه (١٣١ من ٢٧٠) معارضة تامة، وهدد زعماؤهم في مجالسهم الخاصة، والأوسع قليلاً، بأن رئاسة خاتمي لن تمتد ستة أشهر، وأنهم سيجعلون مصيره كمصير رئيس الجمهورية الأول بني صدر بإعلانهم عدم أهليته، ويقسمون جميعاً متضامنين – في أي تصويت مهم – لا على المشاركة في التصويت وحسب، وإنما على التصويت بالشكل الذي يريدون، بصرف النظر عما يدور من نقاش، يساندهم نحو خمسين عضواً آخرين في الكثير من مواقفهم.

وقد اتضح تعقيد الموقف منذ أن قدم خاتمي أعضاء وزارته للحصول على الثقة بهم، فلم يكد وزير منهم ينجو – هو أو ترشيحه في الأقل – من انتقاد واعتراض الأكثرية. ومع أن خاتمي نجح في فرض كل وزرائه، إلا أنه كان واضحاً منذ البداية أن ثلاثة منهم سيعانون من مصاعب حقيقية مع المجلس. وهكذا كان، فبعد نحو سنة فقط من تشكيل الوزارة سحب المجلس ثقته من عبد الله نوري – وزير الداخلية – وأفلت وزير الإعلام – عطاء الله مهاجراني – من التصويت على الثقة نتيجة تنازله المشين عن موقفه (الرخو أصلاً) إزاء حرية الصحافة، في تصريحاته المشهورة لصحيفة "السفير" اللبنانية، وتجنب مرة أخرى طرح موضوع استيضاحه باللجوء الى إجراءات إدارية – كان يرفضها سابقاً بوصفها غير قانونية – لغلق عدد من الصحف، مما أدى الى استقالة معاونه لشؤون الصحافة، وتخلص مرة ثالثة من سحب الثقة به، بعد أن طرح الموضوع للتصويت مؤخراً، نتيجة صفقة لم تعلن أسرارها بعد – ودعك مما قيل عن شرحه المنطقي الهادئ لسياسته أمام المجلس، فإن الأكثرية ما جاءت لتسمع أصلاً!

إضافة الى هذا الموقف العسير، واجه خاتمي مسائل أخرى جدية:

١- مع أن جهاز الأمن تديره وزارة منذ أكثر من عشر سنين، إلا أن وزيرها لا يختاره رئيس الجمهورية – رئيس السلطة التنفيذية – وبالتالي فهو لا يخضع لسيطرته، ولا يكاد يعرف شيئاً عن أعمال الوزارة، فكيف بتوجيهها وقيادتها؟

٢- مع أن قوى الأمن والنظام (الشرطة) هي جزء من وزارة الداخلية تنظيمياً، إلا أن قائدها العام لا يعينه وزير الداخلية، فهو بالتالي لا يخضع لسلطته ولا يتلقى توجيهاته منه!

وإذا ما أضفنا الى ذلك أن ثمة مجلساً للأمن القومي لا يرسم شؤون السياسة الأمنية للبلاد فحسب، وإنما يعمل على تنفيذها أيضاً، يشكل رئيس الجمهورية وأنصاره فيه أقلية

شبه معزولة مقابل غالبية من متنفذين وذوي مصالح، يسعون بكل الوسائل الى إبقاء الوضع "المريح" الذي تجري فيه الأمور منذ بضع عشرة سنة، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أيضاً الولاءات الخاصة التي تشكلت داخل الأجهزة الأمنية خلال هذه الفترة الطويلة نسبياً، لا لخط سياسي معين فقط بل ولأشخاص بالذات أيضاً، لأمكننا فهم صعوبة هذه المسائل وحساسيتها.

٣- إن السلطة القضائية مستقلة تماماً عن السلطة التنفيذية، وفي حين يفترض أن تكون موازية لها، فهي تلعب على الخارطة السياسية الإيرانية دور المخالف العنيد لها.

وقد ترجم رئيسها، (السابق) الشيخ محمد يزدي، خلافه الذي عرضه بشكل صبياني يوم تحليف الرئيس خاتمي، الى خطوات عملية تكاد تشل أية خطوة يتخذها خاتمي على الصعيدين الداخلي والدولي.

فالسلطة القضائية تتولى مباشرة جانباً كبيراً من مهمة الحفاظ على الأمن في البلاد عن طريق محكمتين (الثورة، ورجال الدين) المخولتين بالاعتقال والتفتيش. وفيما يؤكد خاتمي وأجهزته التنفيذية على اللجوء الى القانون إزاء الصحف، أوعز يزدي لقاضي محكمة الصحافة بالتشدد، حتى وصل الأمر بهذا الى إعفاء الأعضاء الأصليين من هيئة المحلفين الذين أضربوا عن الحضور الى المحكمة احتجاجاً على استخفافها بتوصياتهم، ثم لجأ الى أسلوب اعتقال الصحافيين وحبسهم أثناء مراحل التحقيق، وتكبيل من لا يحبسه منهم بكفالات باهظة يعجزون عن تقديمها - فتكون النتيجة حبسهم أيضاً!

ولم يكتف الشيخ يزدي بذلك، بل كان يحيل بعض الصحف الى محكمة الثورة - التي ينكر القانونيون دستوريتها ويشككون بقانونيتها - بدعوى أن جريمتها "غير صحفية"! وإنما تتعلق بالرأي العام. كما تواصل محكمة رجال الدين - غير الدستورية هي الأخرى - مطاردة الكتّاب والباحثين، من رجال الدين، دون رقيب أو حسيب، بدعوى تسببهم في زعزعة النظام فيَ ما ينشرون، مما يتجاوز مقولة التعبير عن الرأي!

وتعمل هاتان المحكمتان في معالجة قضايا سياسية وفكرية ينص الدستور، وقانون أصول المحاكمات، على النظر فيها علناً ومن قبل هيئة منصفة منتخبة من أوساط مختلفة، من دون اعتبار لهذين الشرطين، بل ومن دون السماح لمحام - أصلاً - بالدفاع أمامهما أحياناً.

ولكلٍ من هاتين المحكمتين مأموروها، الذين يتمتعون بصلاحيات واسعة لخطف المواطنين واستصحابهم الى أماكن مجهولة اتضح لاحقاً أنها "سجون" غير شرعية!

وممارسة أنواع التعذيب النفسي والجسدي معهم للحصول على "اعترافات" بجرائم مزعومة قاموا بها هم أو آخرون، فيدانون بسببها!

وكلما خطا خاتمي خطوة لتبييض صورة إيران عالمياً وتطبيع علاقاتها مع العالم من حولها، تعمل السلطة القضائية على تفجير قنابلها الموقوتة لإبطال مساعيه، وهذا ما تنطوي عليه محاكمة وإعادة محاكمة هذا المواطن الغربي أو ذاك، أو اعتقال "الجواسيس" مع كل خطوة دبلوماسية تحقق لخاتمي نصراً على سبيل الانفتاح عالمياً، أو مع اقتراب موعد حوار الحضارات الذي أقرته الأمم المتحدة بناءً على اقتراحه، الأمر الذي أدى الى تجريده من أي سلاح إزاء تقارير منظمات حقوق الإنسان عن إيران.

٤- ليست لرئيس الجمهورية أية سلطة على الحرس الثوري، وقوات "التعبئة" (بسيج) الملحقة بالحرس، في حين أنهما يلعبان دوراً كبيراً في شؤون الأمن الداخلي. وقد أثبتت وقائع السنتين المنصرمتين من رئاسة خاتمي أن هاتين المؤسستين تعملان على النقيض من سياساته لإقامة وتحكيم المجتمع المدني.

٥- جرى تشكيل "مجمع تشخيص مصلحة النظام" على أيام المرحوم الخميني كجهاز تحكيم في الخلافات التي تنشأ بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حول تنفيذ القوانين، أو بين شقي السلطة التشريعية (مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور) حول شرعية و/أو دستورية القوانين. وكان ينعقد برئاسة رئيس الجمهورية، ويضم الطرفين المتخاصمين، فيلعب الرئيس دوراً أساسياً في حسم النزاعات.

ولكن مع اقتراب انتهاء ولاية رئيس الجمهورية السابق، الشيخ الرفسنجاني، أصدر زعيم الثورة أمراً عهد بموجبه، لهذا المجمع برسم سياسات البلاد العامة "خارجية"، "اقتصادية" و"داخلية"، وعين الشيخ رفسنجاني رئيساً له! وعدا عن المفارقة التي أدى إليها هذا الإجراء، وهي شكلية الظاهر عميقة المحتوى: فقد تحول رئيس الجمهورية - المسؤول بموجب الدستور عن مراقبة تنفيذ الدستور وسلامة هذا التنفيذ، ورئيس السلطة الذي ينظم برنامجه التنفيذي وفق الخطة الخمسية والميزانية السنوية اللتين يقرهما مجلس الشورى - الى منفذ لسياسات يرسمها المجمع الذي لا يتمتع بمثل هذه الصلاحية دستورياً، وانتفى عملياً دور المجمع كحكم مقرر بين سلطتين ومرجع لحل الخلافات داخل السلطة التشريعية بشقيها. أقول، عدا عن هذه المفارقة، أخذ زعيم الثورة يضخ الى جسد المجمع أعضاء جدداً من وزراء رفسنجاني الذين استغنى عنهم خاتمي مما جعله هيئة كبيرة يضيع وسطها خاتمي ومن يمكن أن يؤيده ممن ضمهم الزعيم الى المجمع لإظهار

"حيادية" إجرائه، كما اتخذ رفسنجاني الخطوات اللازمة لجعل المجمع مؤسساتي الطابع بأن عين له سكرتيراً عاماً وجعل يعقد الجلسات المنتظمة "لتعيين السياسات"، مما جعل منه حكومة موازية!

أمام هذا الحصر والتطويق، كان على خاتمي الرجوع الى الشعب – الذي أعطاه التفويض بانتخابه –. ولما كان إجراءاستفتاء متعذراً عليه دستورياً، فقد كان رجوعه الى الشعب هادئاً وبسيطاً: إجراء مقابلات مباشرة ولقاءات متعددة مع جماهير الشعب ومع مجموعات محددة منه: شباب، نساء، مثقفين، طلاب، الخ... وحثهم على النضال من أجل حقوقهم، وممارستها، وتحمل الصعاب في سبيلها. وكذلك منح مزيد من الامتيازات للصحف. فإزاء موقف اليمين عموماً، والسلطة القضائية خصوصاً، المعادي للصحافة والمتشنج إزاءها، كانت سياسة خاتمي تتميز بمنح امتيازات إصدار صحف أكثر (هناك امتيازات صدرت لم تستثمر بعد وأبقيت محفوظة احتياطاً لتستعمل في حال إغلاق هذه الصحيفة أو تلك)، ومنح حرية نسبية أوسع للصحف في الأمور التي تتناولها، والتقليص الى أدنى حد لإجراء غلق الصحف وسحب امتيازاتها، الإداريين.

وقد نجحت هذه السياسة، حتى الآن، في مسألتين مهمتين:

١– تسييس جماهير واسعة ممن شاركوا في انتخابات خاتمي، وانتخبوه، بعد أن كانوا اندفعوا الى المشاركة في الانتخابات لعوامل عدة لم تكن السياسة بمفهومها الدقيق من بينها، بقدر ما كان هدفهم تغيير النظرة إليهم وتمكينهم من "العيش على طبيعتهم" بشكل أوسع.

٢– دفعت الى السطح مناقشة مسألة "ولاية الفقيه": حدودها والتزاماتها، بعد أن كانت من "المقدسات" التي لا يجوز – عملياً في الأقل – تناولها.

كان الخميني يقول: "إن كتب فقهاء المسلمين الكبار ملأى، باختلاف الآراء والأذواق والاستنتاجات في مختلف الحقول العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعبادية، الى حد أنه في المسائل التي يزعم أن فيها إجماعاً يوجد رأي أو مخالفة، وحتى في المسائل الاجتماعية يمكن العثور على آراء مخالفة... أفيمكن أن نتصور إذن أن الفقهاء – إذا اختلفوا مع بعضهم بعضاً – قد عملوا خلاف الحق وخلاف دين الله؟".

وصرح منتظري، وهو من منظّري ولاية الفقيه، أنه وأنصاره لم يفكروا قط [حين أقروا ولاية الفقيه في الدستور أثناء مناقشته في المجلس التأسيسي] في أن تكون الولاية مطلقة بالشكل الذي يفهم من الإطلاق اليوم... وأعلن أنهم لم يروا لها مقاماً خارج الدستور، بله فوقه.

وقد صارت الصحافة الإيرانية تطرح اليوم، بجرأة، مسألة ضرورة قيام مجلس خبراء الزعامة (أو الولاية) بواجباته الدستورية كاملة: انتخاب الولي الفقيه، مراقبة عمله، وعزله إن وجد قاصرا عن أداء مهامه. وبصراحة أكثر، إن على مجلس الخبراء هذا بعد أن ينتخب الولي الفقيه أن يناقشه - كما يناقش مجلس الشورى رئيس الجمهورية - وحتى يعزله إن اقتضى الأمر، وأن يقدم تقريرا بمناقشاته للرأي العام الذي انتخبه، لكي يعرف الشعب ماذا يعمل المجلس وكيف يعمله.

إن ما أثار أوساط اليمين في هذا الأمر ليس الحرص على ولاية الفقيه نفسها، بقدر ما هو الحرص على إبقاء الولي الحالي نفسه، الذي يدعم مواقف هذا اليمين أولا[٢]، والى استعمال المسألة كلها في التهويش على أنصار خاتمي باعتبارهم أعداء لولاية الفقيه، الأمر الذي جعله اليمين طوال سنوات أمرا مساويا للكفر!

كيف يعالج اليمين الموقف؟

لقد استنفد اليمين المحافظ كل مساعيه لوقف الاندفاع الذي أحدثه فوز خاتمي ووقف التموج الذي أحدثته الحجارة التي رماها في بركة السياسة الإيرانية الراكدة:

١- فقد صعد الاعتداءات بالسلاح البارد على التجمعات، وحتى الندوات العلمية، في حين كانت قوى أمنه الداخلي تقف متفرجة على الاعتداءات، لتعتقل الضحايا بعد انتهائها، حتى امتد الأمر الى الاعتداء على نائب ومستشار لرئيس الجمهورية ووزيرا والى تخريب صلاة جمعة، ثم الاعتداء على إمام جمعة - شخصيا - الأمر المعادل للكفر!

٢- واستفاد من اتساع حرية الصحافة ليصدر صحفا تقوم بالتهويش على الحريات العامة، والتشهير بالوجوه السياسية والصحافية الإصلاحية، والإيحاء بممارسة المزيد من أعمال العنف والاعتداءات، وذلك عن طريق إطلاق التكفيرات على بعض تلك الوجوه أو إعلان معاداتها لولاية الفقيه، أو عن طريق تلقين المعتدين - المعتقلين - بطرق الدفاع عن أنفسهم عن طريق إنكار وقوع الاعتداءات أصلا! أو الزعم بأنها "اعتداءات ذاتية". يعني أن الضحايا أصابوا أنفسهم أو كلفوا من يعتدي عليهم ليثيروا قضية ضد خصومهم!

٣- استفاد من الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، على نحو ضيق، وذلك لسببين: أولهما أن الحكومة إنما تنفذ سياسة يرسمها لها مجمع تشخيص مصلحة النظام، والثاني أن الإصلاحيين يهددون - كلما جرى كلام في هذا المضمار - بالتوسع في بحث المشاكل الاقتصادية التي أوقعت حكومة رفسنجاني[٣] النظام، والبلاد، فيها.

٤- لم يتورع عن اغتيال عناصر معارضة حقيقية (الزعيم السياسي داريوش فردهر وزوجته براونه اسكندري) وعناصر تسبب مجرد صداع (الكاتب والشاعر مختاري والكاتب والمترجم في مجال حقوق الإنسان بوينده)، وربما عناصر أخرى من هذا النوع، سابقا، أثيرت فيما مضى شكوك عن مقتلها أو "موتها".

٥- استخدم بنجاح سلاح سحب الثقة من الوزراء مع وزير الداخلية، وبغير نجاح - أو بنجاح على طريقة أخرى - مع وزير الإرشاد، وهدد باستخدامه مع وزراء آخرين.

٦- استخدم، بنجاح، مجلس صيانة الدستور للحد من وصول عناصر إصلاحية جريئة حقا الى مجلس خبراء الزعامة، وأعطى للجنة الأحزاب والجمعية في مجلس شورى مثل صلاحية مجلس الصيانة فيما يتعلق بانتخابات البلديات - ولم يوفق في النتائج.

وأمام اليمين، والبلاد كلها، أهم انتخابات نيابية في تاريخها الحديث، وهو سيستخدم - لذلك - كل هذه الأسلحة والأساليب فيها، وسيكون هدفه الأول تقليل وإضعاف المشاركة الجماهيرية في الانتخابات، وتقليل عدد المرشحين الذين يقبل اشتراكهم، وابتكار طرق جديدة لإغراء العناصر غير المسيسة للتصويت لمرشحيه وتشويه صورة منافسيه، ثم في قبول من يفوز منهم[٤].

وسيقع هذا على أرضية من إحباطين: أ) ازدياد تفاقم الأزمة الاقتصادية في البلاد، فقد كانت نسبة من يعيشون أدنى من خط الفقر أثناء رئاسة رفسنجاني ٥٠ بالمئة من السكان، ارتفعت الى ما بين ٦٠ و٧٠ بالمئة في أوائل سنة ١٩٩٩ ويتوقع أن ترتفع الى أعلى من ذلك خلال هذا العام وحتى أوائل سنة ٢٠٠٠، ب) التنامي المحتمل لإحساس الجماهير بعدم جدوى مشاركتها في العمل السياسي عموما، والانتخابات خصوصا، مادامت الأحداث تفرض عليها، وعلى حكومتها، بشكل لا ترتضيه.

آفاق النصف الثاني

قد يكون خاتمي راضيا عن صبره وهدوئه اللذين يؤثران عنه، ولكن لا يتوقع أحد من جماهير الشعب أن تحافظ على صبرها، فهي إما أن تزداد ابتعادا عن العمل السياسي والعام - كما جرى في الترشيح لانتخابات البلديات وفي المشاركة في الانتخابات أيضا - وإما أن تلجأ الى عمل عنيف لإزالة القيود التي تطوقها، الأمر الذي ربما كان اليمين المحافظ يراهن عليه للتخلص من خاتمي شخصيا والقضاء على "ثورته" الجديدة. وستكون

المجريات اليومية للسياسة الإيرانية هي ما يحدد أيا من الطريقين ستختار الجماهير، مع الانتباه الى الغياب الكامل تقريبا لمؤسسات المجتمع المدني - أحزاب وتنظيمات جماهيرية حقيقية -.

وكلا هذين الطريقين في غير صالح خاتمي وهدفه المعلن: تحقيق المجتمع المدني وتمكين الجماهير من ممارسة التحكم بمصيرها.

ولذا، فإن عليه مضاعفة جهوده في هذا السبيل، وخاصة في تحقيق دعم أقوى للصحافة، التي أثبتت أنها - في غياب الأحزاب الحقيقية - خير سلاح لتحقيق المجتمع المدني، مع أنها من أدواته ومظاهره.

لقد بدأ معركته - على طريقته - على صعيد القضاء، مع تغيير رئاسة السلطة القضائية، فيبدو أنه يعرف ما يريد، وكيف ينبغي أن يعمل. فهل سيواصل هذه المعركة حتى الانتخابات القادمة على الأقل؟

*

لقد جاءت أحداث أوائل تموز الماضي لتعزز التوقعات الواردة أعلاه[5]، وقد تحرك الطلاب في رد فعل سريع على إجراء متشنج للسلطة القضائية: فقد كانت هذه السلطة تتربص بجريدة "سلام" منذ مدة، واستغلت نشرها رسالة "المخطط" المعلن لعمليات اغتيال المثقفين والمعارضين السياسيين ومنفذها الحقيقي[6]، لغلقها بصورة غير قانونية[7].

وقد اتخذت الأحداث، واختلاط أعمال تخريبية مشبوهة بها، ومعالجتها مسارا لم يخرج عما جرى على الواقع السياسي في إيران طيلة السنتين الماضيتين: دان الولي الفقيه لفظيا القمع الوحشي لانتفاضة الطلاب، ولكنه أبقى قائد الشرطة هدايت الله لطفيان، ذا السوابق العديدة المشابهة، في موقعه، ولم تحرك السلطة القضائية ساكنا تجاه صحيفتين يوميتين وثالثة أسبوعية نشرت رسالة إنذار من قادة في الحرس الثوري لرئيس الجمهورية يتحدثون فيها بصراحة عن نيتهم في التدخل المباشر إن لم ينفذ مطلبهم في مواجهة التحركات التي تهين القيم والرموز!

وهذه الرسالة سرية طبعا، سواء أرفعها أولئك الضباط سرا أم علنا، فمضمونها يشير الى هذا الانقسام الحاد في وجهات النظر، وأسلوبها مهين للرئيس، وكلا الأمرين يضعف النظام!

كما أن دائرة الادعاء العام - سواء أكان ادعاء محكمة الثورة أو الادعاء العسكري - لم تتخذ إجراء بحق عسكريين يتدخلون في صراع سياسي، وهو أمر ممنوع عليهم،

ويجتمعون ليقدموا مطلبا جماعيا، وهو أمر ممنوع آخر!

ومع صدور النتائج الأولية للتحقيق في قمع الطلبة، بقي ما لا يقل عن مائة منهم معتقلا و"مفقودا"، وانتهز صاحب القرار الأعلى زحمة الأحداث وصخبها ليدخل أعضاء أكثر يمينية ممن سبقهم في مجلس صيانة الدستور: "يزدي" بعد خروجه من رئاسة السلطة القضائية، "طاهري خرم آبادي" الذي دان الانتفاضة الطلابية من على منبر صلاة جمعة طهران، و"استادي" مدير "جامعة" (جمعية) مدرسي حوزة قم العلمية، وصاحب المقالة الوحيدة في الأمور السياسية التي شجب فيها حديث خاتمي الى CNN!

وهكذا، لم يتغير، تحت السطح، الكثير، وأجلت الإجراءات الحاسمة الي معركة الحسم الكبيرة، والذي يبدو أن الطرفين يخافان أن يخطئا في الحساب فيستفيد الطرف المقابل من هذا الخطأ في معركة الانتخابات القادمة.

الهوامش

[1] ابتداء من إدراج اسمه أخيرا على قائمة المرشحين، في حين كان يجب أن يكون أولا لأن القائمة مرتبة حسب الحروف الأبجدية!، ومن تجاهل وسائل الإعلام الرسمية له، وافتعال نشاطات داخلية وخارجية متعددة لمنافسه الرئيس (ناطق نوري)، أو تقديم خاتمي في أوقات غير مناسبة، بينما يتم تقديم منافسه الرئيس في أفضل أوقات البث التلفزيوني، الى شراء الأصوات بالطرق المعروفة: الولائم، ثم الشراء نقدا على مرحلتين: تسليم نصف الورقة النقدية مقدما على أن يتم تسليم نصفها الثاني بعد الاقتراع! الى اعتقال الشبان والشابات من مراكز الاقتراع، بحجة عدم رعاية الحجاب الإسلامي أو "الشؤون" الإسلامية، واحتجازهم لحين انتهاء الوقت الرسمي للانتخاب، وذلك لتأكد أجهزة الأمن والمخابرات من أن هؤلاء سيصوتون له، الى شن الخطباء والوعاظ حملات تلمح الى أن انتخابه حرام، ومرابطة عدد من أعضاء مجلس صيانة الدستور عند أجهزة الهاتف يصدرون تعليماتهم أولا بأول الى الأجهزة المشرفة على الانتخابات، وعقد قيادة الحرس الثوري سلسلة اجتماعات تسرب عنها صدور تعليمات بالحذر من محاولات "لبننة" إيران وتهديدات بأن الحرس سيحولها الى "بلقنة"، وأنه مستعد لاستلال السيوف لحز الرقاب وقطع الألسن! وانتهاء بإنتاج فيلم فيديو وزعت منه آلاف النسخ في طول البلاد وعرضها، وعلى كبار رجال الدين أساسا، زعم أنه يصور فرحة خاتمي وأنصاره باحتمالات الفوز، سمي بـ"عصر عاشوراء"، وتسيير سيارات تحمل "المبتهجين" بقرب الفوز، عصر يوم عاشوراء أيضا، وصور موكبها في فيلم فيديو آخر باسم "مهرجان البهجة"، للإيحاء باستهتار خاتمي ومؤيديه بالمناسبة الأليمة و– بالتالي – بالقيم الإسلامية! ومشاعر الشعب الإيراني! وعندما انكشف أن الفيلمين جرى تلفيقهما وإنتاجهما في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون – التي يقودها واحد من خصوم خاتمي الألداء – جرت لفلفة محاكمة المشتركين في "مهرجان البهجة" خوفا – فيما يبدو – من افتضاح أسرار تتعلق بالعملية، ثم خيم صمت تام في معسكر اليمين بالنسبة للموضوع.

[2] كان الولي الفقيه السابق، المرحوم الخميني، يعالج التغرات والإشكالات الدستورية بحلول "يسارية" وكان يقف – في قضايا الخلاف – عمليا الى جانب المتحررين والإصلاحيين، مع أن شخصيته لم تكن تسمح بإثارة قضايا تفصيلية حادة، وإنما كانت الخلافات تثور حول قضايا عامة وبشكل مزوق. أما الولي الحالي السيد الخامنه ئـي، فبرغم دعوته اللفظية الى الوحدة وتسوية الخلافات بالتفاهم، إلا أنه عمل على إسناد مواقف اليمين، والمتشدد منه بشكل خاص، في الواقع العملي. فقد جدد عضوية أعضاء مجلس الصيانة اليمينيين جميعا، عندما انتهت عضويتهم فيه، ولم يستفد من فرصة تقدمهم في السن، الى جانب انتهاء مدة العضوية، لتغييرهم. كما جدد لرئاسة علي لاريجاني لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون عند انتهاء مدتها القانونية في السنة الماضية، رغم معاداته المكشوفة لرئيس الجمهورية ورغم انكشاف ضلوعه في الفيلمين سيئي الصيت، وفي برنامج تلفزيوني وجه الاتهام لرئيس الجمهورية وأنصاره – بعد ذلك – بالضلوع في اغتيالات السياسيين والمثقفين! وجدد لرئيس مؤسسة المستضعفين والمضحين – وهي امبراطورية اقتصادية كبرى – حتى بعد انكشاف وجود فساد مالي فيها حسب تقرير لمجلس الشورى – اليميني هو الآخر! واللغط الذي أثير عن احتمال تمويله حملات مناقسي خاتمي في انتخابات الرئاسة. وحتى عندما اضطر وزير الأمن الى الاستقالة بسبب ضلوع وزارته في القتول السياسية، كان البديل الذي فرضه السيد الخامنه ئي على خاتمي، عن ذلك الوزير، يمينيا هو الآخر. وعندما انتهت رئاسة الشيخ يزدي للسلطة القضائية ولم يجدد له، عين يمينيا آخر، وإن كان أكثر هدوءا من يزدي، للمنصب، يتميز – وهذا أمر بالغ الدلالة – بكونه قريبا جدا منه، وربما – بالتالي – أكثر طاعة في تنفيذ رغباته المباشرة.

[3] مع أنه أحد أقطاب "جامعة رجال الدين المناضلين"، التنظيم الرئيس لليمين السائد رسميا في إيران، إلا أنه يعمل على تقديم نفسه كمعتدل. ومع أن وزارته التي شكلها في فترتي رئاسته كانت تضم عناصر يمينية أساسا، إلا أنها يمكن وصفها بالتكنوقراطية أكثر من اليمينية، وقد استفاد خاتمي من بعضها في تشكل حكومته، وكانت تحظى عموما برضى اليمين، خاصة في مجلس الشورى.

[4] في قانون الانتخابات الإيراني، يحق لمجلس صيانة الدستور أن يلغي نتائج انتخابات أي مركز انتخابي كلا أو جزءا إذا اقتنع بأن الانتخاب فيها لم يجر بصورة سليمة. كما أن مجلس الشورى نفسه يحق له رفض من لا يقتنع المجلس بسلامة انتخابه.

[5] أعدت هذه المقالة قبل الأحداث بأشهر.

[6] أجمع المراقبون الخارجيون على كونه مجرد منفذ، ولمحت صحف "الإصلاح" الإيرانية على أن "انتحاره" كان تمثيلية مدبرة أريد بها عدم الكشف عن المخططين الحقيقيين.

[7] لأن حكم الغلق صدر عن دائرة مدعي عام الثورة، لا عن محكمة الصحافة، أو محكمة رجال الدين التي سبق أن حاكمت الجريدة وأصدرت عليها حكما معلقا. وكانت ذريعة الإغلاق أن الجريدة نشرت وثيقة سرية (ما وجه سريتها؟) وبشكل مشوه (كيف؟) أريد بها إثارة القلق والانشقاق في المجتمع.

وثيقـــة

البلاغ الصادر عن المجلس الحزبي العام الخامس للحزب الشيوعي العراقي

انعقد على أرض الوطن في أيام ٢٦ – ٢٨ تموز ١٩٩٩ المجلـــس الحزبـــي العـــام الخامس للحزب الشيوعي العراقي.

وجرت أعمال المجلس بمشاركة ممثلي الحزب الشـــيوعي الكردســـتاني – العـــراق، ومندوبي تنظيمات الحزب في عمق الوطن وفي الخارج، ومندوبي لجــــان الاختصـــاص المركزية، وممثلات لجمهرة الرفيقات أعضاء الحزب، إضافة الى أعضاء قيادة الحـــزب وبعض الكوادر القيادية.

وتداول المشاركون "موضوعات سياسية للنقاش" جرى إعدادها في إطار التحضـــير لعقد المجلس. وناقشوا في سياقها التطورات في السنتين الأخيرتين على الصعيد الداخلـــي: الأزمة الاقتصادية والمعاناة المعيشية، استمرار الحصار الاقتصادي والتلاعـــب بتطبيـــق القرار ٩٨٦، تفاقم المشكلات الاجتماعية، تشديد وتـــائر الإرهـــاب، تصـــاعد المقاومـــة الجماهيرية، التطورات على الصعيد الخـــارجي المتصلـــة بالشـــأن العراقـــي، الموقـــف الأمريكي، المعارضة العراقية، الوضع في كردستان خاصة عواقـــب الاقتتـــال الداخلـــي العبثي وضرورة تحقيق المصالحة والسلام، إضافة الى الأوضاع العربية والدولية.

وقرر المجلس في ختام مناقشة الموضوعات المذكورة، إصدار بيان يستند إليها، والـــى التعديلات التي تقرر في مجرى النقاش إدخالها عليها، فضلاً عن الأفكـــار والملاحظـــات الواردة في عشرات من رسائل الرفاق والأصدقاء التي وصلت الى المجلس الحزبي فـــي شأن الموضوعات.

كذلك، وارتباطاً بتصاعد التحركات الجماهيرية ضد النظام الدكتاتوري فـــي الأشـــهر الماضية، أصدر المجلس نداءً موجهاً الى القوى الوطنية العراقية.

وبحث المجلس أيضاً تقريراً عن نشاط الهيئات القيادية للحزب في مختلف الميـــادين، منذ المؤتمر الوطني السادس، وصادق عليه.

أواخر تموز ١٩٩٩

وثيقــة

التقرير السياسي

للمجلس الحزبي العام الخامس

للحزب الشيوعي العراقي

شهدت السنتان الماضيتان اللتان أعقبتا المؤتمر الوطني السادس لحزبنا في أواخر تموز ١٩٩٧، تطورات كبيرة الأهمية في أوضاع بلادنا الداخلية وفي ما يتعلق بالشأن العراقي عربياً وإقليمياً ودولياً، وفي الأوضاع العربية والعالمية بشكل عام.

وامتدت التطورات الى سائر ميادين الحياة الداخلية، وبضمنها الوضع في إقليم كردستان، وفاقمت محنة جماهير الشعب والكارثة التي حلت بالوطن، وعمقت الأزمة الشاملة للنظام الدكتاتوري وزادتها تعقيداً واستعصاءً. وشملت التطورات أيضاً مواقف وعلاقات النظام الخارجية، والمواقف العربية والدولية منه ومن القضية العراقية، وعكست تخبطة السياسي وعزلته في الخارج أيضاً، وضيق هامش المناورة المتاح له في التعامل مع الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن.

وسجلت السنة الأخيرة بصورة خاصة، والأشهر المنقضية من العام الجاري بصورة أخص، تسارعاً في نبض الأحداث على الصعد جميعاً، وتزايدت في سياقها الدلائل والإشارات من الخارج والداخل على حد سواء، الى أن الفترة المقبلة يمكن أن تشهد تطورات غير عادية بالنسبة للنظام الحاكم وبالنسبة لبلادنا ومستقبل تطورها.

١- على الصعيد الداخلي

أفضت مسيرة الأحداث في الداخل منذ المؤتمر السادس لحزبنا، الى تغير ملحوظ في مزاج جماهير الشعب واستعدادها للكفاح ضد النظام الدكتاتوري. وتجلى التغير ملموساً في

تنامي السخط والتململ والتحفز في الأوساط الشعبية ضد سلطات النظام، والتراجع الجزئي للخوف من عسفها وبطشها، وما أسفر عنه ذلك ورافقه في الأشهر القليلة المنصرمة خصوصاً من موجة عمليات مقاومة وتصد، ومواجهات وهبات جماهيرية، ظلت تتواصل وتمتد من محافظة الى محافظة ومن مدينة الى أخرى.

وجاءت هذه التطورات حصيلة لمجمل سياسات النظام ونهجه القمعي المتفاقم، ولعواقب الحصار الاقتصادي الدولي بعد ما يزيد على ٨ سنوات من فرضه، ولتأثير الضربات العسكرية الأمريكية – البريطانية التي تعرضت لها البلاد أواخر السنة الماضية، وعوامل أخرى.

أ- الأزمة الشاملة في البلاد

أسفر نهج النظام الدكتاتوري المتعارض مع مصالح الشعب والمقامر بمصائره، عن سقوط البلاد في أزمة عميقة، سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية. وظلت هذه الأزمة تتفاقم مع تفاقم الإرهاب وإصرار الحاكمين على سياستهم الاقتصادية المدمرة، ومع فروض الحصار الاقتصادي الدولي واستمراره، حتى تحولت الى أزمة عامة شاملة تطحن الشعب وتستنزف قوى البلاد وطاقاتها.

١- السياسة الاقتصادية للنظام والمعاناة المعيشية للشعب

شهدت الفترة الماضية اشتداد المحنة الحياتية والمعيشية لشعبنا، الناجمة عن بقاء الدكتاتورية متسلطة على البلاد، وعن الخراب الواسع الذي ألحقته حروبها ضد الجيران (إيران، الكويت) وضد أبناء شعبنا بالبنى التحتية للبلاد وبقدراتها الاقتصادية، وعن استمرار الحصار الاقتصادي الظالم، وكذلك عن سياسة النظام الاقتصادية المدمرة، وتقليص ثمار تطبيق القرار ٩٨٦ عبر مختلف أساليب الغش والتلاعب والنهب من جانب النظام، وأساليب العرقلة والإبطاء من جانب الإدارة الأمريكية وبيروقراطية الأمم المتحدة.

وارتبط تفاقم الضائقة المعيشية لعامة الشعب بما أفضت إليه العوامل المذكورة من ركود اقتصادي مزمن، وشلل في حركة السوق، وتذبذب مستمر وانخفاض في سعر صرف الدينار، وتضخم متصاعد، وبطالة متسعة النطاق. وفاقمت سلطات النظام هذا الواقع المتردي بابتداع شتى الوسائل وأقساها لجباية الأموال من المواطنين الذين يعانون أصلاً من بؤس القدرة الشرائية.

ونجم هذا التوجه نحو تعزيز الموارد الداخلية للدولة، والذي تكرس بفـرض المزيد والمزيد من الضرائب والرسوم والأتاوات، عن حرمان النظام من التحكم بعائدات النفط بعد فرض العقوبات الدولية، والتضاؤل الشديد لعموم موارده المالية.

وعمدت سلطات النظام في هذا السياق الى:

* زيادة حجوم العديد من الضرائب المستحصلة، المباشرة وغير المباشرة، واستحداث المزيد منها. ونتيجة لذلك ازدادت واردات الدولة في عام ١٩٩٨ بنسبة ١٩٦% مقارنة مع عام ١٩٩٧، وبلغت نسبة الزيادة في بعض المجالات ٨٨٠%.

* زيادة حجوم العديد من الرسوم على الخدمات العامة والبلدية، وبضمنها الخدمات الصحية والتعليمية والكهرباء والماء وغيرها، وابتكار المزيد منها. وأصبح من واجب المواطن، مثلا، تسديد معظم النفقات الدراسية لأبنائه، ونسبة متزايدة من تكاليف صيانة المباني المدرسية ونفقات الهيئات التعليمية والتدريسية.

* فرض مختلف أشكال الأتاوات، والغرامات الكيفية، وإجبار المواطنين على "التبرع". ومن ذلك جباية الغرامات الكبيرة من المواطنين المكتسبين على الأرصفة ومن سائقي السيارات وغيرهم بدعوى ارتكابهم "مخالفات".

* زيادة أسعار العديد من السلع التي كانت الدولة توفرها للمواطنين بأسعار مقبولة نسبيا. وقد عمدت في الأشهر الماضية، على سبيل المثال، الى مضاعفة أسعار النفط ومشتقاته (لتر البنزين من ٥ الى ١٥ دينارا).

والى جانب تشديد الهجوم الضريبي، واصل النظام في ضوء سياسة التقشف التي دعت إليها رسالة صدام حسين الى مجلس وزرائه في كانون الأول ١٩٩٥، خفض الإنفاق الحكومي وتقليص الخدمات العامة. وكان آخر ما اتخذته حكومته على هذا الصعيد، قرارها في أيار المنصرم تخفيض الإنفاق العام بنسبة إضافية تبلغ ١٠ في المئة.

وفي أثناء ذلك، استمر تطبيق سياسة الخصخصة التي تتجلى في بيع ممتلكات قطاع الدولة في سائر ميادين النشاط الإنتاجي والخدمي الى القطاع الخاص، والتي يشكل ما يسمى "التمويل الذاتي" للمؤسسات الحكومية شكلا أوليا من أشكالها. وتهدف الخصخصة، بجانب تحقيق موارد ووفورات مالية لخزينة الدولة، الى ترميم القاعدة الاجتماعية للنظام. فمن المعروف أن المنشآت والتجهيزات والمعدات تباع الى أعوان السلطة وأزلامها قبل غيرهم، وبأسعار منخفضة تقل أحيانا بنسبة ٣٠% عن قيمتها الحقيقية.

كذلك استمر دعم القطاع الخاص وتحرير التجارة من التقييدات الحكومية، فجرى

تنشيط سوق بغداد للأوراق المالية، وتأسيس المزيد من البنوك الأهلية، ومنح القطاع الخاص إعفاءات ضريبية، والمباشرة بإنشاء مناطق حرة، وغير ذلك.

واقترن ذلك كله ببقاء أسعار السلع الضرورية والكثير من المواد الغذائية مرتفعة بسبب عدم تحسن قيمة الدينار، بل وتدهور سعر صرفه حتى تجاوز في الربيع الماضي ولأول مرة منذ عام ١٩٩٧ حاجز ألفي دينار مقابل الدولار الواحد، وبسبب تغييب الرقابة على الأسعار، وارتفاع هوامش ربح الوسطاء الطفيليين، وغير ذلك. كما نجم ارتفاع الأسعار عن العديد من الإجراءات الاقتصادية سابقة الذكر، والتدابير الأخرى ومنها السماح بتصدير المواد الغذائية والمواد الأولية الضرورية للصناعات المحلية. ومن المتوقع أن تتأثر الأسعار سلبا كذلك بحالة الجفاف في السنة الحالية التي أدت الى انتكاسة حادة في الإنتاج الزراعي، وانخفاض حجم المحاصيل الرئيسية بحوالي ٥٠% مقارنة بالسنة الماضية.

هذا في حين بقيت رواتب وأجور العاملين لدى الدولة على حالها عمليا، وعجزت "الزيادات" التزويقية في مخصصات بعض فئات العاملين، والتي يجري الإعلان عنها في أحيان متباعدة، عن وقف الانخفاض المتواصل لقيمتها الحقيقية، الناجم عن استمرار التضخم وتصاعد تكاليف المعيشة.

وأدت التوجهات الاقتصادية المشار إليها والعديد من التدابير الجديدة المتخذة في هذا المجال، ومنها تعديل قانون الإيجار، الى تعميق الركود الاقتصادي وإغلاق مئات المعامل الصغيرة والورش الإنتاجية وغيرها، في بغداد وحدها. وهو ما أضاف أعدادا كبيرة جديدة من المواطنين القادرين على العمل الى جيش العاطلين الهائل المتسع.

ويرتبط بسياسات النظام عموما وبعواقبها، استشراء الرشوة والفساد في جميع مفاصل الدولة وأجهزتها ومؤسساتها دون استثناء، وبضمنها مؤسسة القضاء. ويسهم هذا بدوره في استنزاف الموارد بالغة الشحة للمواطنين، التي تتآكل – بين أسباب أخرى – بفعل إيقاف الدعم الحكومي وإلغاء بعض المزايا والإعفاءات الممنوحة سابقا لفئات مختلفة من السكان.

لقد أسفر هذا التطور بمجمله عن المزيد من تدهور الأحوال المعيشية والمصاعب الحياتية لعامة أبناء الشعب. كما أفضى الى تعميق التفاوت الاجتماعي، والى المزيد من مركزة الثروة بيد مجموعات أضيق من المرتبطين وثيقا بالعائلة الحاكمة ورؤوس النظام الآخرين.

٢- استمرار الحصار الاقتصادي والتلاعب بتطبيق القرار ٩٨٦

شكل فرض العقوبات الاقتصادية من قبل الدول الامبريالية لاسيما الولايات المتحدة، في العقود الأخيرة، وسيلة لإملاء إرادتها على الدول والمجتمعات الأخرى، بذريعة معاقبة أنظمتها الدكتاتورية. غير أن التجارب أظهرت أن الشعوب لا الأنظمة، هي الضحية الأولى والمباشرة لهذا النوع من العقاب الجماعي المدان.

وذلك ما أكدته أيضا حصيلة تسع سنوات من الحصار الاقتصادي المفروض على العراق، والذي دفع شعبنا ويدفع ثمنه باهظا في معاناته الإنسانية المتعاظمة، وفي الأضرار الهائلة التي لحقت بالقاعدة الاقتصادية للبلاد، وفي إهدار وتعطيل عموم قواها وقدراتها، لاسيما البشرية، وفي ما خلفت من آثار مخربة في النسيج الاجتماعي، وما باتت تشكله من خطر على مستقبل الشعب والوطن.

ولقد كان موقف حزبنا منذ البداية الى جانب رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب، دون قيد أو شرط، وبإشراف الأمم المتحدة. والى جانب تأكيد حزبنا تمسكه بموقفه هذا، فإنه رحب بالإجراءات الموقتة الهادفة الى تخفيف معاناة شعبنا، وبضمنها القرار ٩٨٦ وتطويره اللاحق في القرار ١١٥٣.

غير أن الكثير من الآمال المعقودة على تطبيق القرارين لم يتحقق، نتيجة تلاعب سلطات النظام بالتطبيق من ناحية والعراقيل والمماطلات التي تعتمدها الولايات المتحدة وبريطانيا لكبح التطبيق، وتلكؤ الأجهزة البيروقراطية للأمم المتحدة، من ناحية ثانية.

وبالإضافة الى عدم حدوث تغير جوهري في الحصة التموينية الشهرية بمفرداتها وكمها ونوعها، والتي لا تكفي لتأمين المعدل الضروري للفرد من السعرات الحرارية والمواد المغذية، فقد عمدت السلطات الى تأخير توزيعها حينا، وحجب نسبة من بعض موادها حينا آخر، والغش في نوعياتها واستبدال الجيد من المواد المستوردة وفق القرار ٩٨٦ بأخرى غير صالحة من خزين النظام الاستراتيجي. كما أنها لم تتورع عن استخدام الحصة سلاحا ضد فئات غير قليلة من أبناء الشعب الذين تعتبرهم غير موالين لها.

ومن ذلك يتبين أنه لم يطرأ سوى تحسن محدود نتيجة تطبيق القرار ٩٨٦، في الحصة التموينية. وفي هذا يتجلى التوافق بين رغبة النظام من جانب، والقرار الأمريكي باستمرار الحصار من جانب آخر. فالنظام يؤيد في الواقع العملي الإبقاء على الحصار الاقتصادي ما لم يرفع عنه بالكامل، كي يبقى يتحكم بالشعب المستنزف بفعل هذا الحصار، ويتاجر بمآسيه وعذاباته.

على صعيد آخر، أدخلت السلطات اعتبارا من أول السنة الجارية، وعلى مرحلتين، زيادة جديدة على سعر الحصة (من ١٠٥ الى ٢٥٠ دينارا) تتيح لها الاستحواذ على أكثر من ملياري دينار إضافيين شهريا من المواطنين. فيما كشف الأمين العام للأمم المتحدة عن عدم توزيع النظام كميات كبيرة من الأدوية والمعدات الطبية، ومن الأجهزة والمعدات الخاصة بتأمين مياه الشرب وبإعادة تأهيل شبكات الصرف الصحي، إضافة الى تجهيزات خاصة بالمدارس، وهو ما تم توريده جميعا في إطار القرار ٩٨٦.

وفي موازاة ذلك جهدت الولايات المتحدة لعرقلة تنفيذ مراحل تطبيق القرار ٩٨٦ المختلفة، عن طريق المماطلة في تصديق العقود التجارية، والتعمد في تأخير وصول المواد المتعاقد على توريدها الى العراق، وغير ذلك. ونتيجة لهذا لم تتخط نسبة تنفيذ المراحل الخمس الأولى في تطبيق القرار ٥٠ - ٩٠ في المئة.

لقد أكد حزبنا تكرارا أنه حتى لو تم تطبيق القرار ٩٨٦ بالصورة المثلى، فإنه ليس ولا يمكن أن يكون بديلا لرفع الحصار الاقتصادي عن الشعب تماما. وهذا يبقى، الى جانب إدانة وتشديد العقوبات السياسية والدبلوماسية والعسكرية المفروضة على النظام، والعمل على تفعيل القرار ٦٨٨ الخاص بحقوق الإنسان في العراق، مهمة نضالية أساسية.

وعلى هذا الطريق طالب حزبنا أيضا ويطالب بإلغاء تجميد الأرصدة العراقية في الخارج، للإفادة منها - تحت إشراف الأمم المتحدة - في تخفيف معاناة الشعب الغذائية والدوائية، وفي تحريك الدورة الاقتصادية في البلاد. وطالب أيضا بإعادة النظر في النسبة العالية جدا (٣٠ في المئة) من عائدات النفط العراقي المصدر، المخصصة لتعويض المتضررين من الغزو الصدامي للكويت.

٣- تدهور واقع المجتمع وتفاقم مشكلاته

انجلت سياسة النظام وإجراءاته في الميدان الاقتصادي، وعموم نهجه الرامي الى إدامة الحكم الدكتاتوري، الى جانب عواقب الحصار الاقتصادي، عن تغييرات سلبية في واقع المجتمع، وتشويهات في بنيته وحياته، وتفكك في النسيج الاجتماعي والعائلي، وتصدع لنظام القيم الاجتماعية والأخلاقية، وانتعاش للروابط التقليدية والولاء القبلي.

والى جانب تآكل ما تبقى من الفئات الوسطى، استمر التدهور في أوضاع الطبقة العاملة، واشتد استغلالها في ظل تعطيل قوانين العمل وتغييب الضوابط والرقابة على أرباب العمل، وبضمنهم المؤسسات والمنشآت الحكومية. وتسرب عشرات الآلاف من

منتسبيها الى مشاريع هامشية غير منتجة بفعل التوقف الكلي أو الجزئي لآلاف المشـــاريع الاقتصادية. كما تدهورت أوضاع الكادحين الآخرين وعموم ذوي الدخل المحـــدود مـــن الموظفين والمستخدمين وغيرهم.

وفي مقابل ذلك تنامت فئة من أعوان النظام الذين تجري رعايتهم وتسمينهم ومنحـــهم الامتيازات الكبيرة، بهدف إحكام ربط مصائرهم بمصيره.

واحتلت المرأة بشكل خاص موضع الصدارة بين ضحايا هذه التطـــورات بمجملـــها، حيث أصبحت هدفا لاضطهاد واستغلال مركبين، وهي تضطر الى إعالة أبنائـــها، وتلجـــأ من أجل ذلك في أحيان كثيرة الى ممارسة أعمال شاقة، وماسة بكرامتها كإنسان وكـــامرأة. كما واجهت وتواجه العنف الاجتماعي ومختلف مظاهر الفساد والإفساد.

وتعرض المثقفون الى المزيد من الاضطهاد والقمع والتشـــريد. وأدى ذلـــك بجـــانب الكبت والإفقار المنظمين للثقافة، الى تردي الحياة الثقافية والروحية الـــى أبعـــد الحـــدود، وازدياد هجرة المثقفين، كتابا وصحفيين وغيرهم، الى الخارج.

ومن ناحية أخرى، وفضلا عما جرت الإشارة إليه من اتساع نطاق البطالة الســـافرة والمقنعة وشمولها ملايين المواطنين، أدى الركود الاقتصادي والإفقـــار المتواصـــل الـــى المزيد من انتشار الفاقة والبؤس في صفوف المجتمع.

واقترن ذلك بتدهور شديد في الأوضاع الصحية وأوضاع التعليم، مما أفضـــى الـــى انبعاث حتى البعض من الأمراض الخطيرة التي سبق القضاء عليها، والى عـــودة الأميـــة التي كان قد أعلن في أواخر السبعينات عن تصفيتها، الى الظهور والانتشار، كما تفـــاقمت الأضرار التي تلحق بالبيئة، واشتد تلوثها – هواء وماء وتربة، بفعل الإجراءات المستهترة من جانب السلطة، وبضمنها تجفيف الأهوار، ونتيجة لإهمالها المريع ولامبالاتها البالغـــة إزاء التدهور الشديد في عموم الوضع البيئي في البلاد.

واضطر تفاقم البؤس أعدادا كبيرة جدا من المواطنيـــن الـــى بيـــع آخـــر مقتنياتـــهم وحاجياتهم الضرورية، وحتى الأطراف والأعضاء الجسدية أحيانا. كما أدى الـــى اتســـاع نطاق التسرب من المدارس والمعاهد والجامعات، وانتشار عمالـــة الأطفـــال، والتســـول، والدعارة، وتنامي الاستغلال متعدد الأشكال للأطفال والأحداث مـــن الجنســـين، وســـقوط الكثيرين منهم في هاوية الفساد والجنوح والجريمة.

وفي هذه الأجواء أيضا استشرت الجريمة بمختلف أشكالها، وتنامت الجريمـــة المنظمـــة خاصة، التي تحولت الى ظاهرة مقيمة، تجسدها قبل كل شيء سرقة ونهب ممتلكات الدولـــة

ومؤسساتها وثروات الشعب وخيرات البلاد، وتهريب الآثار والمعادن وغيرها الى الخـــارج، من جانب مافيات العائلة الحاكمة وبطانتها. كما تتجلى في ابتزاز الناس ومســـاومتهم علـــى أمنهم وكراماتهم وأعراضهم وحتى أرواحهم، من طــرف كبـار المســؤولين والعصابــات المرتبطة بهم وبالأجهزة الأمنية. والى جانب ذلك أصبحت ظاهرة الرشوة والفســاد الإداري سمة ملازمة لوجود أجهزة الدولة ومؤسساتها، ومسممة لحياة المجتمع كله.

واستفحلت أزمة السكن بصورة لا سابق لها، وشهد العراق لأول مـــرة منـــذ عقـــود طويلة طرد أعداد متزايدة من العائلات من مساكنها المملوكة للدولة، والتي يجري من ثـــم بيعها في المزادات العلنية (للأعوان أيضا وبأثمان بخسة نسبيا) بدعوى "تحقيق وفـــورات لخزينة الدولة"! أو من منازلها المستأجرة التي يرفع مالكو العقارات إيجاراتها في حـــالات غير قليلة، فتعجز العائلات عن الدفع!

وشهدت أوضاع عموم المواطنين الصحية والنفسية والحياتية مزيدا من التدهور فـــي السنتين الماضيتين بفعل اشتداد أزمة الكهرباء والماء، لاسيما في موسم الصيف، وهو مـــا يتحمل الحكم جزءا أساسيا من مسؤوليته. ويظهر ذلك بوضوح أكبر في الصيف الحـــالي، ارتباطا بالشحة الاستثنائية للمياه هذه السنة.

على صعيد آخر، ونتيجة لاستمرار أجواء الإرهـــاب وتفاقمـــها والاشـــتداد المتواصـــل للضائقة المعيشية والمعاناة الحياتية، استمرت في الفترة الماضية هجرة أبناء الشعب الواســـعة الى الخارج، خاصة من جانب منتسبي فئات الأكاديميين والخريجين والفنيين. الأمـــر الـــذي زاد من استنزاف قدرات شعبنا الفكرية والعلمية والتكنولوجية، وقدم دليلا إضافيا على قتامـــة الغد الذي ينتظر بلادنا، في حال بقاء الدكتاتور وزمرته متسلطين عليها.

لقد أمعن الحكام الدكتاتوريون في تجاهل معاناة الجماهير الشـــعبية، وفـــاقموا هـــذه المعاناة بإصرارهم على نهجهم وسياساتهم المعروفة. ووضع ذلك كله البلاد في مســـتهل طور جديد من الاحتقان الاجتماعي والسياسي، وأدى الى اشتداد الأزمة الشـــاملة للنظـــام نفسه.

ب- تفاقم أزمة النظام

لم تكن سياسات النظام في الميادين المختلفة السبب في نشوء واشتداد الأزمة العامـــة في البلاد فحسب، بل كذلك في تنامي وتفاقم الأزمة متعددة الأوجه للنظام نفســـه، والتـــي تعود بدورها فتعمق أزمة البلاد في كل حين.

وتتجلى أزمة النظام في ازدياد تمركز السلطة بيد مجموعة متضائلة من العائلة الحاكمة، واستمرار تنامي الصراعات بين أطرافها والتناقضات داخل الحكم عموما. كما تتجلى في التآكل المتواصل لقاعدة النظام الاجتماعية، وهو ما يسعى رؤوسه لوقفه من جانب، ولترميم القاعدة ذاتها من جانب آخر. ومن أجل ذلك يمنحون الهبات والمكافآت المالية والامتيازات المتنوعة والتسهيلات الاقتصادية والإدارية الى الفئات التي تتكون منها قاعدتهم، وبضمنها كبار منتسبي أجهزتهم ومؤسساتهم الحزبية والأمنية والعسكرية.

وفي هذا السياق يدفع النظام، مثلا، مكافآت ثابتة في ١٣ مناسبة سنويا الى أعضاء "اتحاد الصداميين" و"رابطة أصدقاء صدام" الذين يحملون أوسمته ونياشينه. وهي تتراوح في مجموعها بين ربع مليون، ومليون ونصف المليون دينار.

ويعكس هذا الواقع، بحد ذاته، المدى الذي بلغته العزلة الداخلية للنظام، وتعمق قطيعة الشعب معه، واتساع الرفض الجماهيري لنهجه الاستبدادي الدموي. وهو ما تكمله عزلته الشديدة على الصعيدين العربي - الإقليمي والدولي.

وهناك أيضا التردي المتواصل لأحوال أجهزة النظام، لاسيما الحزبية، التي تفقد أكثر وأكثر القدرة والكفاءة والأهلية، وتتداعى معنويات منتسبيها وبضمنهم المسؤولون فيها، وتعجز حتى جهود رأس النظام شخصيا (الذي انخرط في لقاءات يومية مباشرة مع هؤلاء المسؤولين اعتبارا من ٩ حزيران ١٩٩٩) عن وقف هذه العملية أو تعويض ما يتآكل خلالها. وينعكس هذا بوضوح في استمرار انسلاخ أعداد متزايدة من أعضاء الحزب، كما من أبناء القوات المسلحة، وابتعادهم عن النظام وأجهزته - وهي ظاهرة تستحق المزيد من الاهتمام.

لكن تنامي استعداد الجماهير للكفاح وتزايد انخراطها في أعمال المقاومة المباشرة، هو أكثر ما يقلق رؤوس النظام، ويدفعهم الى اتخاذ شتى التدابير المضادة، واعتماد التوجهات الرامية الى تطويق أزمة نظامهم وتصريفها.

١- تصاعد المقاومة الجماهيرية

دفع الإرهاب الدموي المنفلت في الداخل، ونهج المناورة والمغامرة الخطير في اتجاه الخارج، الى جانب الإجراءات التعسفية في الميدان الاقتصادي وما نجم عنها من تزايد المعاناة المعاشية للجماهير، دفع ويدفع المزيد من أبناء الشعب الساخطين الى التعبير عن رفضهم وتحديهم للنظام، والى مد يد العون الى من ينفذون العمليات الكفاحية ضد أزلامه

ومواقعه، وحتى المشاركة المباشرة فيها.

وشهدت سنة ١٩٩٨ تنامي المقاومة الجماهيرية في أهوار وأرياف المحافظات الجنوبية: العمارة والناصرية والبصرة، التي حظيت بنصيب استثنائي من البطش والتنكيل والتقتيل والسبي على يد الحكام. كما شهدت تزايد العمليات الجريئة ضد رموز السلطة وجلاوزتها، وبضمنها محاولة اغتيال عزت الدوري في كربلاء.

غير أن الواقع الجديد هذا لم يبرز بوضوح إلا في الأشهر المنقضية من السنة الجارية، غداة العدوان الأمريكي – البريطاني في كانون الأول الماضي، ثم خصوصا إثر جريمة اغتيال السيد محمد صادق الصدر بعد شهرين من ذلك.

وجاء التفجير الجزئي لخزين السخط الجماهيري العارم، ردا على إجراءات النظام الهستيرية التي ازدادت قساوتها وعنفها إثر الضربات العسكرية، التي تعرضت لها مواقع النظام وبعض مفاصله في عمليات "ثعلب الصحراء"، ثم في غارات الاستنزاف منذ بداية العام، وفي أعقاب ازدياد التدهور في علاقات النظام العربية والدولية، بفعل السلوك العدواني والمتغطرس للزمرة الحاكمة إزاء بعض الدول العربية والمجتمع الدولي في الأسابيع التالية. يضاف الى ذلك اشتداد عزلته الداخلية، الأمر الذي ظهر واضحا تماما في ردود فعل الشارع على جريمة الاغتيال سابقة الذكر.

وأدى هذا كله، من جانب، الى هزة في معنويات أعوان السلطة وأجهزتها الحكومية والحزبية وتشكيلاتها المسلحة، ومن جانب آخر الى مزيد من تحفيز روح الكفاح لدى أبناء الشعب، خاصة جماهير الشبيبة والطلبة، ورفع استعدادهم لتحدي النظام. وهو ما اتخذ ملامح نوعية جديدة عكستها أحداث مدينة الثورة وغيرها في شباط، والمواجهات في الكوت والعمارة وهبة البصرة في آذار، والصدامات الدامية التي شهدتها مدينة الثورة مرة أخرى في أواسط نيسان، وضرب مواقع السلطة في الكوت أواخر أيار، والهجوم على المواقع المماثلة والتصدي لعصابات النظام في الرميثة في حزيران وتموز، وفي الكثير من العمليات الأخرى التي جرت خلال ذلك ضد أزلام السلطة في كربلاء والنجف ومدن الفرات الأوسط الأخرى كالديوانية والسماوة والحمزة، والعديد من التحركات المتحدية في مدينة الفلوجة وفي أحياء الشعب والأمين والأعظمية والشعلة والعامل ببغداد.

وتجلى الجديد خصوصا في:

١- شمول المقاومة الشعبية أنحاء واسعة من الوطن.

٢- استمرارها على امتداد أشهر متتالية وحتى الآن.

٣- وضوح طابعها الوطني العام المعادي للدكتاتورية.

٤- التصدع في جدار الخوف من وحشية السلطة.

٥- تحسن مستوى التنسيق والتنظيم في إعداد وتنفيذ الفعاليات الجماهيرية، وهو ما ظهر خصوصا في هبة البصرة. ولعل هذا بالذات ما أثار أشد مخاوف الزمرة الحاكمة، واستثار ردها الدموي ضد المنتفضين وعائلاتهم، وترويع جماهير البصريين بصورة عامة.

ومما له دلالته في هذا السياق أن نضال الجماهير المتصاعد يجتذب أعدادا متزايدة من العسكريين الناقمين على الحكم والحكام، بل وحتى البعض من منتسبي حزب السلطة الذين يزدادون إدراكا لحقيقة أن نهاية النظام تقترب، من جانب، ولا يرتضون لأنفسهم من جانب آخر، أن يبقوا سياطا بيد الدكتاتور يجلد بها جماهير الشعب ويسحق إرادتها.

على أنه ينبغي القول إن النظام، وهو يفتقد الوسائل القادرة على حمايته من الهجمات المسلحة الخارجية وغارات الاستنزاف المتواصلة، مازال يتوفر على ترسانة عسكرية، يعول عليها في مواجهة الجماهير وفي قمع أي تحرك شعبي أو مقاومة مسلحة.

ومع هذا فإن مسار الأحداث والتطورات لا يصب في مصلحة النظام، الذي تزداد التناقضات داخله، ويعجز عن إيجاد مخرج من المحنة التي تسحق الشعب والوطن. ومن الجلي أن آفاقا أرحب تنفتح لمحاصرته وتشديد الخناق عليه وإسقاطه، خاصة إذا ما وحدت قوى المعارضة الوطنية نشاطها وارتقت به، وعززت علاقاتها مع جماهير الشعب والجيش الناقمة على النظام.

٢- محاولات تطويق الأزمة

*** تشديد وتائر الإرهاب**

أطلقت سلطات النظام في إطار سعيها لمواجهة السخط المتنامي في أوساط جماهير الشعب، الحملة الوحشية التي عرفت باسم "تنظيف السجون"، وأجهزت فيها اعتبارا من خريف ١٩٩٧ على المئات والمئات من أبناء الشعب المسجونين لأسباب سياسية، وفي أغلب الحالات بتهمة المشاركة في انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة. وفي الوقت نفسه واصلت حملات إعدام المعارضين أو المشكوك في ولائهم من المواطنين العسكريين والمدنيين، ومن رافضي الخدمة العسكرية والهاربين من الجيش.

كذلك لم يتورع الحكام، والقلق من تصاعد النقمة الشعبية يشتد في صفوفهم، عن

مباشرة حملة تصفيات جسدية لرجال الدين الذين يعارضون النظام بصورة أو بـأخرى، أو يرفضون وضع أنفسهم في خدمته، وهي الحملة التي بلغت ذروتها في اغتيال السيد الصدر في شباط المنصرم.

واستمر أثناء ذلك تصعيد العسف والبطش بسائر أشكالهما الأخرى المعهودة، في ظل حالة الطوارئ التي بقيت مفروضة عمليا طيلة السنتين الفائتتين، وفي أجواء الاستنفار الشامل في صفوف الأجهزة الأمنية والحزبية والعسكرية. وجرى تطويق المدن بالقوات المسلحة باسم تطبيق الخطط الأمنية، وحوصرت المناطق والمحتشدات السكانية وجرت مداهمة البيوت وتحريها بدعوى البحث عن العسكريين الهاربين، وكثفت عمليات استدعاء عوائل المعارضين والمقيمين في الخارج وتهديدها.

ورافقت ذلك، خاصة في أجواء تصعيد المجابهات مع الأمم المتحدة والولايات المتحدة، التي كانت السلطة توظفها في إبعاد الأنظار عن مشكلاتها الداخلية واشتداد أزمة حكمها، حملات "تعبوية" لإجبار الناس بالجملة على المشاركة في التدريبات العسكرية، بغية إرهابهم وإخضاعهم للرقابة الدائمة وإضعاف معنوياتهم واستعدادهم للكفاح ضد الدكتاتورية.

وفي الوقت ذاته اتسعت عمليات تهجير المواطنين الكرد والتركمان من كركوك بشكل خاص، ومن خانقين وبعض المدن الأخرى في محافظات ديالى والموصل وأربيل، وذلك – بين غايات أخرى – للتخلص ممن يمكن أن يساهموا في أي انتفاضة جديدة ضد النظام.

وفي أواخر ١٩٩٨ أعلنت السلطة تقسيم البلاد الى أربع مناطق أمنية – عسكرية، وتنصيب حاكم عسكري مطلق الصلاحية في كل منها. وإمعانا في تشديد الإرهاب لجأت في الأشهر الأخيرة الى احتجاز عوائل من تتهمهم بالمشاركة في عمليات المقاومة، ومصادرة ممتلكاتها، وهدم بيوتها، تماما كما كانت تفعل ضد أبناء إقليم كردستان في الثمانينات.

ويأتي إيغال الزمرة الحاكمة في تصعيد القمع، في جانب منه، نتيجة للفشل الذريع الذي حصدته ماكنتها الدعائية، في جهدها الهائل لتضليل أبناء الشعب وتبرير سياسات النظام المدمرة، والعاجزة عن الخروج بالشعب والبلاد من الهاوية التي دفع بهما الى قرارها.

* المساعي الرامية الى فك العزلة

بذل النظام ويبذل جهودا متواصلة متعددة الأشكال، لتخفيف وكسر العزلة الشديدة التي يعانيها في الداخل والخارج.

فعلى الصعيد الداخلي لم تكف السلطات يوما أو تخفف من حملاتها التضليلية الكثيفة ومناوراتها السياسية الخبيثة، الرامية الى إشاعة الأوهام في صفوف جماهير الشعب وحتى في أوساط الرأي العام العربي. وليس صدفة أنها تعود اليوم، وآفاق نظامها تتلبد أكثر وأكثر، الى الحديث على لسان أعوانها هنا وهناك عن "الانفتاح" وإطلاق "التعددية" في البلاد و"الحوار" مع بعض الأطراف السياسية المعارضة، وتدعو عبر بعض المنابر الإعلامية العربية الى إعطائها مهلة سنة لا أكثر، كي تنقل العراق من دكتاتورية صدام حسين الى "ديمقراطية" صدام حسين!

والى جانب ذلك واصلت فعاليات الدعاية والخداع المختلفة، من قبيل "الحملة الإيمانية" المنافقة التي جرى إطلاقها بهدف تسخير الدين لخدمة النظام.

وعلى الصعيد الخارجي لم تتوقف السلطات عن المتاجرة بآلام أبناء الشعب ووفيات الأطفال، وغيرها من مظاهر الوضع المأساوي، الذي يتحمل النظام جزءا أساسيا من مسؤوليته، وذلك بهدف كسب التعاطف العربي والدولي مع النظام ورأسه، وإعادة تأهيلهما وفك عزلتهما.

ومن أجل ذلك أيضا قامت بمساع متواصلة وحثيثة للإفادة من علاقاتها مع روسيا وفرنسا والصين في استصدار قرار من مجلس الأمن، يلغي العقوبات الدولية ويعيد - بين أمور أخرى - تأهيل النظام وتطبيع العلاقات معه.

* المؤسسة العشائرية ومحاولات إحيائها

عمل النظام، في مواجهة تردي أوضاع الأجهزة الحزبية والحكومية وتزايد عجزها عن النهوض بواجباتها، على بعث المؤسسة العشائرية والإفادة منها في توسيع قاعدته الاجتماعية، واستخدامها في تحقيق مهمات دعائية وأمنية وسياسية.

غير أن هناك من الدلائل ما يشير الى تعثر هذه الجهود، ودخول سياسة إحياء المؤسسة المذكورة في مأزق. ويبدو الآن أن النظام بات يضيق ذرعا بها. فالتناقضات التي أثارتها سياسة الإحياء ذاتها عطلت قدرة المؤسسة العشائرية على تأدية الوظائف المرتجاة منها، بل وجعلتها تشكل في أحيان غير قليلة، مصدر تحد وتهديد للنظام. وقد

شهدت مناطق مختلفة من الوطن وتشهد بالفعل صراعات مسلحة تخوضها بعض العشائر ضد أجهزة السلطة، رغم كل الجهود المبذولة لوضع حد لها.

٢- على الصعيد الخارجي

طبع التأزم والاستعصاء العلاقة بين النظام الدكتاتوري من جهة، والأمم المتحدة والولايات المتحدة من جهة ثانية، في السنتين الماضيتين أيضا. وجاء ذلك، في الأساس، نتيجة لتشبث كل من الجانبين بمواقفه السابقة المعروفة من قضية العقوبات، وفي مقدمتها الاقتصادية.

فالنظام بقي يصر على استصدار قرار من مجلس الأمن برفع الحصار الاقتصادي عنه، بما يمكنه من الاستحواذ مجددا على العائدات النفطية والتحكم في إنفاقها، مدعيا أنه نفذ قرارات المجلس ذات الصلة بصورة كاملة.

ومجلس الأمن الذي تتمتع الولايات المتحدة بنفوذ غالب فيه، ظل يصر من جانبه على عدم الخوض في موضوع رفع الحصار الاقتصادي، قبل التأكد تماما من تدمير النظام أسلحته المحظورة. فالولايات المتحدة التي تظهر اليوم، بتأييدها المشروع البريطاني – الهولندي المعروض على مجلس الأمن، استعدادا للموافقة على تجميد الحصار الاقتصادي موقتا، رفضت حتى الآن بتعنت كل حديث عن إنهائه. كما استغلت موقعها في أجهزة الأمم المتحدة، لعرقلة تنفيذ ما يترتب على المنظمة العالمية من التزامات مقابلة إزاء العراق.

وظلت الولايات المتحدة تتلقف الخطوات التصعيدية وافتعال المجابهات من جانب النظام، وتطلق التصريحات المتشددة وتهدد بفرض عقوبات جديدة على النظام وما الى ذلك. ثم تستثمر الإمعان المقابل في التصعيد، للتلويح بالهراوة العسكرية وحشد الأساطيل والقوات الضاربة لإرهاب المنطقة برمتها.

وفي حين بقيت الأطراف كافة في الساحتين الدولية والإقليمية، تجمع على وجوب تنفيذ النظام جميع القرارات الدولية ذات الصلة، فإن اختلافات نشأت حول سبل التعامل معه لإجباره على ذلك.

وبعكس الولايات المتحدة، ومعها بريطانيا، دعت فرنسا وروسيا والصين، بتأثير من مصالحها الاقتصادية، الى استخدام الحوار السياسي للوصول الى ذلك، وحثت حتى على

تخفيف الحصار المفروض على النظام، كمكافأة على تنفيذه الجزئي قرار تدمير أسلحته المحظورة.

وقد وضع التصعيد الصدامي - الأمريكي المتبادل شعبنا وبلادنا، أكثر من مرة، في خضم ظروف عصيبة ومخاطر جسيمة. ولعبت الضغوط الدولية والعربية، خلال ذلك، دورها في كبح المجابهات وإطفائها. إلا أنها أخفقت في ذلك في كانون الأول ١٩٩٨، عندما رفضت الزمرة الحاكمة التراجع، وفتحت بذلك عن سبق إصرار الأبواب أمام قوى العدوان المتأهبة. وبدا واضحا أنها (الزمرة) كانت تضع في حسابها أن يدفع الشعب والبلاد الثمن الباهظ للعدوان، وأن تخرج هي وحكمها منه ومن تداعياته أقوى وأقدر على مواجهة المخاطر الداخلية والخارجية المحيقة بها.

لكن التطورات اللاحقة دلت على خطل حساباتها تلك، وعلى قصر نظر سياسي جعلها توفر أيضا الذرائع للتحالف الأمريكي - البريطاني، كي يطلق بعيد ذلك سلسلة غارات الاستنزاف في مناطق الحظر، التي لا تكاد تجد نهاية منذ بداية السنة الحالية.

وفيما بينت ردود الفعل الدولية والعربية، أن هناك رفضا عاما تقريبا للخيار العسكري والعربدة الأمريكية، ولازدواجية سياسة واشنطن ومحاولاتها الانفراد والهيمنة، فإنها اتسمت في الآن نفسه وأكثر من أي وقت مضى، بالتمييز في شعاراتها بين الشعب العراقي والنظام الدكتاتوري. وعكست الفعاليات الاحتجاجية في الشارع العربي الى حد كبير، مشاعر التضامن مع العراق كيانا وشعبا وسيادة وطنية، لا مع الحكام المتسلطين عليه، كما عبرت عن رغبة صادقة في تخليص الشعب العراقي من الحصار الاقتصادي، وفي الحفاظ على ما تبقى له من ثروات وبنى تحتية، وعن التعاطف مع تطلعه للخلاص من الدكتاتورية.

ولا ينفي هذا بالطبع أن أوساطا معينة ظلت تعاني حالة تداخل وتشوش، وأن البعض عبر عن تأييده لصدام حسين دون اكتراث باستبداده ودمويته وجرائمه بحق شعبنا.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الأوساط التي تعاطفت مع شعبنا، وعبرت عن الاستعداد لمد يد العون إليه، وحملت النظام مسؤولية معاناته، لم تمنح واقع مصادرة الديمقراطية والانتهاك البشع لحقوق الإنسان من قبل النظام، الاهتمام الكافي، ولم تندد به.

لكن الحكام أحبطوا في الجوهر، بتصرفاتهم الرعناء وبعدوانيتهم حتى إزاء بعض من تعاطف معهم، أحبطوا بأنفسهم آمالهم في الإفادة من الاحتجاجات على العدوان في تعزيز مواقعهم وفك عزلتهم العربية والدولية.

ويتعرض نظامهم اليوم الى الانتقاد الظاهر والمستتر من جانب دول عربية عديدة، تحمله مسؤولية ما حل بالشعب العراقي، وتعتبر بقاءه مصدر قلق وعدم استقرار لها وللمنطقة. لذلك تؤيد بصورة أو بأخرى تغييره، رغم أنها لا تعلن عن ذلك لاعتبارات عديدة، وتتباين في نظرتها الى طرق الخلاص منه، وفي موقفها من التعامل مع المعارضة العراقية وكيفيته ومداه.

وقد أدى عموم سلوك النظام، في النهاية، الى إدامة حالة الاستعصاء في علاقته مع الأمم المتحدة، وهي الحالة التي يبقى شعبنا لا غير المتضرر الرئيسي منها.

ويحدث هذا فيما تصاغ مشاريع متضاربة من جانب قوى دولية فاعلة متضادة، لتجاوز الجمود في قضايا التفتيش عن الأسلحة، ومسألة تخفيف الحصار، ومعاناة شعبنا وغيرها. وأيضا في الوقت الذي يستمر فيه التصعيد في الموقف الأمريكي – البريطاني تجاه النظام، والانفتاح إزاء خطط التغيير في العراق، التي ظهرت في الآونة الأخيرة إشارات الى تقبل بعض دول الجوار لها.

وتجدر الإشارة في هذا الشأن الى أن علاقات النظام مع كل من إيران وتركيا تدهورت في الفترة الأخيرة، وبدأت تظهر إشارات حذرة الى إمكان تأييد الدولتين التغيير في العراق.

وتختلط المخاوف التي تثيرها التطورات المذكورة جميعا في نفوس الزمرة الحاكمة، بمخاوفها الأكبر من أن تكون "حرب البلقان" في ناحية منها تمرينا للقيام بهجوم أوسع ضد حكمها، وهو ما لا تعدم الدلائل التي تبرره.

الموقف الأمريكي

حصدت سياسة الاحتواء التي اعتمدتها الولايات المتحدة رسميا إزاء العراق منذ عام ١٩٩١ (وسميت "الاحتواء المزدوج" بسبب شمولها إيران كذلك) مزيدا من الرفض والتنديد في الفترة الماضية. فقد أدت في حصيلتيها السياسية والاقتصادية الى إثقال كاهل شعبنا وتشديد معاناته، وأتاحت للنظام – رغم ضعفه واهتزازه – البقاء بالاعتماد على أكثر أساليب الإرهاب وحشية ضد الشعب وقواه الوطنية.

وسلط تواتر المجابهات العسكرية مع النظام في هذه الفترة، مزيدا من الأضواء على السياسة الأمريكية عموما إزاء العراق، وكشف طابعها المتناقض. وتزايد الانتقاد خلال ذلك لتعامل الإدارة الأمريكية الانتقائي والازدواجي مع الشأن العراقي وحقوق ومصالح

الشعب العراقي، خاصة ما يعانيه جراء الحصار الاقتصادي المفروض عليه.

وتصاعدت في أعقاب ذلك أصوات داخل الولايات المتحدة، تدعو لإعادة النظر في سياسة الاحتواء، باتجاه التشديد مع النظام واستخدام القوة لإسقاطه. وعبر عدد من المسؤولين الأمريكيين الكبار علنا عن رغبة الإدارة في واشنطن في رؤية صدام حسين يرحل عن السلطة، واستعدادها للتعامل مع حكومة تأتي بدلا عنه في بغداد.

وفي تشرين الأول ١٩٩٨ أجاز الكونغرس "قانون تحرير العراق"، الذي وقع الرئيس كلينتون عليه في آخر الشهر نفسه. واعتبر ذلك عموما بداية انتقال السياسة الأمريكية تجاه النظام من مرحلة الاحتواء والإضعاف، الى مرحلة المواجهة في اتجاه التقويض والإسقاط.

ولا يمكن بالطبع عزل العدوان العسكري في كانون الأول الماضي عن الخطة الستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة، التي أعلن أنها ترمي الى إضعاف النظام وتقويض مرتكزاته لتسهيل مهمة إطاحته. كما لا يمكن النظر بمعزل عن هذه الخطة الى غارات الاستنزاف، التي تشنها الطائرات الأمريكية والبريطانية في مناطق الحظر الجوي بصورة شبه يومية منذ مطلع العام الجاري، والتي تستهدف عمليا إدامة الضغط العسكري على النظام، والإبقاء على خيار القوة العسكرية قائما في التعامل معه، كي يمكن استخدامه ضمن أي خطة تستهدف المزيد من إضعافه، وإطاحته، وفرض البديل الملائم للولايات المتحدة.

وفي إطار الخطة أيضا صعدت الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا في الأشهر الماضية حملاتها السياسية والإعلامية على النظام. وجرى التأكيد على أعلى المستويات في الدولتين أن الحصار الاقتصادي لن يرفع مادام صدام حسين موجودا في السلطة، مع الاستعداد لتطوير برنامج المساعدات الإنسانية وفق القرار ٩٨٦ وخارجه.

غير أن الإفصاح عن حيثيات الانتقال في السياسة الأمريكية، والإعلان عن مساعدات بقيمة ٩٧ مليون دولار تقدم الى "المعارضة العراقية"، ثم نشر أسماء عدد من الأحزاب المعارضة التي يفترض أن تتسلم المساعدات - كل هذا ألقى ظلالا من الشك على حقيقة الأهداف الآنية للسياسة الأمريكية في العراق. فليس في ذلك ما يشير الى تغير في جوهر هذه السياسة، الهادفة الى توفير مناخ مناسب للإتيان ببديل يخدم المصالح الأمريكية. وهو ما يتم عبر تغيير فوقي، يضمن السيطرة على الوضع، وتأمين المصالح المذكورة ومجمل استراتيجية الهيمنة الأمريكية على العراق والمنطقة ومصادرها الاقتصادية.

وفي سياق التهيئة لذلك يجري العمل على احتواء من يمكن من قوى المعارضة، للإفادة منها كغطاء سياسي إعلامي، عند إحداث أي تغيير بمعزل عن إرادة الشعب العراقي. كما يجري بذل الجهود لاجتذاب دول الجوار وعموم المنطقة، وحشد تأييدها للستراتيجية الأمريكية إزاء العراق.

٣- المعارضة العراقية

استأثرت مسألة المعارضة وتنشيط فعالياتها ضد النظام الدكتاتوري باهتمام كبير من لدن الحزب.

فحالة التشتت التي تعانيها القوى المعارضة، وغياب الصيغ الفعالة لتنسيق نشاطاتها المناهضة للدكتاتورية، بما يرتقي بها ويطورها، شكلا ويشكلان مصدر قوة أساسيا للنظام، وعاملا رئيسيا في بقائه، وفي استمرار وتفاقم المحنة التي تعصف بالشعب وبالبلاد.

والمؤسف والمحزن أن نداءات أبناء الشعب لتحقيق التعاون بين أطراف المعارضة، لم تجد حتى الآن التجاوب الضروري من هذه الأطراف، لاسيما الفاعلة منها.

وقد بادر حزبنا في أوقات المجابهات بين النظام والأمم المتحدة، والتطورات المرتبطة بتنامي المواجهات بين الجماهير والسلطة وغيرها من المناسبات، الى الإسهام في تحريك أجواء المعارضة. إلا أن ما تمخض عنه ذلك من نتائج في شأن التعامل المشترك مع التطورات المذكورة، كان متواضعا، كما أنه لم يتطور في ما بعد الى اتفاق للتعاون التنسيق.

وكان حزبنا قد أطلق في هذا السياق، مشروعه الوطني الديمقراطي الذي أقره المؤتمر الوطني السادس، والذي حظي بتفهم وقبول واسعين من لدن أغلبية ممثلي أحزاب المعارضة وقواها، والعديد من الشخصيات المستقلة. إلا أنه اصطدم بالمعوقات ذاتها التي حالت دون التوصل الى اتفاق مشترك.

وتوجهت مبادرات الحزب كذلك نحو تعزيز وتنسيق مواقف قوى التيار الديمقراطي، الذي يشكل اليسار الديمقراطي جزءا أساسيا منه، والذي يضم في صفوفه اتجاهات فكرية متعددة، يجمعها قاسم مشترك في العمل على إقامة النظام الديمقراطي سياسيا واجتماعيا، والذي يحترم حقوق الإنسان، ويسعى الى بناء دولة القانون والمؤسسات الدستورية. كما توجهت نحو الأحزاب ذات المواقف القريبة من تصورات حزبنا حول أشكال الكفاح لإسقاط

الدكتاتورية وإقامة البديل الديمقراطي، وحققت نتائج إيجابية، ولكن متواضعة أيضا.

وتوجه حزبنا في مبادراته أيضا، نحو بعض القوى الإسلامية، وهو ما تكلل بزيارة وفد قيادي من الحزب الى طهران في شباط الماضي، والاجتماع بقادة هذه القوى وبحث ومعالجة حالة الفتور التي طبعت العلاقات المتبادلة، والمباشرة ببناء جسور الثقة المتبادلة والتفاهم في شأن القضايا المشتركة.

إننا نعتبر ما تحقق في الفترة المنصرمة من لقاءات بين حزبنا والأحزاب الأخرى الفاعلة داخل الوطن، خطوات على الطريق الصحيح، وقد حظيت بارتياح جماهير الشعب. ونرى ضرورة تكثيف الجهود لمواصلتها، وإزالة العقبات أمام عقد لقاء متعدد الأطراف لهذه الأحزاب.

من ناحية أخرى لم يستجب الحزب للدعوات التي تلقاها، شأن أحزاب معارضة أخرى، من بعض الجهات الأجنبية، ورفض المشاركة في لقاءات لندن مع الخارجية البريطانية والسفارة الأمريكية، وغيرها، باعتبارها فعاليات تنطلق من التعويل على العامل الخارجي، ومساع تقوم بها الجهات المذكورة بهدف الإمساك بخيوط المعارضة العراقية وتوجيهها، وإجهاض أي تحرك وطني تقوم به على أساس من الاستقلالية وحفظ المصالح الوطنية.

لقد أكد حزبنا دائما أن أي عمل يستهدف إسقاط الدكتاتورية وتغيير السلطة، يجب أن يعتمد على قوى شعبنا في الداخل. وهذا لا يعني بالطبع الاستهانة بالعامل الخارجي أو إنكار دوره المتزايد في عالم اليوم، ولا ينفي ضرورة التفاعل الإيجابي مع كل جهد خارجي يدعم نضال شعبنا الوطني الديمقراطي، بل وضرورة العمل على توسيع وحشد هذا الدعم بمختلف أشكاله السياسية والمعنوية.

ورأى حزبنا، من ناحية أخرى، أن ارتهان بعض أطراف المعارضة العراقية للعامل الخارجي، أو ربط نشاطها بالخطط والمشاريع التي تهيأ من قبل هذه الجهة الأجنبية أو تلك، لا يساعد شعبنا في صراعه مع النظام الدكتاتوري، وإنما يسهم في إضعاف صدقية المعارضة العراقية ومواقفها الوطنية واستقلالية قرارها ونشاطها، ويعزلها عن أصدقائها والمتعاطفين معها في الخارج. كما يتسبب في ابتعاد شعبنا عنها، وزعزعة ثقته بها وبوطنيتها.

وبرغم تعقد اللوحة وتداخلها، فقد أفرزت التحركات الأخيرة تيارات مختلفة داخل المعارضة، منها من يعول في تحقيق التغيير على القوى الداخلية، مع الإفادة من العامل

الخارجي في إطار البديل الوطني. وهذا التيار يتمثل في الأحزاب الموجـودة والناشطة داخل الوطن. ومنها من ينشط في الخارج أساسا، ويستمد حضوره من الدعم الخـارجي، ويتطلع إليه لإنجاز التغيير المرتجى.

وتسعى واشنطن حاليا الى دعم التشكيل الذي تكون مؤخرا من المؤتمر الوطني العراقي الموحد وبعض الأطراف الأخرى، ومساعدته في إطار "قانون تحرير العراق" الذي تعلن الإدارة الأمريكية التزامها به، كما تسعى لاجتذاب قوى معارضة أخرى للانخراط في هذا التشكيل. ويندرج هذا التحرك ضمن المساعي الأمريكية الهادفة الى احتواء المعارضة العراقية الفاعلة، ومنع اتحادها في أطر تتجاوز الرغبات والتوجهات المحددة في واشنطن، وإبعادها عن ساحة النضال الحقيقية.

إن التطورات الأخيرة في الداخل، وتنامي واتساع المعارضة الشعبية للنظام الدكتاتوري، يفرض على حزبنا والأحزاب الوطنية الأخرى السعي الحثيث لتطوير عملها والالتقاء على قاعدة النشاط المشترك، لاسيما ميدانيا، ووفق برنامج سياسي مرحلي يحدد المهام الآنية ومهام الفترة الانتقالية التي تلي إسقاط النظام. وإن الإسراع في إنجاز هذه المهمة الوطنية الملحة، سيساعد في تعبئة الجماهير المناهضة للدكتاتورية، والتي هي القوة القادرة ذات المصلحة الحقيقية في إسقاطها وإقامة البديل الديمقراطي.

٤- الوضع في كردستان

توقف المؤتمر الوطني السادس بعمق عند الوضع في كردستان، وحدد العوامل الأساسية في استمرار الأزمة الداخلية الناجمة عن الصراع على السلطة بين الحزبين وعن تدخلات القوى الإقليمية والدولية، بالإضافة الى المساعي التخريبية، للنظام الدكتاتوري وأزمة الديمقراطية. وسجل المؤتمر دعم الشيوعيين العراقيين للمسيرة، والعمل على تطويرها وحمايتها ومعالجة الثغرات التي رافقتها.

وأكد حزبنا أن رفض سبيل السلم والمصالحة الوطنية، وعدم الاعتماد على قوى الشعب المخلصة ذات المصلحة الحقيقية في السلام، سيعرض مكتسبات الشعب والإقليم الى أشد المخاطر، وفي مقدمتها التدخلات العسكرية السافرة والتأثيرات المتزايدة للدول الإقليمية، وسيؤدي الى ارتهان القضية الكردستانية للقوى الأجنبية والنظام الدكتاتوري.

وشهدت الفترة منذ المؤتمر السادس تطورات عديدة على الساحة الكردستانية. ورغم

الضغوط التي مورست ضد الحزب إلا أنه بقي ملتزما بحياده وموقفه الرافض للقتال، والداعي الى السلام والمصالحة، والى حل المسألة عبر الاتصال المباشر والمفاوضات السلمية، والاعتماد على العامل الداخلي مع الاستفادة من العوامل الخارجية لدعم التوجهات الداخلية. وبذل رفاقنا في الحزب الشيوعي الكردستاني – العراق (حشكع) خصوصا، وبالتعاون مع قوى الشعب المخلصة الأخرى من عراقية وكردستانية، جهودا حثيثة من أجل تحقيق السلم والمصالحة الوطنية في الإقليم. خصوصا وأن الاقتتال المدمر أدى كذلك الى إلحاق أضرار جسيمة باقتصاد الإقليم، وفاقم الوضع المعيشي لجماهير الشعب، وخلف تأثيرات اجتماعية ضارة كثيرة، الى جانب تهديد أمن واستقرار المواطنين، الذين أشاع في أوساطهم نهاية المطاف مشاعر الإحباط واللامبالاة والعزوف عن المشاركة في الحياة السياسية والعامة.

واتسم الوضع في كردستان العراق خلال العام الماضي بالاستقرار والهدوء، وبتحسن نسبي في أوضاع الجماهير، لكنه لم يخل من القلق والخوف على مصير المسيرة السلمية، التي بدأت في شباط ١٩٩٨ بعقد اللقاءات بين قيادتي الحزبين، تحت إشراف الرفيق عزيز محمد، وتواصلت حتى عقد اتفاق واشنطن في أيلول ١٩٩٨.

إن أهم ما أنجز يتمثل في إعلان الحزبين بشكل رسمي وعلني، نبذهما اللجوء الى الخيار العسكري والتمسك بالخيار السلمي في حل الخلافات. إلا أن عملية تنفيذ الاتفاق بدأت تتعثر وتتباطأ عند بدء البحث في المسائل الجدية والحيوية فيه، وخاصة موضوع تشكيل الحكومة الانتقالية، ودعوة البرلمان، وتطبيع الأوضاع الأمنية في أربيل والمدن الأخرى. وقد نجم ذلك عن التباين في تفسير كل طرف لنص وروح اتفاقية واشنطن.

ومن الواضح أن هناك جهات داخلية وخارجية لا تريد الإسراع في تطبيق الاتفاقية، خوفا على مصالحها ومكاسبها التي وفرتها أجواء الاقتتال وحالة اللاحرب واللاسلم.

وقد أيد حزبنا النقاط الإيجابية في اتفاقية واشنطن، واعتبرها خطوة مهمة على طريق تحقيق السلام وتطبيع الأوضاع وإعادة وحدة الإقليم، وخلق الأرضية الملائمة لمساهمة القوى الكردسانية في النضال الوطني الديمقراطي العراقي، للخلاص من الدكتاتورية وإنهاء مأساة الشعب العراقي عامة.

وأكد حشكع من جانبه على ضرورة معالجة النقاط السلبية، ومنه عدم إشراك الأحزاب الكردستانية التي لم تساهم في القتال، في اللجان المعنية بتطبيق بنود الاتفاقية، واقتصارها على الحزبين فقط، إضافة الى النقطة المتعلقة بحماية أمن الدول الإقليمية. كما

أكد حزبنا أن تطبيق الاتفاقية يحتاج الى نضال جماهيري، وتعبئة القوى والفعاليات السياسية لتحقيق السلام.

وشهدت الأشهر القليلة الماضية عدا تنازليا وتراجعا عن طريق المصالحة الكردستانية، رغم الزخم الإيجابي الذي بدأت به، والخطوات الجيدة التي تم إنجازها بعد إعلان اتفاقية واشنطن بين الحزبين.

والتأم اللقاء الأخير (١٦-٢٤/٦/١٩٩٩) في واشنطن بعد توتر الأجواء بين الحزبين، بأمل أن يشكل خطوة إيجابية على طريق التخفيف من المأزق الذي وصلت إليه عملية المصالحة. إلا أنه لم يحقق الآمال.

إن ترسيخ السلام وتحقيق المصالحة الوطنية وعودة الوحدة الى كردستان، سيكون ضمانة لتحقيق مصالح وأماني شعب كردستان، ورافعة للنضال الوطني الديمقراطي العراقي. وانطلاقا من هذا الفهم عمل حزبنا ولايزال لتحقيق تقارب الحزبين، وحثهما على تطبيق الاتفاق وتجاوز الحساسيات والصعوبات التي تعرقل عملية المصالحة.

إن بقاء الوضع على حاله دون حل جذري، يجعله محملا بمخاطر التدهور لاحقا، خاصة مع استمرار حالة انعدام الثقة بين قادة الحزبين، والتركيز على البحث عن النواقص والسلبيات لعرقلة الخطوات التطبيقية.

كذلك فإن ظاهرة تقسيم الإقليم الى إدارتين، توفر أرضية خصبة للتدخلات الخارجية، لاسيما العسكرية التركية التي تستغل حالة عدم الاستقرار لإبراز دورها ومواصلة تواجدها العسكري شبه الدائم، بغية تحقيق توجهاتها وأهدافها. كما توفر الأرضية للمساعي المحمومة للنظام الدكتاتوري، الرامية الى الإبقاء على حالة التوتر والمجابهة، والإفادة منها في إمرار مخططاته الهادفة للعودة الى كردستان وبسط سيطرته عليها مجددا.

إن الدكتاتورية تسعى بكل طريقة الى إدامة حالة الصراع في كردستان، وتعمل بلا كلل من أجل عرقلة تحقيق المصالحة الكردستانية، وتعد الطبخات المتنوعة لهذا الغرض. وفي الوقت نفسه تواصل حملات التهجير القسري للمواطنين الكرد والتركمان من كركوك وخانقين وغيرهما، وتجبرهم على التوجه الى الأراضي غير الخاضعة لها من كردستان، أو ترسلهم الى مناطق الوسط والجنوب. ويجري تنفيذ هذه الحملة الشوفينية بصورة وحشية، وبعد تجريد العوائل من جميع وثائقها وممتلكاتها، في حال جرى ترحيلها الى مناطق كردستان المحررة من سيطرة النظام. ورغم الاحتجاجات الواسعة على هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان، فإن النظام يمعن في إجراءاته الشوفينية، مما يتطلب حشد

أصوات التضامن مع قضية الشعب الكردي العادلة، وفضح إجراءات السلطة ونهجها العدواني.

وفي ضوء ذلك ينبغي القول، إن التعويل من جانب بعض القوى الكردستانية على العلاقة مع الحكام الدكتاتوريين، لن يحل المشاكل القائمة، بل ويلحق أفدح الأضرار بقضية الشعب الكردي.

وقد دلت التجربة العملية على أن أفضل الظروف لحل القضية الكردية، إنما يتوفر في ظل عراق ديمقراطي يؤمن الحقوق القومية للشعب الكردي، مما يستدعي مساهمة القوى الكردستانية الفاعلة في الجهد المعارض للخلاص من الدكتاتورية، وإقامة حكم ديمقراطي تعددي دستوري فيدرالي، ينهي مأساة الشعب العراقي عامة، ويحقق ديمقراطيا طموحات الشعب الكردي العادلة.

ورغم تلكؤ العملية السلمية، والركود في الوضع الاقتصادي بسبب الأوضاع السياسية وعدم وجود سياسة اقتصادية مناسبة، والمشاكل المرتبطة بضعف الاستفادة من المبالغ المخصصة للإقليم وفق القرار ٩٨٦، فقد حصل بعض التحسن في أوضاع الجماهير المعيشية بعد تطبيق القرار، وجرى تمويل بعض المشاريع الخدمية وغير ذلك. مع أن هذا لم يعالج إفرازات القتال واستمرار حالة التقسيم في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، التي يفاقم الجفاف هذا العام من عواقبها.

إن من مهمات النضال الملحة، السعي الحثيث جنبا الى جنب كل القوى ذات المصلحة في السلام والاستقرار، من أجل تحريك العملية السلمية وتطبيق بنود اتفاقية واشنطن وتحقيق المصالحة وصولا الى الانتخابات البرلمانية. ويتطلب الأمر من سائر القوى المخلصة أن تلعب كذلك دورا فاعلا في نقد المظاهر السلبية عموما، وتقديم الحلول والمعالجات، والقيام بكل ما يخدم الكادحين وجماهير الشعب، ويعزز النضال المتنامي لشعبنا العراقي وقواه السياسية المعارضة، من أجل إسقاط الدكتاتورية وإقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد.

٥- آفاق تطور الوضع ومهماتنا

تظهر وقائع السنتين الماضيتين في الوضع الداخلي بجوانبه المختلفة، وفي ما يتصل بالقضية العراقية، أن طبيعة النظام الدكتاتوري ونهجه وممارساته لم تتغير من حيث

الجوهر، وهي تكمن في أساس المحنة الشاملة لشعبنا، وتشكل عاملا رئيسيا في جميع الأزمات والكوارث، التي تعرض لها ويتعرض بجميع قومياته وفئاته الاجتماعية والدينية والمذهبية.

وتبين الوقائع أيضا أن النظام مازال، رغم تضاؤل قدراته ومصادر قوته واشتداد عزلته داخليا وانحسار الإسناد الدولي والظروف الإقليمية المواتية له، باقيا يتحكم بالشعب والوطن وبحياتهما ومصيرهما.

ولا شك أن تآكل أي نظام وتهرؤه لا يعنيان بالضرورة سقوطه تلقائيا. بل لابد في الغالب من قوة تدفعه الى السقوط. وتتمثل هذه القوة في الحالة الملموسة لصراع شعبنا مع الدكتاتورية ومن أجل البديل الديمقراطي، في تعاون قواه السياسية المعارضة، وبضمنها قوى المعارضة الشعبية المتنامية.

لكن تحقيق هذا التعاون ليس سهل المنال بفعل عوامل مختلفة، يتصدرها الدور الذي يلعبه العامل الخارجي، ممثلا هنا بالقوى الدولية والإقليمية، بتدخله في شؤون قوى المعارضة وإرباكه لوحة الصراع الداخلية.

ولا جدال في الأهمية الكبيرة للعامل الدولي، الذي يتوجب النظر إليه باعتباره فاعلا ومؤثرا، وهو قائم موضوعيا، ويفعل فعله عبر مواقف الرأي العام من جانب، ومن جانب آخر عبر السياسات التي تنتهجها القوى الدولية والإقليمية والمشاريع التي تسعى لتنفيذها، تطمينا لمصالحها وغاياتها.

وبالنسبة الى الوضع في بلادنا يمارس العامل الدولي تأثيره، قبل كل شيء، من خلال العقوبات الدولية، لاسيما الحصار الاقتصادي. وهو هنا يجسد إرادته في قرار دولي، يقول ببقاء الحصار الاقتصادي وعدم رفعه قبل إزاحة صدام حسين من السلطة. الأمر الذي يؤثر سلبا على نضال شعبنا، ويحد من طاقاته في مواجهة الدكتاتورية.

ويمارس العامل الخارجي تأثيره أيضا عبر المقاطعة السياسية والدبلوماسية للنظام والضغط الإعلامي عليه، وهو ما يساعد شعبنا في نضاله. لكن هذا لا يمكن قوله عن تأثير الضربات العسكرية الجوية، التي شنها التحالف الأمريكي – البريطاني ويشنها. فإذ تلحق هذه الغارات بالنظام الأذى، فإنها في الوقت ذاته تستثير عوامل تخدمه، ويمكن أن تفيده في فك عزلته عربيا ودوليا.

إننا إذ نتوجه لكسب أوسع أوساط الرأي العام العالمي الى جانب قضية شعبنا، فإننا لا نعارض أو نرفض الدعم الدولي السياسي والمعنوي. شرط أن يكون جادا وصادقا، يعين

قوى المعارضة على تطوير كفاحها، ويساعد في رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا.

ونحن لا نعارض التعامل مع الحكومات والأوساط الرسمية في الدول الأخرى، وإنما ينحصر السؤال بالنسبة إلينا في كيفية هذا التعامل وغايته.

وعلى صعيد آخر فإننا لا نشارك البعض يأسهم بسبب بقاء النظام يحكم العراق حتى الآن، ولا نقاسمهم بالتالي فقدان الأمل في رؤية نهاية للنظام إلا بالتدخل الخارجي.

في مقابل ما جرى ذكره وبموازاته، شهدت البلاد طيلة الفترة الماضية تطورات لافتة على مستوى الشارع، الذي تحول ميدانا لتحركات جماهيرية متنامية ومتسعة، سبق تسليط الضوء عليها.

وهذا هو العامل الداخلي (المتمثل في جماهير الشعب والجيش وقواهما السياسية الوطنية، سواء القائمة المنظمة منها أو الناشئة حديثا، والأوساط التي تترك مواقع النظام وتنتقل في معسكر المعارضة) الذي ينزل الى ساحة الصراع حاملا الرد على من أعلنوا يأسهم من الشعب. ولم يكن تدفق الملايين الأربعة (باعتراف سلطات النظام ذاتها) من المواطنين على مدينة كربلاء في حزيران الماضي بمناسبة أربعينية الإمام الحسين، إلا مظاهرة تحد جبارة للنظام، واستفتاء جماهيريا جديدا أكد رفض أبناء الشعب، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية وقناعاتهم الفكرية، للنظام الدكتاتوري، بعد أشهر من العمليات الكفاحية والمواجهات البطولية والهبات الشعبية.

لكن المقاومة المتصاعدة في وجه النظام، والتحركات النضالية المتسعة ضد أزلامه ومواقعه ومؤسساته، بحاجة الى من يجمعها وينظمها ويقودها. ولا جدال في الأهمية غير العادية هنا لتعاون قوى المعارضة وتنسيق نشاطها.

وقد أمكن في الآونة الماضية إحراز تقدم معين في اتجاه تحسين العلاقات بين هذه القوى، وخلق أجواء إيجابية. إلا أن ذلك بقي دون مستوى الطموح، ودون مستوى الحاجة الى توحيد الخطاب السياسي لهذه القوى، وتحقيق وحدة برامج عملها ونشاطها الكفاحي، وبما يساعد في إضفاء الطابع السياسي الوطني على هذا النشاط.

ومن ناحية أخرى لا يمكن التفكير في التغيير والإعداد له دون وضع الجيش ودوره في الحسبان.

والجيش اليوم جيشان. إذ يميز النظام بين منتسبي القوات المسلحة، موليا اهتماما متزايدا للقوات الخاصة والحرس الجمهوري والتشكيلات الأمنية المتعددة، التي يشملها بالمكافآت والهبات. فيما يهمل الجيش النظامي، ويعمل على تمزيق بنيته، ويمتهن

منتسبيه، ويصفي أو يبعد أعدادا كبيرة من قادته ومراتبه بحجج واهية. وكان هذا بالذات من أسباب اتساع ظاهرة انسلاخ ضباط الجيش ومراتبه بأعداد متزايدة عن النظام، والهروب المتسع لجنوده، وانضمام كثيرين منهم الى قوى المعارضة.

وتعكس ظاهرة هرب الجنود من الجيش، من جانب آخر، موقف الغالبية العظمى من شبيبة شعبنا وطلبته، الرافضين للنظام الدكتاتوري والمتطلعين والساعين للخلاص منه. وتشكل جماهير الشباب والطلاب في الواقع مصدرا رئيسيا لمخاوف النظام من انفجار الغضب المتعاظم عليه، نظرا الى كراهيتهم الطبيعية للظلم والعسف وحبهم للحرية وإقبالهم على الحياة. لذلك كانوا ومازالوا هدفا أساسيا للإرهاب والتنكيل الوحشيين، ولمحاولات الإفساد وتشويه الوعي من جانب السلطة الدكتاتورية.

وعموما تتهيأ لتطوير النشاط المعارض والنهوض به ظروف أفضل باضطراد، ليس آخرها تخلخل أجهزة النظام ومؤسساته.

إلا أن هذا النشاط يبقى محدودا وعفويا في الغالب، ليس فقط جراء القمع المنفلت، وبسبب ما سبق ذكره من غياب التنسيق والتعاون بين قوى المعارضة الناشطة داخل الوطن، بل أيضا بفعل تواضع نشاط كل من هذه القوى منفردة.

ويتوجب في هذا السياق أن نذكر من جديد بالأسس التي ينطلق حزبنا منها في سعيه للخروج بالبلاد من الأزمة الشاملة التي تخنقها، وإنقاذ شعبنا من محنته:

أولا: توسيع وتصعيد النضال من أجل رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب وإسقاط الدكتاتورية وإقامة البديل الديمقراطي في عراق فيديرالي موحد.

ثانيا: حشد طاقات شعبنا وقواه الوطنية الحية في النضال لتحقيق الأهداف المذكورة، وجمع نشاطاتها في أطر تعاون وتنسيق فعالة، وتأكيد دورها في التغيير، آخذين في الاعتبار دور العامل الخارجي وتأثيراته المختلفة.

ثالثا: تحقيق المصالحة الوطنية الكردستانية بما يخدم مصالح شعب الإقليم، ويعزز دوره في المعركة ضد الدكتاتورية ومن أجل العراق الديمقراطي.

رابعا: تفعيل النشاط الشعبي المعارض للنظام الدكتاتوري، والارتقاء به الى مستوى نوعي جديد، عن طريق تطعيمه، قبل كل شيء، بعنصر التنظيم الضروري.

خامسا: تطوير عمل الحزب ونشاطه في شتى الميادين السياسية والتنظيمية والفكرية، بما يطور الجهد المعارض للدكتاتورية ويعزز من مكانة الحزب ودوره في راهن العراق ومستقبله.

وفي ضوء هذه الأسس تنهض أمام حزبنا طائفة من المهام، التي يتوقف على إنجازها الارتقاء بنضاله وبدوره في الجهد الشعبي المتصاعد ضد الدكتاتورية:

* تعزيز تنظيمات حزبنا، وتوسيع صلاتنا مع الجماهير ومكانتنا بينها، والنهوض بأساليب عملنا، والإفادة الأفضل من قدراتنا وطاقاتنا في عمق الوطن وفي كردستان وفي الخارج.

* دعم التحركات الشعبية المتواصلة ضد النظام، وتحفيز المزيد من جماهير العمال والكادحين والشبيبة والطلبة والنساء وعموم المواطنين المكتوين بسياسات النظام، على الانخراط فيها وفي مختلف أشكال النضال الأخرى، وبضمنها المطلبية، والعمل على إشاعة التنظيم في صفوفها وفي نشاطها بأجمعه.

* بذل جهود مضاعفة لكسب جماهير الجنود والمراتب والعسكريين عامة، الى جانب الكفاح الذي يخوضه أبناء الشعب، والعمل على تنظيمهم وتعبئة غضبهم وجمعه الى سخط جماهير الشعب في المعركة ضد الدكتاتورية.

* التوجه نحو منتسبي حزب السلطة وأجهزتها ومؤسساتها العسكرية والأمنية وغيرها، ودعوتهم للخلاص بأنفسهم من خدمة السلطة الدكتاتورية، جلادة الشعب، والانتقال الى صف الجماهير المناضلة لإنقاذ الشعب والوطن.

* العمل على تحريك أبناء الجاليات العراقية في الخارج، الذين يصل عددهم الى حوالي ثلاثة ملايين، كي ينهضوا بدورهم في معركة شعبنا ضد الدكتاتورية ومن أجل البديل الديمقراطي، وينشطوا في اتجاه كسب تعاطف الرأي العام العالمي (المتمثل في الأحزاب السياسية والمنظمات والنقابات والفعاليات الجماهيرية المختلفة، والتي ننظر إليها باعتبارها جزءا أساسيا لا يتجزأ من العامل الدولي) وتضامنه مع شعبنا، من خلال خطاب عقلاني مؤثر.

* العمل على تكوين رأي عام دولي ضاغط لحماية حقوق الإنسان في العراق، ومن أجل تفعيل قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ المتعلق بذلك، وتحويله الى البند السابع ليكون ملزما للنظام، أسوة ببقية القرارات الدولية المتعلقة بالعراق.

* إن إنجاز ذلك كله يتطلب تعميق معرفتنا بالواقع وتغيراته، واستيعابنا للجديد من الظواهر، وتطوير إعلامنا والإفادة الأفضل منه، وباختصار: تطوير عملنا وتحسين أدائنا الفكريين.

على أن من أهم المهام التي تواجهنا، السعي لتحقيق التعاون بين أطراف

المعارضة. وينبغي تركيز الجهد في المرحلة الراهنة على تأمين الظروف المواتية للتوصل الى خطاب سياسي موحد لهذه الأطراف. وذلك ما يدعو إليه النداء الموجه من مجلسنا الحزبي العام الخامس الى جماهير الشعب وسائر القوى الوطنية العراقية، والذي يحدد المهمات الواجب تنفيذها كمدخل للاتفاق على ما هو مشترك، والذي ينطلق في الجوهر من المشروع الوطني الديمقراطي الصادر قبل سنتين عن المؤتمر الوطني السادس لحزبنا.

إن كل شيء يشير الى دخول الوضع في بلادنا طورا جديدا من التأزم والاحتقان، نتيجة سياسات النظام وممارساته. وهناك مؤشرات كثيرة على كون النظام أصبح في حال أضعف نسبيا، وأقل قدرة على احتواء تداعيات الوضع الداخلي، ومواجهة التنامي المستمر للنشاطات والعمليات الكفاحية والهبات الجماهيرية المتتابعة من بغداد حتى البصرة.

وهذه الحقيقة تثير الفزع في نفوس الحكام، كما تثيره المواقف والمشاريع الأمريكية التي يبدو جليا أنهم ينظرون إليها بجدية كاملة، ومثلما تثيره حالة التوتر الاجتماعي والسياسي التي تطبع الوضع في البلاد بأسرها، والتي تشتد اليوم – بين أسباب أخرى – بفعل الجفاف غير العادي وعواقبه المتزايدة، التي تنعكس ملموسة في تردي الظروف المعيشية والحياتية للمواطنين.

وفي مواجهة هذا كله وتداعياته المحتملة، يتوجب علينا أن نكون في أعلى درجات الاستعداد، ليس فقط للتفاعل مع الأحداث ومواكبة حركتها، بل ولاستباقها ما أمكن، والسعي للإجابة على الأسئلة التي يمكن أن تطرحها.

وقبل هذا وبجانبه يتوجب علينا أن نواصل تعزيز حضور حزبنا في الساحة النضالية وسط جماهير شعبنا الناهضة.

٦- الأوضاع العربية والدولية

شهدت فترة ما بعد المؤتمر السادس مزيدا من التدهور في أوضاع المنطقة، وتفاقما في الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها. وعاش العالم فترة حرجة من التوترات التي توجت مرحلة ما بعد الحرب الباردة، في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك المنظومة الاشتراكية وهيمنة القطب الواحد – الولايات المتحدة – على صعيد العلاقات الدولية.

أ- الأوضاع في الشرق الأوسط والعالم العربي

عانت منطقة الشرق الأوسط سلسلة من التوترات والأزمات الناجمة عن سياسة التعنت الإسرائيلية، التي اقترنت بمجيء زعيم حزب الليكود السابق نتنياهو الى الحكم، مما انعكس سلبا على مسار التسوية الإسرائيلية – الفلسطينية وعموم مسارات التسوية في الشرق الأوسط. وتبع ذلك فشل إدارة كلينتون في إعطاء الزخم لعملية السلام، رغم توقيع إسرائيل والسلطة الفلسطينية على اتفاقية واي ريفر.

وفي الوقت ذاته تواصلت سياسة الاستيطان، وسياسة فرض الأمر الواقع التي اعتمدها نتنياهو، ضاربا عرض الحائط بالاتفاقات الموقعة مع الفلسطينيين، ومتجاهلا الدعوات بما فيها الأمريكية لتطبيقها.

ورافقت هذا النهج مراوحة حذرة على صعيد الجبهة السورية، وحرب مستمرة في جنوب لبنان وخاصة في الشريط المحتل.

وجاءت نتائج الانتخابات الإسرائيلية في أيار الماضي وفوز باراك وحزب العمل، لتشكل فرصة جديدة لتحريك العملية السلمية. وطبيعي أن فوز باراك بحد ذاته لا يعني حلا للأزمة المستعصية. والمسألة كانت وستبقى مرتبطة أساسا بضرورة تحشيد كل عوامل القوة والفعل لدى شعوب البلدان العربية، وتوحيد جهود قوى حركة التحرر الفلسطينية، على أساس برنامج وطني – ديمقراطي، وتعبئة كل قوى السلام وحقوق الإنسان والديمقراطية في العالم، من أجل إجبار الحكومة الإسرائيلية على الانصياع لصوت العقل، وإجراء مفاوضات عادلة مع الجيران، والانسحاب الكامل من الجولان السورية وجنوب لبنان، والإقرار بحق الشعب الفلسطيني في نيل حقوقه وإقامة دولته الوطنية المستقلة.

ومعلوم أن المقاومة للاحتلال في فلسطين ولبنان، السلمية منها والمسلحة، لم تتوقف، وتصاعدت المقاومة المدنية والجماهيرية في بعض المناسبات لتتخذ شكلا أقرب الى الهبة الشعبية.

على صعيد آخر مازالت أزمة الخليج الناتجة عن الغزو الصدامي للكويت، تلقي بظلالها على العلاقات العربية – العربية في المستويين الرسمي والشعبي، إضافة الى تراجع دور جامعة الدول العربية. وأفرز ذلك كله حالة من الضعف في التضامن بين البلدان العربية، مما وفر المحفزات لتمادي إسرائيل في سياستها العدوانية المدعومة أمريكيا.

- وشهدت الفترة المنصرمة تطور التحالف العسكري والاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل، الذي يحظى بدعم أمريكي واضح. ولم يقتصر الأمر على تبادل الزيارات بين المسؤولين في البلدين، بل تعداه الى التصنيع العسكري المشترك وتنظيم مناورات عسكرية مشتركة.

وأسهم ذلك كله في توتير الأجواء بين تركيا والبلدان العربية، وخاصة مع سوريا. وشكلت الأزمة المثارة من جانب تركيا خريف ١٩٩٨ أحد أهم مظاهر التوتر في العلاقات التركية - العربية.

وأرادت تركيا من توقيت إثارة الأزمة، التخلص من تأثيرات المشكلة الكردية والأزمة الداخلية اللتين تواجههما، وانتزاع تنازلات من سوريا. ورافقت الاتهامات التركية لسوريا بدعم حزب العمال الكردستاني، تهديدات بعمل عسكري ضدها. ولقد أسهم حرص سوريا على تجنب الدخول في مواجهة عسكرية غير مأمونة العواقب في ضوء موازين القوى القائمة، الإقليمية والدولية، في نزع فتيل الأزمة.

ومثلت عملية إلقاء القبض على عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني بتواطؤ بين مخابرات تركيا والولايات المتحدة وإسرائيل، التعبير الأوضح عن النظرة الشوفينية للحكومة التركية الى قضية الشعب الكردي العادلة، والإصرار على نهج التصفية الدموية بديلا عن الإقرار بالحقوق المشروعة والحل السلمي لهذه المسألة.

وقد دان حزبنا عملية اختطاف أوجلان، ودعا الى إطلاق سراحه وإجراء محاكمة عادلة له، كما دعا الى الحل السلمي الديمقراطي للمشكلة الكردية في تركيا، على أساس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الكردي.

وكانت المحاكمة الصورية التي أجريت لأوجلان، من الناحية العملية، محاولة من جانب الحكومة التركية لمحاكمة الشعب الكردي، الذي يتوق الى حريته وحقوقه المشروعة. وإن حزبنا ليدعم جميع الجهود المبذولة لوقف تنفيذ الحكم الصادر بإعدام أوجلان، وإطلاق سراحه.

وعلى صعيد شمال أفريقيا والمغرب العربي، تجدر الإشارة الى الانفراج في الأزمة الليبية مع الأمم المتحدة، وما رافقها من حصار جوي فرض على هذا البلد العربي، بدعوى تورط سلطاته في قضية لوكربي. وشكل تسليم المتهمين في القضية في أوائل نيسان الماضي ليحاكما في هولندا، بداية لحل سياسي للأزمة وبالتالي لوقف العقوبات ضد ليبيا.

وتتواصل الأزمة السياسية في السودان جراء إصرار عمر البشير على نهج القمع والإرهاب الشامل. وأكدت الوقائع غياب المصداقية في دعواته للمصالحة مع المعارضة، فيما قدم التجمع الوطني الديمقراطي المعارض، من جانبه، تصوراته للمصالحة، التي لم تلق حتى الآن تجاوبا من السلطة الحاكمة.

ورأى الحزب الشيوعي السوداني ضرورة توفر شرطين أساسيين في أي مشروع للحل السلمي، وهما:

* وقف الحرب الأهلية، وإرساء قواعد سلام عادل وشامل يفتح الطريق لإقامة سودان موحد ديمقراطي مستقر.

* تجريد الجبهة الإسلامية الحاكمة من المكاسب التي حصلت عليها بانقلاب ٣٠ حزيران ١٩٨٩، ومعاقبة كل من ارتكب جرما ضد الوطن والمواطنين، واسترداد ما نهب من المال العام أو من الأفراد.

وفي الجزائر شكلت الانتخابات الرئاسية في نيسان الماضي (رغم ما رافقها من أخطاء وتجاوزات على الديمقراطية)، وفوز عبد العزيز بوتفليقة فيها، وإعلان برنامج يعتمد العمل من أجل تحقيق السلم المدني، بداية لانفراج في الأزمة السياسية ولوقف النزيف الخطير الذي أسفر عن سقوط آلاف الضحايا. ومثلت خطوة الجبهة الإسلامية للإنقاذ المتعلقة بوقف العنف، وإعلان الحكومة عن العفو العام عن السجناء السياسيين ومباشرة إطلاق سراحهم، تطورا إيجابيا على هذا الصعيد.

وشهدت المنطقة تطورا محسوسا على صعيد العلاقات الإيرانية - العربية. ومثلت سياسة الانفتاح التي اعتمدها الرئيس الإيراني محمد خاتمي منذ فوزه في الانتخابات الرئاسية (أيار ١٩٩٧) تطورا إيجابيا انعكس في الزيارات المتبادلة بين المسؤولين من إيران والبلدان العربية، خاصة دول الخليج.

الى جانب هذه التطورات، هناك ظواهر عامة يمكن رصدها في اللوحة المعقدة للوضع في البلدان العربية وعموم المنطقة. تتوجب الإشارة الى:

* استمرار الانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان، حيث شهدت السنة المنصرمة تدهورا شديدا على هذا الصعيد في عموم البلدان العربية، خاصة في مناطق الأزمات، واتخذت أساليب التنكيل شتى الصور. وأشارت التقارير المحايدة الى حقائق فظيعة في هذا الشأن.

* تدهور الأوضاع الاقتصادية، وانخفاض المداخيل ومستويات المعيشة الناجم عن ذلك. وانعكس التدهور سلبا على الطبقات والفئات المتوسطة والفقيرة بالدرجة الأساسية،

وأدى الى شيوع الفقر وارتفاع معدلات البطالة.

وقد أدخل تقرير "التنمية البشرية" في الأعوام الأخيرة، مفهوم "الفقر البشـري" الى العالم العربي والشرق الأوسط، وهو يقوم على أساس أن الافتقار متعدد الأبعاد، وهو أكثر من كونه افتقاراً الى ما هو ضروري للرفاه العادي. إذ أنه يعني الحرمان من الفرص والخيارات التي تعتبر أساسية للتنمية البشرية. وتشير المعطيات والأرقام الى حقائق قاسية على هذا الصعيد.

ولم تنجُ من ذلك حتى الدول النفطية، جراء الانخفاض في أسعار النفط، وشمل الركود حتى دول الخليج. وشهدت سوق النفط العالمية انهياراً كبيراً لأسعار النفـط، مما ألحق خسائر إجمالية بدول أوبك تقدر ب٦٠ مليار دولار.

وقد اضطرت دول منظمة أوبك وغيرها بسبب ذلك الى تقليص إنتاجها من النفط. وأدى ذلك لاحقاً الى عودة الأسعار للارتفاع مجدداً. ومع هذا تبقى البلدان المذكورة جميعاً تعاني من أزمات اقتصادية حادة، وعجز في ميزانياتها، وتزايد في حجوم ديونها، وتقليص في الإنفاق الاجتماعي، وهو ما يرتبط وثيقاً – في أحد جوانبه – باستمرار عقد صفقات الأسلحة عالية الكلفة.

* تواصل نهج الهيمنة الذي تمارسه الولايات المتحدة، والذي ينطلق من الاهتمام بالشرق الأوسط ستراتيجياً واقتصادياً وعسكرياً. ويتجلى هذا النهج في صور شتى، بينها التدخل في الشؤون الداخلية، وفرض التواجد العسكري... الخ. مما أدى الى خلل في ميزان القوى لصالح إسرائيل على المستوى الإقليمي، ولصالح الولايات المتحدة وحلفائها على المستوى الدولي.

ومما عزز هذا النهج اعتماد الأنظمة الحاكمة في البلدان العربية سياسة اقتصادية وحيدة الجانب، تقوم على التبعية للامبريالية.

* شكلت أزمة المياه أحد أهم العناوين الرئيسية في تطور أوضاع المنطقة، وأشارت الدراسات الى أن العجز المائي العربي في العام ٢٠٠٠ سيبلغ ٣٠ مليار م٣.

وحسب هذه الدراسات فإن الأردن وفلسطين يدخلان في دائـرة الخطر مائياً، وأن العراق وسوريا يقعان ضمن الدائرة المهددة بالخطر، وفيما يخص مياه نهري دجلة والفرات لاتزال تركيا ترفض الاعتراف بكونهما نهرين دوليين، وتعارض المطالب السورية والعراقية في مياه النهرين وباستئناف أعمال اللجنة الفنية الثلاثية الخاصة بالمياه، والمتوقفة عن النشاط منذ العام ١٩٩٢.

وتشير التوقعات الى أن أزمة المياه في الشرق الأوسط ستكون في مقدمة المشكلات في القرن المقبل، فيما اعتبر بعض المختصين حروب المياه أهم ملامح القرن الحادي والعشرين.

في ظل هذه الأوضاع المعقدة التي تسود المنطقة، تتواصل النضالات الشعبية والوطنية في العديد من البلدان العربية، من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان. كما تتسع النشاطات الشعبية المعادية للسياسة الأمريكية في المنطقة.

لكن نشاط ودور قوى الديمقراطية واليسار، ومنه الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، لايزال دون الطموح. ويتوجب العمل الجاد لتفعيل دورها والارتقاء بعملها المشترك.

ب- الأوضاع الدولية

عاش العالم في السنوات القليلة الماضية حالة من عدم الاستقرار والتوتر والأزمات على جميع الصعد، في ظل "النظام العالمي الجديد" الذي عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تسويقه دولياً، مما عمق حالة القلق من طغيان غطرسة القوة التي تعتمدها واشنطن والناتو.

وارتباطاً بهذه التطورات وتفاعلاتها يمكن تحديد أبرز ملامح التطورات الدولية:

* استمرار وتصاعد نهج الهيمنة في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، والتحول الأكبر نحو استخدام القوة في العلاقات الدولية. وعلى حد تعبير وزيرة الخارجية: لقد تحولت سياستنا من الدبلوماسية المدعومة بالقوة الى القوة المدعومة بالدبلوماسية.

* الانهيار الروسي جراء تفاقم الأزمات السياسية والاقتصادية، التي تعكس المأزق الخطير الذي قادت إليه سياسة يلتسن، ونهج اللهاث وراء صندوق النقد الدولي، وإطلاق العنان للتطور الرأسمالي المنفلت، وما أدى إليه ذلك من التدهور واشتداد الصراع، مع إفقار وتهميش قطاعات شعبية واسعة، تعيش اليوم خيبة أمل مريرة جراء فقدانها للمكاسب الاجتماعية، التي كانت تحصل عليها في ظل الاشتراكية.

* اندفاع أوربا نحو مزيد من الاندماج الإقليمي. وقد شهد الاتحاد الأوربي خطوات ملموسة في عملية بنائه، لكن أوربا تعيش في ظل أزمات اقتصادية واسعة تتجلى في ارتفاع معدلات البطالة بشكل خاص.

ولازالت أوربا الشرقية تتخبط وهي تحصد خيبة الأمل، جراء الوعود التي لم تسفر

في الغالب سوى عن المزيد من التدهور. ودلت تجربة بلدان هذه المنطقة على أن الخصخصة والليبرالية الجديدة، لم تجلب لشعوبها سوى تردي الأوضاع في معظم الميادين.

* التدهور المريع الذي تعيشه البلدان النامية، والذي دفع البعض الى إطلاق تسمية "زمن الفقر العالمي"، ارتباطاً بانهيار النظم الإنتاجية في الدول النامية وبانحلال البرامج الاجتماعية. وظهرت المجاعات في التسعينات على المستوى المحلي في أفريقيا وجنوب آسيا وبعض أجزاء أمريكا اللاتينية. وحرم مئات الملايين من الأطفال من حق التعليم، وعاد ظهور الأوبئة في العالم الثالث. وتعيش هذه البلدان حالة من التهميش جراء التبعية والتخلف. ورافق كل ذلك اتساع دائرة الحروب الإقليمية بشتى أنواعها، مما أسفر ليس فقط عن وقوع ضحايا بشرية بل وتعمق حالة عدم الاستقرار.

* أزمة دول جنوب شرق آسيا (تموز ١٩٩٧) التي تعتبر إحدى نتائج العولمة المالية، التي تسعى الولايات المتحدة خاصة الى فرضها على العالم، مستخدمة في ذلك ما لديها من نفوذ على المؤسسات المالية. وقد فقدت هذه البلدان خلال أشهر قليلة ٤٠ – ٥٠% من ثرواتها، واستنزفت الأزمة نحو ١٣٧ مليار دولار جراء تعميم اقتصاد حرية الأسواق وحرية التجارة، وغياب الإدارة الحكومية النزيهة والفاعلة. وأدى التوسع في منح القروض وإطلاق المضاربة، الى جانب ضعف الإدارة المالية، الى سلسلة من الانهيارات في أسعار صرف العملات المحلية.

* سعي حلف الأطلسي تحت تأثير الولايات المتحدة الى تغيير مفهوم الحلف وطبيعته، من كونه "أداة للدفاع" ضد عدو محدد، الى منظمة مشتركة للحماية ضد تهديدات غير محددة.

وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحلف، وبرغم ما يفترض من انتفاء مبرر وجوده منذ انتهاء منظمة "معاهدة وارشو" قبل عقد من السنين، أقرت دول الناتو في نيسان ١٩٩٩ استراتيجية جديدة، تتاح بموجبها مرونة أوسع في استخدام الخيار العسكري، بما يعطي للحلف الحق في استباحة العالم حيثما تقتضي ذلك مصالحه، وخاصة على صعيد إدارة الأزمات الإقليمية والدولية، وبذلك يجري فرضه بديلاً عن الأمم المتحدة.

ومثلت أزمة كوسوفو وحرب البلقان، التي اندلعت بهجوم حلف الناتو على يوغوسلافيا، واحدة من تجليات السياسة الجديدة للناتو، وأدت الى واحدة من أشد الأزمات خطورة في عالم اليوم، وعكست الى درجة كبيرة عدوانية الولايات المتحدة والناتو.

وقد توقف حزبنا أمام هذا التطور الخطير، وطالب بالوقف الفوري لعمليـات الناتو العسكرية التي ألحقت أفدح الأضرار بشعب يوغوسلافيا وبسكان كوسوفو أنفسهم، وكذلك بوقف عمليات القمع والتهجير التي يمارسها الحكام الصرب ضد ألبان كوسوفو، والاعتراف بحقوقهم المشروعة، واعتماد الخيار السلمي لحل الأزمة.

وأشار حزبنا الى حق ألبان كوسوفو في تقرير مصيرهم. واعتبر العملية العسكرية للناتو التي أدانها، سابقة خطيرة، حيث تجاوز الحلف الشرعية الدولية ومجلس الأمن، ليستعيض عنها "بشرعية" القوة.

* ظاهرة العولمة التي شغلت العالم ولاتزال، من حيث تجلياتها وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وفي حين ينظر إليها البعض باعتبارها ظاهرة موضوعية، تسعى الرأسمالية لتوظيفها بما يؤدي الى انفتاح العالم على بعضه البعض ويحقق لها المزيد من الأرباح، يرى البعض الآخر أنها مؤامرة امبريالية ينبغي التصدي الحازم لها.

إن العولمة، بمعنى الانفتاح والتبادل والترابط بين شعوب ودول العالم، هي ظاهرة موضوعية ليست بالجديدة، وجاءت الثورة التقنية والمعلوماتية لتدفعها قدماً الى الأمام.

وتتجلى العولمة ليس فقط في الميدان الاقتصادي، بل وفي العلاقات الدولية وميادين أخرى، وتتضح فيها أكثر فأكثر ملامح سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، الهادفة الى السيطرة على العالم وتكريس نهجها العدواني المعادي للشعوب. وتتوضح مخاطر العولمة الراهنة في إقامة أسواق معولمة، تخدم مصالح الرأسمالية العالمية ومراكزها الاحتكارية.

وأمام هذه التطورات وتفاعلاتها المختلفة، يجري العمل من قبل الأحزاب الشيوعية والعمالية والحركات السياسية اليسارية، على التصدي لهجوم الرأسمال وتحقيق عولمة إنسانية في مواجهة العولمة الرأسمالية، تقوم على أساس الدفاع عن مصالح الكادحين، بعيداً عن الهيمنة والاستئثار الذي كرسته الرأسمالية المعلومة. الأمر الذي يتطلب عولمة النضال وصياغة أشكال مناسبة من العمل الملموس، لتحقيق الخيار الذي تطمح إليه الشعوب – خيار العدالة الاجتماعية والاشتراكية.

* إن البشرية مثقلة، وهي تقترب من القرن الحادي والعشرين، بمشكلات جسيمة تهدد وجودها.

فالحروب الإقليمية والمحلية والتوترات السياسية والانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان وارتفاع معدلات البطالة والتضخم والتصاعد في ميزانيات السلاح، والزيادة الخطيرة

المتواصلة في تلوث البيئة وما تشكله من تهديد لمستقبل البشرية، فضــــلا عــن مشــاكل الجفاف وغيرها، تزيد من قلق الشعوب وهي في مرحلة الانتقال الى الألفيـــة الثالثــة. إن التوظيف غير المتكافئ لمنجزات العلم والتكنيك وثورة الاتصال، عمق الهوة بيــن الــدول الغنية والدول الفقيرة، وزاد من حالة عدم الاستقرار في عالمنا المعاصر.

وفي ظل هذه الأوضاع المعقدة تقع على عاتق الأحزاب الشــيوعية وقــوى اليســار، مهمة فضح أساليب الرأسمالية المعاصرة، وصياغة البديل المناسب: إقامــة نظــام جديــد للعلاقات الدولية، يقوم على أساس التكافؤ ويضمن التــوازن فــي عــالم اليــوم الملــيء بالمشاكل، والسعي لضمان حقوق الإنسان وصيانة كرامته وتوفير مســتلزمات وشــروط حياته الضرورية، بعيدا عن العسف والاضطهاد في عالم خــال مــن الأســلحة النوويــة والفتاكة الأخرى، عالم بعيد عن الحروب والتوترات. وفي ظل الأمن والسلم والاســتقرار، يمكن تحقيق ازدهار البشرية وتطورها في القرون المقبلة.

إن العالم اليوم يشهد تناميا في النضالات من أجل الحقــوق السياســية والاجتماعيــة، ولدرء هجوم رأس المال. كما تتزايد النشاطات الشعبية دفاعا عن حقوق الإنسان والبيئــة. ومنيْ العديد من الدكتاتوريات بهزيمة ماحقة على يد الشعوب المناضلة، ولنا مــن مثــال أندونيسيا ما يؤكد ذلك.

ويتبلور في هذا السياق المزيد من أشكال التعاون والتنسيق بين قوى اليسار وعمــــوم القوى المعادية للرأسمالية، وتبذل الأحزاب الشيوعية والعمالية جهودا متواصلة من أجـــل الارتقاء بعملها، وتحديد المعالجات الملموسة للقضايـــا المطروحـــة. وتقــوم المنظمــات والجمعيات النقابية والشبابية والطلابية والنسائية وغيرها، بدور مرموق في الدفـــاع عــن قضايا الكادحين والشعوب، وتتصدى بحزم لعدوانية الامبريالية، وتطرح بإلحـــاح شــعار عولمة التضامن.

وتقع اليوم على عاتق الشيوعيين خاصة، مهمة تحديد ملامح المســـتقبل، وتقديــم البديل المبرر علميا للرأسمالية المأزومة، والمستند الى عولمة إنســانية تكــون قــاعدة للاشتراكية.

أواخر تموز ١٩٩٩

وثيقــة

نـــداء

الى جماهير شعبنا العراقي

الى سائر القوى الوطنية

يشهد الوضع في بلادنا منذ مطلع هذا العام أحداثاً وتطورات تعكس تصاعداً نوعياً في مستوى تحدي ومقاومة السلطة الدكتاتورية. ويتجسد ذلك في سلسلة التحركات الاحتجاجية وأعمال المقاومة والهبات الشعبية والمجابهات المسلحة ضد قوى النظام الإرهابية، التي شملت العاصمة بغداد ومعظم مدن وسط وجنوب العراق، وهي تتواصل ومرشحة للاتساع.

وترتبط هذه الانفجارات المتوالية للغضب الجماهيري بمجمل السياسات الإرهابية للنظام ونهجه العدواني، وحصيلة الحروب التي أشعلها ومضاعفاتها التي فاقمت معاناة جماهير شعبنا المكتوية بنار الحصار الاقتصادي والإرهاب. ويقترن كل ذلك بعجز السلطة الحاكمة عن إيجاد حل للأزمة الشاملة التي تستنزف الشعب والوطن وتخنقهما.

ويجري هذا كله في الوقت الذي تتزايد فيه التدخلات والضغوطات الخارجية في الشأن العراقي، وبضمنه شؤون المعارضة، وهو ما يتجلى خصوصاً في مواقف ملموسة وسياسات معلنة للتغيير في العراق بمعزل عن إرادة شعبنا.

إن هذه التطورات وآفاقها المحتملة تطرح بإلحاح على أطراف المعارضة الوطنية، اليوم أكثر من أي وقت مضى، مهمة الارتقاء الى مستوى مسؤوليتها التاريخية، لتجاوز حالة التبعثر التي تعيشها وتحقيق جهد مشترك يدعم ويحفز جماهير شعبنا وقواها داخل الوطن في نضالها البطولي لإسقاط الدكتاتورية وإقامة البديل الوطني الديمقراطي الفيدرالي المنشود.

إن الحزب الشيوعي العراقي، انطلاقاً من شعوره بحجم المخاطر التي تتهدد شعبنا

ووطننا وبضرورة الخروج من هذه الحالة، والاستجابة لتطلعات شعبنا يدعو سائر الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية بمختلف انتماءاتها واتجاهاتها للالتقاء والاتفاق على قواسم مشتركة تشكل أساساً لخطاب سياسي موحد يقوم على الثوابت الوطنية واستقلالية القرار السياسي المعارض.

وهنا يؤكد حزبنا على مشروعه الوطني الديمقراطي الذي أقره مؤتمره الوطني السادس في تموز ١٩٩٧ وحدد فيه المهام الآنية والمرحلية التي تواجه وتنتظر شعبنا وقواه الوطنية. **وهو يرى في المهمات التالية مدخلاً للاتفاق على ما هو مشترك:**

١- إسناد قوى شعبنا المناهضة للدكتاتورية، باعتبارها القوى الحقيقية المعول عليها في إنجاز التغيير للخلاص من الدكتاتورية، وإقامة نظام برلماني تداولي، يقوم على أساس الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، ويؤمن الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي واحترام خياراته وضمان حقوق القوميات الأخرى، ويلغي كل أشكال التمييز القومي والديني والطائفي.

٢- رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا.

٣- العمل على تحقيق التلاحم بين الجيش والشعب.

٤- السعي لكسب أوساط من داخل الحزب الحاكم والمؤسسة العسكرية الى جانب القوى المعادية للدكتاتورية.

٥- تحقيق المصالحة الوطنية في كردستان العراق.

٦- المطالبة والضغط لتفعيل وتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ الخاص بحقوق الإنسان في العراق، وتقديم صدام حسين وأركان النظام الى محكمة دولية باعتبارهم مجرمي حرب ومجرمين بحق الإنسانية.

٧- العمل على كسب الإسناد العربي والإقليمي والدولي، السياسي والمعنوي، لنضال شعبنا ضد الدكتاتورية انطلاقاً من المصلحة الوطنية لشعبنا وبلادنا.

المجلس الحزبي العام الخامس
للحزب الشيوعي العراقي
٢٦ - ٢٨ تموز ١٩٩٩


أدب وفن

"الذي يأتي ولا يأتي"

هو

الذي يمضي فلا يمضي!

إن ألف مأخذ على شاعريته لا يضيره شيئاً، فيما عشر ملاحظات على غيره قد تودي بذلك الغير.. فمهما قيل من أمور تقلب البياتي الشاعر، فإن أشعاره المستمرة، منذ (الأباريق المهشمة) حتى (النصوص الشرقية) تؤكّد شاعريته المتفردة.. **البسيطة ببساطة قد توهم** حتى الأمّي (الأطرم) بقدرته على محاكاتها، بينما هي – حقيقةً – تتأبّى على أنداده من الشعراء الكبار.. **والعميقة عمقاً قد يوهم** الكثير من المتأملين بأن قاع هذه الشاعرية ليس عميقاً، وشأن هؤلاء هو شأن الغشيم حين ينظر الى ماء شديد الصفاء، يرفع قاع أحجاره وحصاه لمن يعشق تلك الموجودات البعيدة الغور في البحيرات والبحار.

لا أريد، الآن، أن أبكيه أو أرثيه، فقد تحقق ما تمناه، فها هو يرقد رقدته الأخيرة في دمشق الشام، وهي رقدته الأولى في حضرة شيخه (محيي الدين بن عربي)، حيث يدخلُ ولادته الجديدة التي ستمتدّ في الأزمان.. هو الذي يعشق بلاد الشام.. هو الذي يقول في أروع نتاجه – عندي – (الذي يأتي ولا يأتي).. يقول:

عائشةٌ ماتت، ولكني أراها تذرع الظلامْ
تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشامْ

.. إنه هو ذاته يقول في القصيدة ذاتها:

– من كان يبكي تحت هذا السور؟
كلاب رؤيا ساحر مسحور
تنبح في الديجور
أم ميت الجذور
في باطن الأرض التي تنتظر النشور

.. وهو ذاته يختم مورده هذا بقوله:

– من كان يبكي تحت هذا السور؟
لعلها الريح التي تسبق من يأتي ولا يأتي
لعلّ شاعراً يولَدُ أو يموت!

وأنا – بدوري – أقول: هو البياتي يولد إذ يموت، فالذي وثّقَ روح "الذي يـــأتي ولا يأتي" هو شاعر يمضي.. فلا يمضي!

مهدي محمد علي

خواطر على خواطر

عبد الإله الياسري

نشرت (الثقافة الجديدة) – عدد ٢٨٦ كانون الثاني، شباط ١٩٩٩ – مقالاً للأستاذ علي الشوك تحت عنوان (خواطر حول اللغة العراقية الدارجة). أبدى فيه أفكاراً واجتهادات، ذات صلة بعلم اللغة المقارن. والمقال في مجمله يدور حول تأثير اللغات على اللغة العراقية الدارجة، ويمكن تقسيمه الى نوعين: تأثير داخلي يتعلّق باللغات العراقية القديمة، قبل الميلاد، ويتميز بتفرّده، لمعرفة الأستاذ الشوك الواسعة بذلك الحقل المعرفي النادر الذي تخفى أسواره على الكثير. وتأثير خارجي، أثار لديّ مجموعة من الخواطر التي أودّ أن أفصح عنها في الملاحظات التالية، آملاً أن تكون محفّزاً لتدخل ذوي الاهتمام بهذا الشأن:

١– إن مفهوم "اللغة العراقية الدارجة"، من الناحية المنطقية، يضم جميع الصفات اللغوية لهذه اللغة، وجميع الخصائص التي توضح معناها الكلي. وهو يتضمن العربية وغير العربية. والعربية العراقية الدارجة ليست واحدة، وإنما هي صور متعددة، تختلف باختلاف مناطق العراق وأهله. لذا أعتقد أن النظر الى اللغة العراقية الدارجة مَن خلال لهجة واحدة أو لهجتين، واستنباط الأحكام من جزء واحد أو جزأين، دون استقراء الأجزاء الأخرى المكونة للظاهرة اللغوية في العراق، وإطلاق تلك الأحكام على كلية اللغة، هو شيء مختلف عليه.

والمثال على ذلك الاختلاف هو زعم الأستاذ الشوك أن كلمة "درنكة" العراقية مأخوذة من كلمة "DRUNK" الانجليزية. إذ قال:

"هناك مفردات عامة أخرى دخلت عاميتنا أيضا، مثل "سكران غادي درنكـــة" مـــن كلمة drunk الانجليزية". وهذا الخبر مخالف للواقع. فكلمة "درنكة" وجمعها "درنكـــات" يستعملها أهل الأرياف في الفرات الأوسط، وفي الجنوب أيضا. ومعناها آلة الطرب التـــي يضرب عليها (أي الطبلة). وتقابلها عند الحضر من أهل المدن، بنفـــس المعنـــى كلمـــة "دنبك" أو "دمبك". ووجه الشبه في قولهم "سكران صاير درنكة" هو، على الأغلب، حالـــة الارتخاء بين المشبه والمشبه به. فالسكران يرتخي عصبه بفعل الخمر. و"الدرنكة" يرتخي جلدها بفعل الضرب، فيلجأ الضاربون به الى تسخينه ليشتد ويعطي الصـــوت المرتجـــى. وأهل الأرياف المذكورون يقولون عادة: "صاير درنكة" بلا "سكران". ومرادهم المبالغـــة في التعب، وتشبيه حال المتعب بتلك الآلة التي يضرب عليها من هب ودب في الأعـــراس أو غيرها. وأظن أن سياق الجملة في القول "سكران صاير درنكة" يدعم هذا التفسير. وإلا ما معنى (سكران صاير سكران) إذا اعتبرنا أن كلمة "درنكة" مـــأخوذة مـــن DRUNK الانجليزية التي معناها (سكران).

وهذه المفارقة الطريفة لا ترجع الى قصور الأستاذ، وإنما ترجع الى طبيعـــة اللغـــة العراقية الدارجة التي تحتاج دراستها الى جهود جماعية مشتركة للإحاطة بكل تفاصيلـــها وتشعباتها.

٢- وقال الأستاذ الشوك: **"ولعل الفارسية تستأثر بحصة الأسد بألفاظـــها الدخيلـــة، وقد تليها التركية، ثم الانجليزية"**.

إن حصره أسس التأثير اللغوي الخارجي، على اللغة العراقية الدارجة، بهذه اللغـــات الثلاث، هو شيء موضوعي وواقعي، نتج عن أسباب معلومة تاريخيا. وأود أن أضيـــف الى هذا الاستنتاج الصحيح شيئا آخر:

إن تأثير اللغة التركية على العربية العراقية الدارجة لم يكن مقصورا علـــى المفـــردة التركية الدخيلة وحسب، بل امتد الى تغيير بنية المفردة العربية الدارجـــة، لطـــول فـــترة الاحتلال العثماني التي استمرت قرونا. ويظهر هذا التغيير البنيوي على بعض مفرداتنـــا العراقية بزيادة لفظ تركي في أواخرها مثل (جي) التركية بمعنى **صاحب المهنة** و(ســـز) التركية بمعنى **بدون** كقولنا: (كهوجي - عبايجي أو حياء سز - غيرة سز... الخ).

بينما اقتصر معظم تأثير اللغة الانجليزية في الميدان الصناعي والعسكري. وهو تـــأثير طفيف لقصر فترة الاحتلال البريطاني الذي لم يستمر إلا قليلا لضغط المقاومـــة الشـــعبية العراقية.

غير أن الأستاذ ركز على اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأوروبية بما لا يتوافق مع نسبة تأثيرها. وكاد يرجع بعض ما تشابه من مفرداتنا لفظا ومعنى مع مفردات تلك اللغات الى أصل أوروبي، ناسيا تأثير الحضارة الإسلامية ولغتها العربية على أوروبا ولغاتها من خلال الأندلس. إذ قال:

"ويمكن ملاحظة التطابق في اللفظ والمعنى في كلمة gossip الانكليزية و"قشبة" العربية. وقد يذهب الظن أول الأمر الى أن كلمتنا العراقية أو العربية مستعارة من الانكليزية، لكننا نجد في المعاجم العربية كلمة "قشب" بمعنى افترى وقشب الرجل: عسيره وعابه؛ أصابه بمكروه من القول. فهل جاء هذا التقارب في اللفظ والمعنى مصادفة؟".

إن هذا التصور الذهني يمكن أن يكون حين نلاحظ آلة صناعية في العراق، فيذهب الظن أول الأمر الى أنها من الغرب، لمعرفتنا القبلية بتخلفنا الصناعي، وتبعيتنا الاقتصادية. ولكن ينبغي ألا نظن ذلك في الميدان اللغوي، خصوصا إذا كانت المفردة ذات جذر عربي ثلاثي، مثل "قشب"؛ لأن لغتنا لها وجودها المستقل في معظم مفرداتها، ولها نظامها اللغوي الخاص المستمد من أمهاتها الساميات، دون إغفال التأثيرات اللغوية التي طرأت عليها من الخارج لأسباب عسكرية أو تجارية أو غيرهما. وهي في علاقة استيراد وتصدير مع اللغات الأخرى. لذا فالتطابق اللفظي والمعنوي بين بعض المفردات الانجليزية وبعض المفردات العربية، لا يصح أن يكون مقياسا لأصلية الأولى وفرعية الثانية. إن هذا المقياس يذكرني بشكل معكوس بنظرية لغوية لها علاقة بالفكر التقديسي. إذ تقول: إن أصل اللغة الانجليزية عربي. فكلمة arrive مأخوذة من (رفأ) وكلمة cut مأخوذة من (قط)... الخ. وهذا فكر ميتافيزيقي لا يعبر عن الواقع.

وقال الأستاذ أيضا: **"ومن الروسية انتقلت إلينا كلمات مثل "الجاي" و"الاستكان" و"السماور" و"الفرفوري" و"الشفقه" أي القبعة. وكثيرة هي الألفاظ الفرنسية الدخيلة الى العربية، والعراقية الدارجة".**

لم أستغرب أن تدخل إلينا مفردات كثيرة من اللغة الفرنسية، لأن الواسطة التي حملت تلك المفردات معلومة عند الجميع. فالألفاظ الفرنسية دخلت إلينا عبر قناتي مصر وبلاد الشام اللتين كانتا محتلتين من قبل فرنسا؛ ولكني استغربت وتعجبت حين قرأت أن مفردات روسية دخلت إلينا. ومبعث استغرابي وتعجبي يأتي من عدم وجود تفسير يدعم ذلك التأثير تاريخيا. لذا سعيت للتحقيق والتدقيق في تلك المفردات الخمس. فإذا كلمة "الجاي" هندية. وأميل الى أن أصلها هندي بحكم إنتاج الهند هذه المادة. ولعلها انتقلت الى

روسيا وغير روسيا. وإذا كلمة "السماور" وكلمة "الاستكان" تستعملان في اللغة الفارسية. ويميل بعض الإيرانيين المهتمين باللغة الى أن أصل الكلمة روسي لإنتاج "السماور" في روسيا، ولكن بعض التركمان يميل الى أن أصلها هي وكلمة "الاستكان" آذري. والآذريون حلقة وصل بين روسيا وإيران. وإذا "الشفقة" كلمة تركية. ومهما يكن فإن جزم الأستاذ أن هذه الألفاظ روسية هو حكم فيه أخذ ورد، اعتمادا على الناطقين بهذه اللغات المختلفة. أما "الفرفوري" فهي كلمة صينية محرفة كما بينها العلامة الفقيد هادي العلوي وربطها بالتبادل التجاري بين العراق والصين في العصر العباسي. وما يؤكد هذا أنني رأيت الإيرانيين يقولون "فوري جيني" أي صيني بدلا من "فوري فرفوري".

٣- وقال الأستاذ الشوك:

"نرى أن بعض ألفاظنا الشعبية نابية في معانيها. فكلمة "مصلخ" مشتقة على ما يبدو من "مسلوخ" وهذه قبيحة ولا شك في الدلالة على العري. وبالوسع ذكر كلمات أخرى من هذا المستوى".

وقال أيضا: **"وحتى سؤالنا المعروف عن الأحوال والصحة: "شلونك؟" لا ينم عن ذوق في التعبير.. في مقابل ذلك ثمة ألفاظ دارجة أخرى لها جرس صوتي جميل ومعبر، مثل "أوي" النسوية".**

أعتقد أن الكلمات رموز لغوية مصطلح عليها للإشارة بها الى أشياء معينة، فهي بذاتها لا تحمل قيمة جمالية، إنما قيمة كل كلمة تأتيها من كيفية توظيفها في السياق التعبيري، ومن الحالة النفسية التي تضفي عليها تلك القيمة سلبا أو إيجابا. لذا فالحكم على ألفاظ بالقبح وأخرى بالجمال، خارج سياقها الخاص، وخارج الحالة الشعورية، مرتبط بالتجربة الذاتية التي لا يصح تعميمها.

ومهما يكن فهذه مسألة خلافية تتعلق بفلسفة الجمال في اللغة. ولا أدري أين يكمن عدم الذوق في سؤالنا الموروث "شلونك"، الذي يتوازى مع أي سؤال مثله في أية لغة أخرى*؟

* يبدو لنا أن الأستاذ علي الشوك لم يشعر بضرورة تفسير "عدم الذوق" في تعبير "شلونك؟" اعتمادا على ذاكرة القارئ التي تحتفظ بما أشار إليه العلامة الراحل (مصطفى جواد)، حين فسر الأصل اللغوي والتاريخي لهذا التعبير، إذا أشار الى أنه نحت لجملة "أي شيء لونك؟" التي سادت في العراق والمنطقة، أيام جائحة من جوائح الطاعون الذي ينحو لون المصاب به نحو اللون الأصفر. ولا نتذكر أن الراحل مصطفى جواد قد تطرق الى المسألة الذوقية، بينما سجلها الأستاذ علي الشوك. (المحرر)

٤- وقال الأستاذ الشوك:

"التكرار في اللفظ، أو الاتباع في ترديد كلمتين متقاربتين في اللفظ يكثر في عاميتنا، كقولنا: شكو ماكو؟ وهوله جولة (...) و"اشويح وألويح" و"شعوطني وكلوطني" ولعل "أشويح" من الشبح أما "ألويح" فلا أدري من أين جاءت".

اكتشاف هذه الصيغة التعبيرية الطريفة تدل، بلا شك، على انشغال الأستاذ الشوك بعاميتنا، وعلى عمق ملاحظته وحسن استقرائه. ولعله قاسها، في رغبته التحليلية، على نوع من الجناس في العربية الفصحى، الذي تتشابه فيه الكلمتان لفظا، وتختلفان معنى. وهو قياس في محله، ومصيب به. غير أني لاحظت كثيرا ما يؤتى بالكلمة الثاني لا لمعنى، وإنما لتحسين اللفظ، أو للتجانس الموسيقي، أو للمبالغة. والدليل على ذلك الحكاية الشعبية التالية:

(أراد رجل أن ينقل "قريولة" و"قنفة" و"كرسي"، فسأل الحمال: كم تطلب لتنقل هذه الأشياء الثلاثة؟ أجابه: مائة فلس. فاستكثر الرجل المبلغ قائلا: هذا كثير. قال الحمال: ليس كثيرا. عندك "قريولة ومريولة" و"قنفة ومنفة" و"كرسي ومرسي". حينئذ وافق الرجل وقال: إذن أعطيك خمسين فلسا واحمل لي "القريولة" و"القنفة" و"الكرسي" وأنا أحمل "المريولة" و"المنفة" و"المرسي".) فهذه الثلاثة الأخيرة لا تدل على شيء، وإنما جيء بها للمبالغة. وقد رأيت أهل المغرب الأقصى يستعملون مثل هذه الصيغ التعبيرية في كلامهم كقولهم "سيري ميري" و"لا خدام ولا ردام" أو "لا خدمة ولا ردمة" وحين سألت عن الكلمات الثواني، لم أجد معنى لها. ولا شك أن هناك صلة بين عاميتنا وموروثنا العباسي، وعاميتهم وموروثهم الأندلسي. وبين المشرق والمغرب الإسلاميين علائق حضارة إسلامية واحدة. فليس من غرابة في هذا التماثل والتشابه.

ويطيب الختام إعادة ما قاله الأستاذ الشوك في خاتمة مقاله الجميل:

"وبعد، إن دراسة منهجية للغتنا العامية، وتتبع جذور مفرداتها، وتحليل قواعدها وطرائق التعبير فيها، مهمة لاتزال تنتظر من يتصدى لها".

الفنان منذر حلمي:

انتزعت من خشبة المسرح اعتسافا

حاوره: صبري هاشم

"هل يمكن أن يستوي الفعل وعدم الفعل..
أن يتكافأ الخير والشر، الظلم والعدل؟"

هذا مقطع من نص بابلي، يستحضره الأبناء على أبواب الألفية الثالثة. نص ينفض عن نفسه غبار الأحقاب، ليعتلي خشبة مسرح غريبة في مدينة نائية لا تمت بصلة الى أرض ولادته. نص انكتب في عمق التاريخ، ليخرج في كل الأوقات. نص كأنه انكتب لزماننا ولنا. فهل تشابهت الأزمنة؟، وإن تشابهت فهل تشابهت الأمكنة أيضا؟ نص كهذا ربما انكتب للذين اقتلعوا من أوطانهم وأقسروا على حياة المنافي، لكي يعيدوا ترتيب الذاكرة في ساعة تأمل فالتة من الزمن.

مسرحية (السيد والعبد) التي ستعرض على خشبة مسرح (قصر الثقافات العالمية) في برلين، كانت مناسبة للقائنا بالفنان القدير (منذر حلمي) الذي سيمثل دور السيد في المسرحية، فعلى هامش التدريبات التي يقوم بها الى جانب الفنان القدير (خليل شوقي)، أجرينا معه حوارا، تناول هموم المسرح العراقي ودور المثقف لمواجهة التدهور الحاصل في الثقافة العراقية.*

* بدأ عرض المسرحية يوم ١٩٩٩/٤/٢.. انظر متابعة للعرض في هذا العدد.

*** بعد غياب سنوات طويلة عن خشبة المسرح، كيف وجدت نفسك في خضم التدريبات الجديدة، وما هي الدوافع التي جعلتك تعود الى العمل المسرحي، رغم وجود أكثر من فرصة للعودة سابقا؟**

لم أغادر خشبة المسرح بمحض إرادتي. لقد انتزعت منها اعتسافا. مثلي في ذلك مثل المسافر الذي تنتزع منه بطاقة السفر ويرمى على قارعة الطريق، والرحلة لم تنته بعد. أذكر أن سوء الحظ رافق نشاطي منذ أن منعت وزارة الإعلام في بغداد عام ١٩٧٦ مسرحية – دائرة الطباشير البغدادية، التي أعدها وعرقها (عادل كاظم) عن مسرحية – دائرة الطباشير القوقازية – لبريشت، وأخرجها الراحل (ابراهيم جلال) للفرقة القومية التي استضافتني لتمثيل دور المعنكي فيها. لقد منعت هذه المسرحية بعد أن عرضت ليوم واحد فقط، إذ اتهمت بأنها مسرحية معادية وتدعو الى التشهير بالنظام وبمؤسساته. وحدث ما يشبه ذلك، عندما أخرجت مسرحية (قصة الدكتور بالمي) لفرقة (مسرح الغد) العراقية في بيروت، وعرضت المسرحية ليوم واحد أيضا، فقد اجتاحت إسرائيل لبنان حينذاك، وتوقف عرض المسرحية وسط غصة غضب مزدوجة.

أما عن عودتي مؤخرا الى المسرح، رغم أن المخرج (عوني كرومي) كان يلح علي، ولأكثر من ثلاث سنوات، لعمل مشترك معه، فقد تباطأت بداية في الاستجابة لرغبته لأسباب عديدة، أهمها أن جدول أعماله مثقل بالمواعيد، وغالبا ما تكون مفردات هذا الجدول متضاربة، ومنها أنني لم أتجاوب بما فيه الكفاية مع النصوص التي قدمها لي، إما بسبب بنائها الفني، أو لأنها لم تكن ملائمة لجمهورنا في المنفى. ولكن ما إن قدم لي نص (حوار السيد والعبد) حتى وجدت فيه ما افتقدته في النصوص السابقة. فهذا النص الذي كتب قبل الميلاد بقرون عديدة، يبدو وكأنه كتب في الحقيقة لنا نحن الذين نتهيأ لاستقبال القرن الواحد والعشرين. فهو نص مفعم بالدلالات الإنسانية المتوجهة صوب المستقبل. نص انبثق من صميم معاناة البشر الكادحين والمستعبدين. ليتجاوب مع معاناتهم ويتلمس وإياهم طريق الخلاص. فما إن فرغت من قراءة النص حتى اتصلت به للتو ناقلا له إعجابي الشديد بالنص، ورغبتي الملحة في أن نعمل سوية من أجل أن ترى هذه المسرحية النور. ومما ضاعف من اندفاعي في هذا الاتجاه، اتفاقي مع المخرج على اختيار الفنان الكبير (خليل شوقي) لتمثيل أحد دوري المسرحية. فللصديق الفنان القدير (خليل شوقي) مكانة أثيرة لدي، لما يتمتع به من قدرة فنية عالية، وشخصية جادة، لم تفرط، على امتداد مسيرتها الفنية ورغم شتى صنوف الإغراء والوعيد، بما آمنت به من مبادئ وقيم.

*** لنتحدث عن النص إذن.. ماذا يعني النص بالنسبة إليك؟ ما الذي يضيفه النص الجيد للفنان، ما الذي يأخذه النص الرديء؟**

عذرا إذا بدأت بالجمهور، قبل التحدث عن النص. فقد كان هناك جمهور للمسرح، قبل أن يرى النور أي نص مسرحي، بالمعنى المألوف للنص. إذ مثل وقوف الممثل أمام المشاهد، كما هو معروف، البداية الحقيقية لولادة فن العرض المسرحي. وعندما واجه اليوناني – ثيسبيس – المولود في القرن السادس ما قبل الميلاد ولأول مرة، الجمهور كممثل، بعد أن أنسل من جوقة الغناء، وأخذ يمثل هو نفسه في مواجهة الجمهور وقائع الأحداث ويتقمص شخصياتها ويجسدها بأدواته التعبيرية مستعينا بالأقنعة، لم يكن بحاجة آنذاك لا الى مخرج ولا الى خشبة مسرح شبيهة بما هي عليه الآن، ولا الى مؤلف مسرحي بمواصفات اليوم. كل ما كان بحاجة إليه في المقام الأول هو الجمهور. فعندما أختار النص، أكون في الحقيقة قد اخترت الجمهور الذي سأقدم إليه هذا النص، أو سأتوجه إليه في واقع الأمر بهذا النداء، والعكس صحيح أيضا. فالمسرح هو في نهاية المطاف ظاهرة اجتماعية، ولا يوجد بالتالي نص مجرد، متعال على الجمهور. وكل نص ينطوي على مضمون فكري، على موقف متميز من صراعات المجتمع السياسية والثقافية والاجتماعية. وهو إذ ينبثق من خضم هذه المستويات، يعبر بالنتيجة عن مصالح هذه الشريحة الاجتماعية أو تلك، أي يقف بالضرورة مع مطامح هذه الطبقة ضد مطامح الأخرى. ومن وجهة نظري يعبر النص الجيد، على الأقل النص الذي يتماشى والمرحلة التي نعيشها، ولا يمكن هنا أيضا فصل الشكل عن المضمون، عن التطلعات المشروعة لقوى الإنتاج الحية في المجتمع، ويقيم علاقة جدلية معها، يتعلم منها، ومن ثم يقدم هو نفسه رؤيته إليها في صياغة فنية ترتكز على الإيمان بقدرة الإنسان في تغيير الواقع بدل الاكتفاء بتفسيره. والنص الجيد يستحث الجمهور على المشاهدة الفاعلة بالضد من تلك التي تتسم بالسكونية والتلقي السلبي وعدم الاكتراث. ومن جهة ثانية يفجر النص الجيد طاقات الفنان الكامنة، ويتحدى أدواته التعبيرية، وينتشلها من النمطية والخمول، ويستفز ذهنه، يحفر في ذاكرته، ويبحث في ثنايا تجاربه وخبره الحياتية، عما يغني علاقتهما المتبادلة، فيكمل عندئذ كل منهما جملة الآخر، لتنشأ جملة جديدة، هي جملتهما معا، جملة تتسم بالجدة والراهنية، جملة قادرة على إقامة صلة خصبة، نابضة بالحياة والنماء مع الجمهور، في حين يعجز النص الرديء أو بالأحرى الاختيار الرديء للنص عن تقديم عرض مسرحي بالمواصفات التي تحدثت عنها قبل قليل. فهناك نصوص تعتبر جيدة بحد

ذاتها، نصوص للقراءة أو للتقديم على المسرح ضمن ظروف مناسبة. بينما تتمتع نصوص أخرى بسمات مميزة أخرى، منها سمة الامتداد والقدرة على التواصل مع أوسع الناس. فهل من الممكن على سبيل المثال إقامة حوار متبادل بين مسرحية – البخيل – لموليير وبين الجمهور البولوني الذي كان يتوجه خلسة أثناء الاحتلال النازي لبولونيا الى مكان سري، كيما يشاهد عرضا مسرحيا يلهب حماسته ويرفع معنوياته، بما يعزز قدرته على المقاومة والصمود. قد يبدو هذا التساؤل نافلا. ولكن مازال هناك للأسف من لا يقيم وزنا لهذه الاعتبارات.

*** في هذا المنفى الذي تعمقت فيه أحاسيسنا بالخيبة وتداخلت فيه الأوراق، ما هو الدور الذي يمكن أن يضطلع به المثقف لمواجهة هذا المأزق؟**

وماذا يمكن أن يقول المرء عن المنفى! أتذكر هنا بلاغة ما قاله ناظم حكمت عنه. عن المهنة الصعبة ومشاقها. وإنني لأشعر وأنا أسير في دروب المنفى، وكأنني أحمل الأرض على كاهلي، بدل أن أتحسسها تحت أقدامي. ازداد المنفى قسوة ومرارة، بعد أن اهتز المثال وتلاحقت الخيبات وغابت المرجعية أو كادت. فطفح على السطح المشروع الفردي بعد تراجع ما هو مشترك وشامل. ومع ما في هذا المشروع من حرية القرار والإحساس العالي بالمسؤولية، إلا أننا وإزاء المخاطر التي تتهدد الوطن بالانفلاش والتمزق، وإزاء الشلل الذي يدب في أوصال المعارضة والنفرة التي تطبع علاقاتها مع بعضها والتوجهات الإشكالية، ولا أقول المريبة، لعدد من أطرافها، مدعوون الى وقفة تأمل جادة. وتقع هنا على المثقفين العراقيين بالذات، وعلى اختلاف مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية، مسؤولية استثنائية، تتمثل أول ما تتمثل في أن يستحيل لديهم الوطن الى قضية، قضية تخرج من معطفها وتتعقب خطواتها أية قضية أخرى. فهل هم قادرون حقا على تغليب لغة الحوار بينهم واحترام حق الآخر في الكلمة. وعلى التبشير بشجاعة بقيم الديمقراطية والتبادل السلمي للسلطة ورفض أي شكل من أشكال عودة سلطة اليقين والحكم الشمولي المتخلف، تحت أي شعار اختفى، سواء تستر باسم الأمة أو الطبقة أو الدين. لا تشي الوقائع هنا بالكثير، ولكن المهم أن تكون للحركة في هذا الشأن الأهمية كلها.

*** ومادمنا بصدد الحديث عن المنفى.. ربما أضاف هذا المنفى شيئا أو أخذ شيئا من الشعر، الرواية، الموسيقى، الفن التشكيلي. فما الذي أضافه أو أخذه المنفى من المسرح؟**



لقد أخذ المنفى من الجميع الكثير. وألحق بالجميع ضررا بالغا، تمثل في افتقاد الطمأنينة والابتعاد عن الجذور والإحساس المرير بوحشة الغربة، وتمثل أيضا بانشطار الذات بين مطالب الروح وبين مستلزمات الحياة اليومية. وإذا كان المنفى قد أخذ من الجميع، فإنه أخذ ما هو أكثر من ذلك من المسرح. فالمسرح فن جماعي يستلزم توافر عناصر عديدة معروفة، من ممثلين ومخرج ومصمم أو منفذ ديكور وإنارة وموسيقى تصويرية.. الخ، في الوقت الذي أدى توزع الفنانين على مدن الشتات الى وضع عراقيل جدية حالت في أحيان كثيرة دون اجتماعهم ومواصلتهم العمل سوية. وهناك خاصية أخرى يتميز بها المسرح، فكما أن المسرح ظاهرة اجتماعية، فهو حدث اجتماعي كذلك. فأنت تستطيع أن تشاهد التلفزيون، تذهب الى السينما، تزور معرضا تشكيليا، تقرأ شعرا أو رواية، دونما حاجة الى حضور الممثل والفنان التشكيلي والشاعر أو الروائي، ولكنك في المقابل لا تستطيع مشاهدة

مسرحية ما على المسرح في ظل غياب العاملين فيها. الأمر الذي يحد من حرية الحركة في المجال الإبداعي لفن المسرح.

ولا شك أن المنفى الذي أخذ منا الكثير، أعطانا هو الآخر ما افتقدناه في وطننا من حرية وطمأنينة، وأغنانا بتجارب الآخر وخبراته، وبما يفسح في المجال لاتساع حقل اهتماماتنا ومعارفنا.

*** جيل الرواد مازال فاعلا ومؤثرا، هل هذا الدور متأت من شعور هذا الجيل بمسؤولية تاريخية؟**

لا غرابة أن يواصل العديد من الرواد نشاطه المسرحي. وينسحب هذا على من يقيم منهم في الداخل أو من اضطر لمغادرة أرض الوطن. فالمسرح العراقي ومنذ بداياته مسرح ملتزم، يستمد مضامينه من تطلعات جماهير شعبه ونضالاتها، وينفتح من جانب آخر على التجارب المسرحية العالمية، ذات الأفق الإنساني والمستوى الفني الرفيع.

ولعل الاهتمام المبكر للمسرحيين العراقيين بالمضمون الاجتماعي للمسرح، يعود الى العلاقة العضوية التي نشأت بين الحركة الوطنية العراقية وبين رواد المسرح العراقي ابتداء من أوائل الثلاثينيات. والجدير بالذكر هنا العلاقة التي كانت تربط الفنان الراحل (يحيى فائق) ببعض قادة الحزب الشيوعي العراقي الذي أولى، ومنذ تأسيسه، المثقفين عموما اهتماما فائقا، وأدرك طبيعة دورهم المتميز في التغيير. واعترف باستقلالية قرارهم فيما يتعلق بالشأن الإبداعي والمهني لهم. ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تكن كذلك في جميع المراحل. بل عانت أحيانا من اختلالات لصالح بعض قدامى الفنانين، الذي ينطلق في تعامله مع الآخر من روح الوصاية والهيمنة، والذي كثيرا ما شوش على التطلعات المشروعة للمسرحيين الشباب ووضع دون نشاطهم شتى المصاعب.

*** والآن وبعد عشرين عاما من الحروب، أين تضع المسرح العراقي أو الحركة الفنية العراقية من الحركة الفنية العربية؟**

لا يجلب الحديث عن المسرح العراقي للأسف سوى الكدر والأسى. سواء تعلق ذلك بالمسرح العراقي في الوطن أو هنا في المنفى. فبعد كل ما سببته الحروب وغياب

الديمقراطية من مآس وكوارث للعراقيين وعلى جميع الصعد الاجتماعية والثقافية والسياسية فلابد أن يصل المسرح هو أيضا الى مآل مزر. إذ اعتلت خشبة المسرح بعد انحسار المسرح الجاد، عناصر لا علاقة لها بتقاليد مسرحنا العريقة، وليس لها أدنى ارتباط بهموم الناس ومشاعرها فتحققت السيادة للمسرح التجاري الاستهلاكي، الذي يعتمد على إثارة الغرائز الدنيا، على استدرار الضحك الرخيص وإشاعة روح الخنوع والانتهازية، ومما يفاقم الأمر سوءا أن عناصر نسائية تسهم بشكل أساسي الآن في إشاعة الابتذال والتدني المريع للعرض المسرحي العراقي. ولا يسعني هنا إلا أن أقول أين هن من عطاء زينب، ناهدة، آزادوهي، وداد سالم، مي شوقي، إقبال محمد علي.. الى آخر هذه الباقة العطرة من فناناتنا، وأشيد بهذه المناسبة بالفنانات، نماء الورد، روناك شوقي، أنوار أحمد، اللاتي يواصلن في المنفى عطاءهن على هدى تقاليد المسرح العراقي وسط ظروف بالغة التعقيد. أما إذا انتقلنا الى المنفى فيحق لنا هنا أن نعلن اعتزازنا وتقديرنا بالجهود المضنية التي بذلها ويبذلها المسرحيون العراقيون لمواصلة نشاطهم بالروحية ذاتها التي اتصف بها مسرحهم العراقي وسط صعاب لا تعد ولا تحصى.

وعن وضعنا إزاء الحركة الفنية العربية فأعتقد أننا نبحر معا في قارب واحد. فالثقافة العربية تعاني، راهنا، من حالة ارتداد وانحسار خطيرين، إلا من التماعات هنا وأخرى هناك، بعد النكسة التي أصابت المشروع الوطني الديمقراطي العربي، وسقوط المعسكر الاشتراكي، وشيوع الفكر الديني الحديث ذي التوجهات الرجعية والمحافظة، والممتد بجذوره الى فكر (أبو الأعلى المودودي)، الذي يصادر العقل، ويزدري حرية الإنسان، ويشكك بقدرته على التغيير.. فلا عجب مثلا في ظل ظروف التراجع والانكسار هذه أن تحظى كتب الدكتور (مصطفى محمود) الماركسي سابقا بأعلى رقم في سوق مبيعات الكتاب العربي، وهي كتب تتسم بالتبسيط واستغفال عقل القارئ، وكأنها صكوك غفران بأسعار مخفضة. ولا عجب أيضا أن ينتقد (جورج طرابيشي) الماركسي السابق كذلك، المفكر (سمير أمين) على إحدى صفحات جريدة الحياة لعام ١٩٩٧ عندما تصدى لنقد كتاب الثاني – تحديات العولمة – مشبها إياه بوضع الجنود اليابانيين الذين بقوا سنوات طويلة يهيمون في الغابات ظنا منهم أن رحى الحرب مازالت تدور.. داعيا إياه الى إعلان الولاء للرأسمالية والاعتراف بفشل الاشتراكية، ومدعيا بأن الرأسمالية نفسها في مسار تطورها هي وحدها القادرة على تجاوز تناقضاتها.

*** إذا كان للنظام دور في تدمير الثقافة العراقية ومنها الحركة المسرحية، فأي دور تلعبه المؤسسات المضادة لهذا النظام؟**

تنتمي المعارضة هي الأخرى الى مجتمع ذي تكوين هجين، لم تتحقق فيه السيادة الى أي نمط من أنماط الإنتاج، كما لم تكتسب فيه الطبقات بعد قواماً نقياً خالصاً، محدد الملامح. ولذلك مافتئت الشرائح والفئات الاجتماعية فيه رهينة هذا الاختلاط وعدم الاتساق. وهي في حالة حراك دائم بين ولائها للأعراف والقيم الإقطاعية المهيمنة وبين نزوعها الى التغيير. وهو أحد الأسباب المهمة الى جانب عدم وجود ممارسة ديمقراطية يعتد بها، في إخفاق المعارضة، حتى الآن، في الاتفاق على البديل الديمقراطي. والمعارضة العراقية عاجزة بالتالي بحكم وضعها هذا، والأمر لا يتعلق هنا حتى بنياتها، عن تقديم عون فاعل الى المثقفين في المنفى، فهي نفسها لم تتحول الى حالة ثقافية، يزدهر في ظلها ما هو معرفي ومستقبلي، ليحل محل خطابها الفئوي، المتكئ على الاعتبارات الآنية، والمزدحم بالشعارات المجردة التي لا يربطها أي رابط بالواقع التاريخي الملموس، ولا تعبر كذلك عن المصلحة الحقيقية المشتركة لجماهير شعبنا. كما أنها تصدر في نهاية الأمر عن ايديولوجيات متعددة، ومنها ما يتقاطع مع الثقافة الحرة ذات التوجهات الانسانية. وهناك من يتحدث عما حققه المثقفون التشيليون أيام المنفى من إنجازات وعن الدور المؤثر الذي مارسته هذه الانجازات في مختلف حقول الإبداع على طرح قضيتهم، بما يعزز التضامن العالمي معهم، ويقارن ذلك دون تفحص بما فعله المثقفون العراقيون في هذا الشأن ودون أن يأخذ بنظر الاعتبار تباين الوضع التاريخي في كلتا الحالتين، والدعم متعدد الجوانب الذي قدمته أطراف المعارضة التشيلية لمثقفيها، وافتقاد المثقفين العراقيين على العكس من ذلك، الى أي دعم وعون مادي ومعنوي مؤثر من المعارضة العراقية. ومازلنا نراهن في هذا المجال على التيار الديمقراطي، رغم إمكاناته المادية المتواضعة.

*** لنعد الى مسرحية السيد والعبد، ماذا تمثل بالنسبة لك شخصية السيد؟**

شخصية السيد في المسرحية، شخصية مركبة تند عن التنميط والتبسيط في التعامل معها. فهي ليست شخصية مكتملة ومنغلقة على أناها وإنما هي شخصية مشروطة بظروفها وزمانها، تتأثر بمحيطها وتؤثر أيضا فيه. وانطلاقا من التأثير المتبادل هذا

تتشكل مواقفها وتتباين عواطفها وآراؤها. بناء الشخصية هذا المتسم بالثراء والغنى، أتاح لها إمكانية الخروج من مسارها الخاص، لتحل ضيفا مؤقتا إن جاز التعبير، على شخصيات أخرى متباينة الأبعاد والموقف، لتعرض لنا أحوالها وطبائعها، ومن ثم ترتد ثانية الى عالمها الخاص، الأمر الذي يسهل على ممثل هذه الشخصية أن يغرب أداءها، فينزعها من حضورها المألوف والمعتاد ليضعها في حالة جديدة، تثير انتباه المشاهد، وتضع مسافة بينه وبين الشخصية، فيتحول من متلق سلبي الى مشاهد فاعل، يسائل النص ويدخل معه في حوار واع، بل وربما يتناقض معه. وإذا ما غادرنا البناء الفني للشخصية فأرى أنها تمثل شريحة من المثقفين الذين تتميز مواقفهم بالتأرجح بين الانحياز الى سلطة الاستبداد والقهر ويمثلها في المسرحية – القصر – وبين الاصطفاف الى جانب الشعب في نضاله من أجل العدالة الاجتماعية والحرية.

*** هل أضيف شيء للنص، أو جرى الخروج عنه، ولأي سبب؟**

لم يجر الخروج عن النص، بل التزمنا به كما هو. فهو نص كما قلت، محكم البناء ومكتوب بعناية واقتدار. وكل ما قمنا به هو محاولة تعريق المسرحية، سواء كان عن طريق إضافة بعض المقاطع باللهجة الدارجة، وفي ما يتعلق بدوري، قمت أنا بهذه المهمة. أو أيضا عبر التلوين في الإلقاء، بما يقارب زمننا الراهن ويجعل المسرحية أكثر معاصرة وراهنية. وأعتقد أن هذه الإضافات لم تخل بوحدة النص واتساقه، بل جاءت منسجمة مع روحيته وخطه العام.

*** أخيرا ما هي مشاريعك القادمة؟**

أطمح ألا تكون هذه المسرحية هي الأخيرة، وظروف المنفى ليست مشجعة، ولا يستطيع المرء، اعتمادا عليها، أن يتنبأ بما سيقوم به مستقبلا من أنشطة.

محطات فنية

* الفنان منذر حلمي، عضو مجلس نقابة الفنانين العراقيين في الدورتين الأولى والثانية وعضو لجنة المراقبة في الدورة الثالثة، كما أنه عضو المركز العراقي

للمسرح وسكرتير فرقة مسرح اليوم منذ عام ١٩٧١ حتى ١٩٧٩.

* نال جائزة المركز العراقي للمسرح كأفضل ممثل للموسم المسرحي ١٩٧٤ – ١٩٧٥ عن دوره في مسرحية (عروس بالمزاد).
* كانت بداياته في مسرحية (شعلة في الصحراء) من إخراج الفنان (أسعد عبد الرزاق) عام ١٩٥٤، وتعتبر من نشاطاته المدرسية. كذلك مسرحية (البخيل) لموليير، من إخراج الفنان (جعفر السعدي) عام ١٩٥٥.
* مثل في مسرحية (مسرحية في القصر) إخراج الفنان (محسن السعدون) – فرقة المسرح الفني الحديث.
* وفي (الكورة) من تأليف (طه سالم) وإخراج الفنان (محسن العزاوي) – فرقة اتحاد الفنانين.
* ومن إخراج الفنان (عبد الوهاب الدايني) مثل:

  ١– البيت الجديد. تأليف (نور الدين فارس) – فرقة اتحاد الفنانين.

  ٢– بهلوان آخر زمان – فرقة المسرح الشعبي.

  ٣– العطش والقضية. تأليف (نور الدين فارس) – فرقة مسرح اليوم.
* أما للمخرج (جعفر علي) فمثل:

  ١– السؤال. تأليف (محي الدين زنكنة) – فرقة مسرح اليوم.

  ٢– عروس بالمزاد. تأليف (نور الدين فارس) – فرقة مسرح اليوم.

  ٣– روح اليانورا – فرقة مسرح اليوم.

  ٤– قصة حديقة الحيوان – فرقة مسرح اليوم.

  ٥– مواطن بلا استمارة – فرقة مسرح اليوم.
* مثل في مسرحية (دائرة الفحم البغدادية) تعريق (عادل كاظم) وإخراج الراحل (ابراهيم جلال) – الفرقة القومية للتمثيل.
* أخرج في بيروت (قصة الدكتور بالمي) لفرقة الغد العراقية.

قصة قصيرة

Tu ne quit pas

تو نو كيت با ..

رجاء أحمد الزنبوري

يقف تحت الأنفاق بخريفه وخريف الأنغام، منكفئا في مصابيح "توتنهام كورت رود"*. ليله يطغى على ليل الحزن والتذكر. بقامته الباسقة السوداء، منطفئا في البلد الثلجي الأبيض. في حضنه تتموج أمواج الغيتار وترا وترا. على رأسه قبعة أشواك غريبة، غرابة وجوه المارين على ناصية الأوهام في ليل "توتنهام كورت رود". وهو يعزف. ينقر الوتر فينطلق النشيج. نداء ذابل لصوت مقرور. واللحن يتكسر ويكتظ بانعكاس الصدى والمرآة:

تونو كيت با
لا تتركيني
تونو كيت با
لا تتركيني
تونو كيت با

تنتشر عبر سماعات الرؤوس المحشورة في آذان الشباب العابرين، ضجة الساكسافون وصخب "البوب المجنون". تتضافر إعلانات قطارات الأنفاق ومكبرات

* اسم محطة أنفاق في لندن.

الصوت تلقي على المسافرين والأنفاق الأرضية تـــاريخ المواعيـــد والقـــرارات الأجـــش بترنيمات مرورية معهودة.

لا يسمع أحد أنغام نقرات الغيتار الخفية المتباعدة. يبدو الصوت أشبه بنقرات متلاشـية لمطر ينشج على زجاج النوافذ. والدفء يحرس العابرين في قطارات الأنفـــاق. يجمعـــهم لوهلة ثم يطلق سراح خطواتهم المبتعدة

تونو كيت با
.. لا تتركيني
تونو كيت با ..
لا تتركيني ..
تونو كيت با

يتطلع الرجل المغني الى قطع النقود النحاسية تتكوم تحـــت أقـــدام الغيتـــار. يعـــزف ويعزف دون أن يسمع أحد مهرجان أنغام خريفية تتثال. تتصدع. لا يفهم العـــابرون ســـر المعاني، وحفريات كلمات المغني. في النظرات نشوة غافلة، واسترخاء حـــذر، وذاكـــرة تطريب صغير، بل واندهاش لانبعاث أغنية شارل ايزنافور المنسية على رصيف محطـــة المسافرين.

العجوز الوحيدة التي ترقرقت في عنيبها دمعة لم تكن انجليزية. والغيتار ظل ينـــوح وينحب لم يعد يستلم من صاحبه الإيعاز. بدا العازف ذاهلا والغيتار وحده ينحـــب بعنـــاد، وبحزن يائس

تونو كيت با.. تونو كيت با

ينحني الرجل، يتطلع الى حبات النقود الرخيصة مستغرقا في ذهول. تنفـــرط حبـــات الدمع. تنساب في نقرات ختامية للوتر المقرور. يتوقف الجسد عـــن الانحنـــاء، فتنـــهمر الأصداء.

يسحب المغني أوتاره وأحزانه، ويخلف النقود على رصيف توتنهام كـــورت رود". لا أحد يرى نقود المغني. لم يسمع أحد نفثاته الحزينة:

تونو كيت با

وحين صمت الرجل لم يسمع أحد صوت الصمت. تتكفئ ضجة اليوم عند انتصاف الليل الغارق في الظلمات. تنطفئ ألحان الليل في منفضة الصمت الغارق في الأسمال..

تونو كيت با.. تونو كيت با

يجرجر الرجل أسمال حياته. صمته وصورته والألوان الذابلة التي ضاعت على رصيف قطارات "توتنهام كورت رود" لا يأبه إليها أحد.

يلملم الرجل آخر بقايا نشيجه المقرور. يفتح صرة أحلامه، فيتناثر الغبار، غبار البروق الكاذبة والأوهام الماجنة. ويحاول أن يلتقط الأنفاس.

يضع في صرة الأوهام بقايا الغيتار. ويرتب مدارج النشيج ويرقد بين الأصداء:

تونو كيت با..
تونو كيت با..
تونو كيت با..

نيسان ١٩٩٧

مساء ونارنج وأفكار عالية كالقمر

[الى ك . ح]

عدنان الزيادي

كنا نتبادل النظرات
واقفين
وأكبادنا فدى لصغار يدحرجون
أشياءهم من عل
الى أعماقنا المرفرفة مع فراشات
لاهية رغم الدوي.
حسنا
واقفين أو جالسين
بصغار يهاجموننا بمسدسات ماء
أو بدونهم الى الأبد
أو قل نائمين على مصطبة ·
في موقف باص ببغداد
الى صباح فتش الجيوب التي خوت
عندما شربناها في اتحاد الأدباء مغشوشة
والمازة نظرات تشحذ الأقلام
كليلة تسبق الأضحى
وسمعنا الدم يشخب

رغم أننا قد دفعنا الحساب قبلاً
وأفلسنا
مبديان امتناننا لأشجار تلطف المساء
فكن لطيفا معنا يا غد
يا ثمرات نارنج سنقطفها بحشرجة
كلما نريد أن نضحك.

ولأننا نتبادل النظرات
مأخوذين بمدينة هناك
بنهر فرات يشطر المدينة نصفين
نصف لحنطة أحنت ظهور حمالين
وفلاحين ناموا بين محاصيلهم
حالمين على الرصيف بأرصفة أخرى
يغزونها في صيف آخر
إذا ما أمطرت
ونصف لحديد يختلق سكة لمسافرين الـــى
محبوباتهم

ومحطات لمراكب
ودراجات
وجمال لقاصدي عيون المها المبثوثة في الأغاني
ومعسكر يوقظ الجنود كلما ناموا
ويبعثهم مع الغبار الى الدوامة
والنصفان لسنمات يتسابقن على عروض
أيها رأيت
رأيت راقصات يخضن بأفخاذهن أدغالنا
ونحن نصفان أيضا
يقتسمان أحلام مصلح دراجات
يمشي وموته يتقدمه
وبائع أسماك في حضوره كأنه يحمل الشبكه
وفي أحاديثه أنهار
ورياضي يسجل أهدافه البلشفية
في ملاعب ألهبت الجمهور
وحلاق يفكر بمقاصل لعدو الطبقة
وامرأة تعلق صورة لينين
مثابرة على أمية في دكانها الشحيح
وماذا نقتسم أيضا؟
خذ أحلام ثانوية البنات إذا طلعت أقمارها
من بين سياجات الى الحريق، وهناك
إطفائيون، تخير خوذة منهم وتسلق الى
شعلة لا تنطفئ مادام الواقفون بانكسار
يظلون منكسرين أمام مستشفى إسعافها
الوحيدة لا تسعف، بل تخلط بين بيوت في
زعيقها الجارف مرضى وأصحاء

وخذ الإسفلت نهبا الى جسر معلق لن تمر
تحته أوزة أرخبيل،
لكنه قمرك
الذي لامس ذؤابات النخيل نازلا الى
مويجات سينهرن قصبا كتلميذات إذا
أعاقهن عن نزق شد شريطين من حول
الجديله
وكسر الشعاع أمواج
أمواج
وهكذا تشهد من فوق ذاك الجسر حروبا
دون صوت
وقد ترى أعاصير محيطات في تلاطمها،
هنا
ولن يغير الوقت عقاربه
فهي الثانية عشرة
إن أردت الثانية عشره
فالنصب عال في أول الجسر
وموضع الساعة ينحرف درجات عن
مكانه.
وبذا
تحررت من الوقت أيها المساح
وأفلت من قياس أراض سبخة
مجرجرا الطاولة الى مكانك المفضل
قبل أن يأتي الجميع بفوضاهم فلا تعرف
ما لك
وما لقيصر.
ولو ظللت قليلا ها هنا
متأملا وجهك في زجاج البار وحدك

باقيا ريثما أعود
فهي ساعات
أسرح فيها عنفواني
ويصفق لي الضباط
والأمن
والمقاولون
والتجار الذين أضحكهم دوري المهرج
رغم يأسي
ويأسك لا شك أضحك آخرين
في غيبتي
لأننا نكتمل في اليأس
وحجتنا قميصان مفتوحان
لطعنة واحدة
فإذا مت انتظرني لتراني
أهز عمودا ما في شارع البلدية
قائلا له يا أخي يا صديقي

سقطت أوراق الأعناب
وسقط الصيف مع الأوراق
وسقطت أوراق أخرى عن جدران البيت
وتعرى الحي باستسلام
لشتاء يتقدم
بالبرد الخيال
وسياط بيد البرد تجرحنا
وتجرح غيما في إثر غيوم
وأعيد إذا لم تسمعني
سقطت أوراق الأعناب
وسقط الصيف مع الأوراق
وسقطت أوراق أخرى عن جدران البيت
وتعرى الحي باستسلام
لشتاء يتقدم
بالبرد الخيال
وسياط بيد البرد تجرحنا
وتجرح غيما في إثر غيوم
فتعال معي ندخل على الشـــتاء ضيفيـن،
رافعين أطراف بنطالينا وقافزين من هاهنـا
الى هاهناك نقلد أطفـــالا يصـب عليـهم
السياب أمطاره، ومجاعاتـه تـهدد كـرم
الضيافة فتصطفق الأبواب
إن لم تصف شباط في قصائدك الممطره
وإن لم أمسرح الظلام
جوقتي نساء ينادين أطفالهن أن يعودوا
ونعود نحن من حيث أتينا، إن كان لنا أهل
وبيت في ذلك المطر،
والقصائد في عز الشتاء
توقد النار لشاردي أفكار
تتطاير أوراقهم وهم يرسمون
سنأخذهم معنا أولاءك الشبان
الى ساحاتنا
مدججين بأقلام رصاص
وفي خواطرهم أقواس قزح
قل لهم ارسموا خيولنا
وكيف تحطم السياج
تريد الفضاء واسعا
فلا تبدو الجراح
الى حد نعض على شفاهنا

عائدين من الجولة
وقد خسرنا الرهان
يا خيولا ضاربة الى لون الشفق
والصهيل بعثر السروج في مدينة
أهلها جرحى يداوون جرحى
أترون
يا رسمي كاظم
يا سعد علي
يا فاضل محيسن
يا نعمة "إن كنت حيا"
يا بشير، أترون
كنتم ترسمون لتهدئة الجريح،
وبعض من المواساة يكفي
وبعض من الحب أيضا، ولكن
الكثير، الكثير من الخناجر في أحزمة
الذين جاءوا
ليطعنوا مروج الأقمار في الصميم
ويطاردوا ممثل الأدوار من مسرح الى
مسرح
مسدلين ستائرهم على الحقيقه
كشعراء يروجون لغبار غير هذا
سيلفح وجه أمي وأمك
جاءوا
وحطوا تباعا على الطاولة
خناجرهم مع الأغماد
ملمحين الى مصائر ما:
أترى كم تكون الحياة جميلة معنا
فهاتا لنا المدينة بنصفيها
بكل ما أحببتماه فيها
وصاروا يلتقطون كسرا قمرية لشاردي
أفكار
أوراقا لرسامين
كلمات كنا سنقولها قبل أن نتبادل النظرات
وفي فراقنا وعيد
يبرم منقوضا
وينقض مبرما

١٩٩٨/١١/١٣

بعيدا... عن الغابة الزجاجية

جمال غمبار*

[الى (ماريانا) في عذاباتها الجميلة، في قراءة أسرارها المعلنة]

في موجة متروكة بين تجليات البحر
وجنون القصائد، بحثت عنك
عن ظلك..
في المرايا المضاءة بشموع الكبرياء
بحثت عن اسم لك
بحثت عنك في كؤوس ملؤها السم والياقوت
بحثت عنك كغريق في قاع الليل..
بحثت.. وبحثت
ومشيت مع الفجر.. مشيت مع الأنبياء في وصاياهم الأخيرة
بنيت جدارا من الكلمات
شيدت محرابا من الوجد ودخان الغربة
بحثت عن وجه غجري

* شاعر ومحام من السليمانية. له نتاجات شعرية باللغتين الكردية والعربية، نشر معظمها في الصحف والمجلات الكردية والعربية الصادرة في العراق وفي إقليم كردستان.

عن قلب، أتعبه التيه

بحثت عن قلب، صار بيتا لجرأة امرأة

تأتيني صباح كل خميس من وراء الأحداق

وتحاورني حول دموع، ذرفتها فراشات مرتعبة

امرأة تغيب رسائلها عني أيام الجمع، وأيام عزاء الطواويس..

امرأة، بحثت عنها، داخل قفص تملأه طيور محترفة في اغتيال الأحاسيس

طيور كاسرة، سرقت تفاحة أنوثتها،

عبرت برزخ سمواتها..

طيور، أكلت من تغاريدها

ولم تبق من نظراتها، سوى ضوء سرمدي!

* * *

- ماريانا.. أيا جاثمة في كل ركن معتم،

في كل زاوية من زوايا الكنائس..

إني بحثت عنك ومشيت مع الله، ودخلت باحة القيامة

ماريانا، يا امرأة

صليت من أجل الظفر بذنوبها الجميلة، وتمردها الطفولي

- ماريانا.. منذ أن مكثت في هذه الغابة الزجاجية

منذ أن دخلت هذه الجنة المهدومة

منذ أن وقعت في شباك القصائد

منذ الألف قبل الميلاد..

منذ... ومنذ... وأنا أبحث عنك..!

أمشي مع الله.. وأبكي مع الله..

وأصلي على سجادة البحر، من أجل خطاياك البريئة!

- ماريانا.. هراء أن تقتربي من سراب، اسمه الزمن الرديء!

هراء أن تسترقي السمع الى آهات لونتها دموع هاربة من أسوار المطر

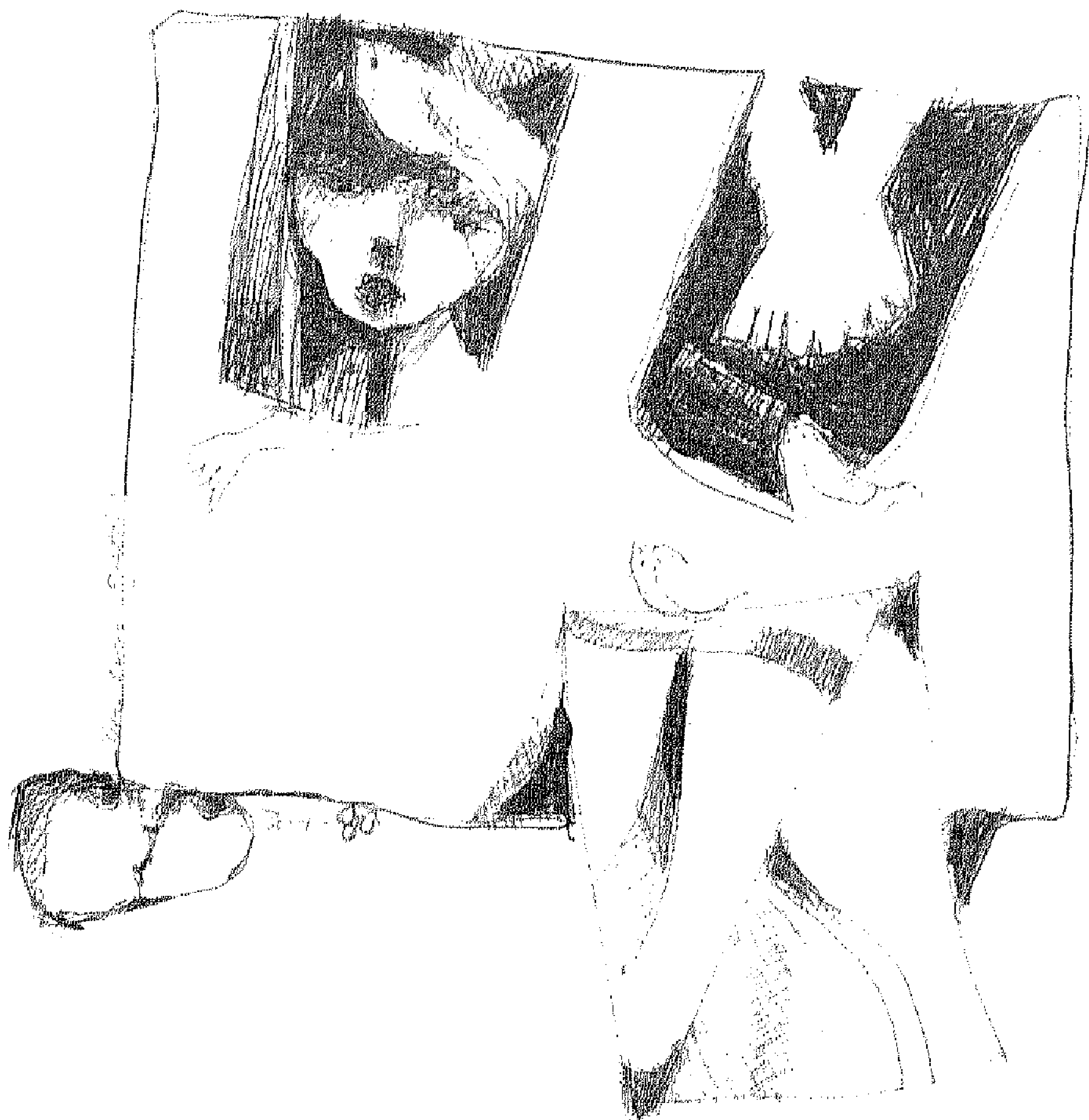
ماريانا..

حديقتي الكئيبة تنتظر..

وهناك في الغابة الزجاجية.. الطيور الكاسرة تنتظر

وكائنات الجسد تستفيق
ونبوءتي تتراقص
وأغصاني الخائبة تغني..
كلها:
نبوءتي، حديقتي، مخلوقاتي.. تنتظر قبالة صباحات مزدحمة، بأسرار وعذابات جميلة!
– ماريانا..
أيا جاثمة في أسفاري ومسودات قصائدي
أيا محكومة بلحظات غفوتي
وساعات قتلي
محكومة برياح منافي الأزلية..
أراك نائمة في ثنايا حلمي المهشم،
أراك واقفة بجوار السكون
وقرب نار الاحتمالات الوردية
حاملة فوانيس الفردوس والجنائن الغائبة
أراك ترسمين قصيدة لم تكتب بالكلمات..
أراك تنثرين أسرارا معلنة
على طفل مشاكس.. هو، أنا!
أراك، معلقة على صليب من الزوال
سائرة في ليل حدائق مصنوعة من الأوهام
ماريانا..
ماريانا..
لا.. لن أترك حدقاتك في هذه الغابة الزجاجية!

السليمانية
١٩٩٦



إصغاءات تحت مظلة غريبة

فارس فرات*

*[إلى سلفيا بليث.. المرأة التي عبرت الماء]***

تحت غبار من شبق للدمع
أحاول النجاة من تقاطع بين جسدي الهارب الى فضاءات بعيدة
وفيزياءات تدير دفة القافلة نحو مسافات أبعد
.. أراني أتهجى عزلتي
.. أهجم على رسائل قديمة أغمرها بالدمع
أصرخ بالريح أن كفى..
.. كفى عويلا
هذي صلاتي لرب لم أميز سوى كفيه الخشنتين
أنا الهارب الى جزائر اللغة الأخرى
مدليا ساقي في طرف قصي من العالم هازئا بكتب التاريخ
لاعنا زورقي الذاهب رغما عني الى سراب الشواطئ
أنا لا أملك مراثي لكل الحزن في هذا العالم
قد أعرف كيف أؤثث غرفات قلبي لفجيعة قادمة

* شاعر عراقي مقيم في المنفى الأمريكي، وهذه ترجمته لقصيدته المكتوبة – أصلا – باللغة الانجليزية.
** سلفيا بليث: شاعرة أمريكية انتحرت عام ١٩٦٣ و"عبور الماء" من أكثر مجموعاتها الشعرية التي نالت إعجاب القراء والنقاد.

ربتما أكون بارعا في العزف لقداس قادم
لضحايا حرب خاسرة
من ربح الحرب؟
لم تغادرني الطرقات الأليفة بعجالة؟
كل ما أعرفه أن رسائلي لا تصل
والرمل يطارد إخوتي الأشجار
– فيفالدي يتوقف عن فصوله الأربعة، فجاءة وبلا سبب محدد
سأخرج – اللحظة – لشوارع العالم
معلنا بعض ارتباكي
علني أجد الله مختبئا – في مكان ما –
ينشد بعض الدفء
مشاركا الغرباء نبيذ القرى
علني أعثر – ولو لهنيهة – على صورة لك منسية في محطة ما..
أواه يا امرأة
في هذا التيه أتوق للتحالف مع دفء الغابات ولون النبيذ
كي أعلن كم كنت تملكين من قداسة النشيد وقسوة الملكات؟

قصيدتان / لحظتان

ناصر سرحان

لحظة حلم

ها أنت مازلت تحلم أن يأتيك الماء بنكهة الفرات
وفرحة الصواري، وظلال السفن المتعبة
وبهاء الشاطئ يغشي حماقات النوارس، وأسرار الصبايا، وصمت الطمي.
وأنت تخبئ لليل أسرارا أخرى
أو أحزانا أخرى
أو أسئلة أخرى
من يعرف عمق المدية في الجرح؟
من يستنطق روحي كي تعلن عن هذا الخوف؟
إن من بايع غربته ينكث بيعة هذا الوطن.

هوغفين – هولندا
١٩٩٨/١٠/١

لحظة صمت

هادئة الغرفه!
فمن أين يأتي كل هذا الضجيج؟
أتسكن تحت الجلد الغابة؟
أم أن روحي عاودها الحنين؟
ملعون جسدي، ملعون هذا الطين
أهو طمي الفرات؟
أم غبار النخيل؟

الغرفة هادئة حقا
الجدران الستة تخنقني
وضوء العتمة يرقبني
كي أخفت أنفاسي، وألوذ بصمت دمي، بصمت الوطن
بدخان حرائقي، بغدي المعلن خوفا، بسنين شتاتي وبؤس حقائبي.

الغرفة هادئة! إلا من ظلي وفوضى أوراقي
أحلم أن أرسم خارطة للحزن، وأتكئ خارج تلك اللوحة، هادئا كالتابوت.
لكن الضوضاء تهاجم أحلامي، فتمحي حدود الخارطة
وتتكأ جرحا يرقد مذ عقدين
جرح يسكن بين النهرين،
فتصبح كل الأشياء قطعان ذئاب جوعى.. تضج بالعواء.
أهادئة الغرفة الآن؟

هوغفين – هولندا
١٩٩٨/٩/١

تجليات الداخل والخارج

أحمد هاشم

أنت:
بنيت المدينة ورفعت الجدران
بفيض الألوان...
مأخوذا بسحر الطفولة
تسرق الطباشير وترسم أشياء على الجدران
وأشرعت النوافذ والأبواب لحياة...
كأنك تغض الطرف عن سهام...
... تهبط حتى قاع البئر
تحدق في الأسماء المنسية
وضحايا الحرب...
تهبط... تتلاشى في صورة شخص مجهول في صحراء،
أعوام وأنت في الصحراء...
تصعد وتصعد... جنائن تطعم الشمس ألوانها
أي ملكوت بنيت، سيدي؟
تذبح الأزهار مثل الطفولة على أفواهنا
هكذا اعتدنا
وما تفوهنا... إلا وتبعثر الدم على كتب المدرسة

لا تقل: أعطني الوطن بخرابه
وخذ المنافي بجنانها...
أتعثر في غسق يدثر القافلة بالسعال
وأرى العيون الجاثمة في (العراق) تطل
نحو نجوم في آخر العتمه:
(كم ... ... ؟!
كم ... ... ؟!
وكم مرة ضعنا في بلادنا؟!!).
والأرغفة وجوه من خشب
أو شكل حارس منحوت
سأعانق الموج إذ الأرض خراب
وأخبئ الكلام لأفول آخر...

*

تتسع خطاي... (حين تضيق العبارة)
وأفيض اشتعالا

*

شرودا..
شرودا...
أسعى الى آخر الحديقة، محاولة أخرى
أفصل الشوك عن الورد
لاتق... أذكر هروبي لأنهار لا يعرفها

سوانا..
أغني لبنفسج ينأى...
تسبقني الشفاه آفلة في الأفق تبحث عـــن ابتسامه...
وأعرف.. أعرف أنني أقاسمك سرابا
وسماء نخلقها في الليل
تتهشم قبيل الصباح
فنطفق في ملامح مدينة
نصغي لعشتار تقـــرأ الكــف لأطفـــال العراق:
(... ... ...
... ...)
ولكن: خلف الطريق الداكنه
ثمة باب الضوء...).
اذكر أفعى تطل من عين الزعيم
مندهشة! فينا تحدق، حيث كريات الـــدم شرنقة
تكتنف فراشات تولد توا
تسحبنا من خراب...
وخارج السور مشنقة بجمال أخاذ
اسمها الكتابه
آه
(ما مر عام والعراق ليس فيه جوع)
- آه واحدة لا تجدي
حين تخون الأشياء عاشقها
والأشياء تلوذ في عشقك الصوفي
دليلا... لسهام الزعماء
تتوهج الأشياء.. تتوهج
تحنو عليها الى أي فناء...
بين الداخل والخارج [و] منحنية
والأرض تدور
كيف الثياب؟ ونسغ الاغتراب مراث
فمشنقة الكتابة تحاورك حالمـــا تتـــهادى
أحلام الجياع من المدينة...

"ملحق خاص بتجليات الداخل"

كنا نحمل أشجارا على أكتافنا
يستظل بفيئها الأباطرة

"ملحق خاص بتجليات الخارج"

في المنافي البعيدة
تهجر العناوين القصائد
وأسراب الطيور بلا دليل

"ملحق خاص بي"

كلما احترقت الروح، بكت غيمة...
لأحيا مجددا... للعذاب

رفحاء – ملبورن/ ١٩٩٦

هاجس

نجم محسن

كل صباح
أحفر نفقاء يؤدي بي الى نهاية العالم.
أفتح فيه بابا يطل على النسيان
أرى سقراط فيه نائما
قابضا على لحيته
ناظرا الى المجهول.
كل مساء
حين أعود الى البيت، أرمي كتاب حياتي
تاركا كلماته تلوث الأرض
خاتما عليها بالشمع
أسمع صوتا يقول
"اقتله
إنه أتى
إنه أتى"
كل ليلة
حين أنام، أترك يدي مرفوعة
لعل الله في الحلم، ينسى ويصافحني،
يضع يده في يدي، ويقول لي: لا خصام
بعد الآن.

١٩٩٧/١١/١٥

متابعة

سحر الذوبان في البيئة

[قراءة في مجموعة فاروق أوهان (هديل على الحدود)]

محمود سعيد

لذة الاكتشاف:

في أول مرة زرت تل قايونجق، وهو مجمع آثار الآثوريين* القريبة الى الموصل، فوجئت بضخامة التماثيل وبخاصة تماثيل الثيران المجنحة، كان عمري نحو ثماني سنوات، وأخذت أتنقل بين تمثال وتمثال من دون اهتمام، ولو لم ألتق تلك المعلمة التي كانت تدرسني لما تعلمت لذة الاكتشاف، استوقفتني المعلمة، سألتني فيما لو كنت قد رأيت التماثيل، ولما أجبت بنعم:

- أليس عندك أي سؤال؟

- لا.

- إذن أنت لم ترها.

- بلى رأيتها كلها.

- لا.. لو رأيتها لسألت: لماذا أصبح للثور وجه إنسان؟ اذهب.. انظر إليه جيدا.. لنر كم سؤالا تستطيع أن تستخلصه منها!

آنذاك تعلمت كيف أستخلص الأسئلة التي تقودني الى لذة اكتشاف الأشياء، والتي

* الصحيح آثوريون، لأنهم كانوا يعبدون الثور، لكن الأوربيين المعاصرين لهم ما كانوا ينطقون الثاء فقلبوها الى شين أو سين، كما قلبت ثاء آثوريا أيضا وحولت الى سوريا. *

رافقتني طوال عمري، ليس المهم أن نعرف كل شيء، المهم أن نستخلص الأسئلة التي يطرحها الشيء، أما الأجوبة فسنهتدي إليها يوماً ما، طال الزمن أم قصر، ومجموعة (هديل على الحدود) لفاروق أوهان تثير عشرات الأسئلة التي تقودك الى لذة اكتشاف تغرقك في متعتها التي لا تنتهي فما علاقة حنين بلا ضفاف بلذة الاكتشاف؟

الندم والأسف:

لكم أشعر بالأسف العميق لأني أغفلت الكتابة عن هذه المجموعة الرائعة، الندم يتآكلني، كان علي أن أقدم هذه القراءة منذ صدورها قبل عامين، لا لأنها جيدة وممتازة فقط، بل لأن فيها نكهة الجبل ومدنه، والبراري التي تحيطه، والتلال التي تنزرع في أفقه، الهضاب التي ترتفع وتنخفض على مد البصر، العادات والقوانين والأعراف التي تتحكم فيه والتي نشأت فيها، وباختصار شديد: المحيط الذي أعشقه وأعشق نباتاته وأعشابه وألوانه، وألحان شعوبه البسيطة الطيبة الكريمة وطقوسه ورقصاته ودبكاته في وقت الربيع، وتنوع فسيفسائه ونمنماته وأديانه وطوائفه وأثنياته التي لم يسبر غورها أحد الى حد الآن.

تلك بيئة شمال العراق المتفردة الساحرة التي تذوب فيها شخصية وأدب وكلمات وقصص فاروق أوهان في (**هديل على الحدود**) لتكون صورة فنية لا حدود لامتدادها، يتداخل فيها التشكيل والواقع، ريشة الرسام وزيته وخيالاته، الفوتغراف وكاميراته، القلم وحبره، الفكر والواقع، الصوفية في أسمى معانيها، والعسكرية الفظة في أقسى أشكالها، الكنائس والجوامع، أصوات مرتلي القرآن والأذان وأجراس البيع والكنائس، البيوت والكوى المحفورة في حيطانها، الأبواب الخشبية المزخرفة، والشبابيك وزخارف الحديد التي تغطيها، زهور الربيع البرية ونباتاته وو.. الى ما لا نهاية.. أيستطيع قلم بسيط أن يصور حياة كاملة مفعمة بالخصوبة؟

سيقول الجميع: لا.. لكني أقول نعم، لأن قلم أوهان صور كل شيء.

ربما يعود سبب تأخري في الكتابة عن هذه المجموعة الى أنني أردت أن أقدمها بصورة مثالية تعادل أحلامي وذكرياتي التي تسحبني من دون شعور الى سعادتي، مرتع صباي، طفولتي، وهذا مستحيل، كيف يمكن أن يكون الواقع معادلاً للخيال؟

لم أستطع أن أعبر ولن أستطيع.. فالتعبير يعني أن أعادل نبض الوجدان بكلمات، الأحاسيس بحروف جامدة، الهناء بجمل، تهييت، كيف يمكن أن أبدل كل ذلك السحر بكلمات؟

أليس هذا ضرباً من الجنون؟

هذا ما أحسست به عندما قرأت ما كتبه (فاروق أوهان) في (هديـل علـى الحـدود) نعم.. لعله كذلك، ولعله سيكون ضريبة حب تلك البيئة الرائعة، البيئة التي عبث المغـول بها ومازالوا يعبثون بها منذ سقوط بغداد قبل سبعمئة عام والى حد الآن.

ضريبة الانتماء:

يدفع العراقي ثمناً باهظاً لقاء انتمائه لهذا الوطن العريق في وقت فاسد مـأزوم، فـإن كان إنساناً عادياً يجب عليه أن لا يقول لا منذ أن يولد والى أن يموت، أما بالنسبة للأديـب فلا يستطيع أن ينشر أي شيء مخالف للرقابة مهما كان ذلك الاختلاف، فعلى سبيل المثـال لا الحصر صدرت عشرات المجلات الأدبية في العراق قبل ١٤ تموز ٥٨ لكن لم تبقَ أي مجلة أدبية أكثر من شهر واحد، ولم تصدر أكثر من عدد واحد أو اثنيـن منـذ أن شـكل الإنكليز الحكومة العراقية سنة ١٩٢١ ونصبوا دميتهم فيصل الأول ملكاً على العراق.

بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ أجيزت المجلات الأدبية لأول مرة، لكن تلك الحرية لم تلبث أن انتهت الى غير ما رجعة بعد ٨ شباط ٦٣.

انعدام الحرية في العراق وخلوه من المجلات الأدبية، والتشجيع والنشر جعل الأدبـاء العراقيين يلجؤون الى المجلات الأدبية في الخارج والتي عاملتهم بانتقائية ومزاجية فمـات أدبياً الكثير ممن لو تيسرت له ظروف النشر لكانوا من القمم.

لكن من حسن حظ (فارون أوهان) أنه لم يمت، لأنه اختار منفـاه بإرادتـه خـارج العراق، وإلا كان كغيره في "خبر كان"، لكن هل كان المنفى هو الحل؟

نشر (فاروق) أعماله في أكثر من قطر عربي، كان حسن النية، كان يظـن أن قيمـة الإنسان.. الأديب تثمن من خلال أعماله! لكنه كان واهماً، لماذا؟ لأن القطرية ترسـخت، أصبح فاروق أوهان وغيره من المنفيين والهاربين ضحية أفكارهم المثاليـة، ففـي هـذا الزمن الصعب لا يجلب العمل الأدبي مهما كان متفرداً وممتازاً اهتمام النقاد إن لـم يكـن الكاتب محسوباً على فئة ما، اتحاد ما، رئيس تحرير مجلة ما، وبهذا فقد فـاروق وغـيره من المنفيين والهاربين كل ما يمكن أن يكون وسيلة للتقويم أو التقييم، فأين يضـع المبـدع قدمه في هذه الفوضى؟

وقع فاروق ضحية مبادئه السامية، لم يدرك أن بقية العرب خـاضعين لقـانون المـادة، قانون المصالح الشخصية، المنافع الأنانية، التعصب للمنشأ أو القطر أو.. خاضعين لقوانيـن

السهرات والمحسوبية والمنسوبية، وإلا من كان يعتقد يوما من الأيام أن شاعرا أقل من وسط (ابراهيم نصر الله) أو كاتبا متواضعا كفهمي جدعان يفوز بجائزة العويس! أكان أحدهما أو كلاهما فاز بها لولا وجود (إحسان عباس) في لجنة التحكيم! بينما تحجب نفس الجائزة عن شعراء وكتاب، عاشوا في المنفى، وهم أعظم وأهم، لكونهم غير مرشحين من اتحاد كتاب ما، أو ليسوا مدعومين بمحكم منحاز، وأمثلة هؤلاء المستحقين المغبونين كثيرة منها الراحل هادي العلوي، أو علي الشوك أمد الله في عمره، على سبيل المثال.

هذا حال أوهان ومن شاكله ممن أجبروا على ترك مراتع صباهم.. فهل يقدر له أن ينجح من غير سند؟ أن يعوم عكس التيار؟

الكم والنوع:

هناك معركة دائمة بدأت منذ فجر الخليقة ولم تنته الى حد الآن، معركة النوع والكم، فعندما نقرأ ما ينشر من قصص قصيرة في أرجاء العالم العربي نفاجأ بذلك الكم الهائل من المجاميع والمنشورات، فعلى سبيل المثال لا الحصر وجدت في المجلات التي وردت إلي، خلال شهر واحد، إحدى وسبعين قصة قصيرة منشورة في بضع عشرة مجلة، أما إذا أضفنا ما ينشر في الجرائد اليومية والأسبوعية فسيكون الرقم أكثر من مئتين، هذا في مكان محدود من الوطن العربي، وإذا أردنا أن نحيط بكل الوطن العربي فسيكون العدد بالآلاف، أي ناقد يستطيع أن يقوم أو يقيم كل تلك القصص؟ وعلى عاتق من يقع التقويم أو التقييم؟ هنا يجب أن تخضع الأمور الى منهجية تقوم بها لجان مسؤولة مهمتها غربلة هذا الكم الهائل بعيدا عن الانتقاء الكيفي، والتغليب المصلحي، واستبعاد من لا علاقة له بالموهبة أو الإبداع أو الفن، والقضاء على الانتقائية التي تهمل النوع على حساب الكم، ومحاولة إنهاء الوساطات، والمحسوبيات والمنسوبيات، لكي لا تكون النتيجة بيع الجوهر بسعر الفحم والفحم بسعر الجوهر وليوضع كل نتاج في مكانه الصحيح..

المجموعة:

تتكون مجموعة (هديل على الحدود) من ست قصص، وقبل أن نغوص في بحارها، نتوقف على العنوان: الهديل.. صوت الحمام، لماذا الهديل؟ في كل بيت عراقي هناك حمام، يربيه أحد سكان البيت، أو كلهم، أو يتركونه بينهم من دون الاهتمام به حتى يصبح مألوفا لديهم ويصبحون مألوفين لديه.

احترام العراقيين للحمام لا يمكن أن يشاهد له مثيل في أي بلد آخر.

في سنة ١٩٩٦ عندما ذهبت الى مصر لتسلم جائزة نادي القصة، عن روايتي (نهاية النهار) دعاني (محمود أمين العالم) و(ماجدة الطهطاوي) على حمام محشي، وكنت أظن أن الحمام عندهم يعني الدجاج، لكني فوجئت بالحمام العادي الذي يحرم العراقيون أكله، لا بل رأيت في أم عيني عندما كنت طفلا في (محلة الساعة) وهي قريبة من بيت فاروق أوهان تجمعا لتأبين شخص مات دفاعا عن حمامة، في بلدي أناس يتغزلون بالحمام، هذه مطربشة، هذه مقنعة، هذه محجلة، هذه طاؤوس.. الخ.

إذا فاختيار كلمة "هديل" مقصود لكونها كلمة جذب مغناطيسي لواقع البيئة واختيار كلمة "الحدود" مقصودة أيضا لكونها كلمة طرد فيزيائي معادل للجذب، فالعراقي عراقي حتى لو نفي، حتى لو اختار المنفى، تلك هي المعادلة الصعبة، اجتماع النقيضين.

لكن كلمة الهديل بالرغم من قصديتها ملبسة، تتداخل فيها المعاني والأغراض، ولهذا قال المعري:

أبكت تلكم الحمامة أم غنت   على غصن فرعها المياد

المعري معذور لأنه لم يفرق بين البكاء والغناء لأنه عاش في العراق حيث يختلط الحزن بالفرح، اللطم بالرقص، النصر بالهزيمة منذ فجر الخليقة والى الآن.

الهروب:

تتكون المجموعة من ست قصص لا يجمع بينها جامع سوى "الهروب"، وربما يتصور المرء أن الهروب ثيمة سلبية لا إيجابية، لكنها في المنظور العراقي المحلي المشبع بالروح الدينية التي تتخذ من سيرة الرسول مثلا أعلى يصبح الهروب إيجابيا، فلقد دعا القرآن المستضعفين في الأرض الى الهجرة، وبناء على ذلك هاجر المسلمون ثلاث مرات كانت الأخيرة حاسمة بالنسبة إليهم، وبهذا رسم الشعب العراقي طريقة التخلص المثلى من الدكتاتورية والظلم بالهجرة والمنفى بعد أن عرض أذكياؤه وطليعته ومفكروه للقتل والإبادة والتجويع والتنكيل.

لهذا كله يكون فاروق أوهان أمينا على واقعه، صادقا مع نفسه، وهذه ميزة تكاد تفقد في عصرنا الحاضر بين الأدباء والكتاب، حيث ابتز النظام المفكرين والمبدعين بلقمة العيش، بالحرية، بالحياة، بنسمة الهواء.

أما التفصيلات فكما يأتي:

١- **فرس الخضر:** قصة جندي بريء يرى نفسه بين فئتين شقيقتين تذبح إحداهما الأخرى من دون تفكير، فما عليه بعد أن يعي حقيقة الحرب التي دامت عقودا طويلة إلا أن يهرب الى حيث لا مهرب، كان يريد أن يتخلص من كلا الطرفين المتحاربين، لا لأنه يكرههما، بل لأنه يعز عليه أن يراهما يقتتلان فمن الأولى انحدر ذوو والده ومن الثانية جاء ذوو والدته، لكن ما إن يبدأ بالهروب حتى تأتي رصاصة من إحدى الفئتين تقتل فرسه، بينما تأتي رصاصة ثانية من الفئة الثانية تقتله:

وأشعرني أغوص في الموت الدافئ وسائل ساخن ينزلق على ظهري، فلا أرى لمصدره مكانا فهل هو دمي الذي يشخب من عروقي..

وهكذا يشترك الطرفان المتحاربان في قتله، وربما كان هذا هو معنى الانتصار، انتصار الجبناء الذي يفهمه القتلة، وهو قتل الأبرياء فقط، لقد اعتاد العراقيون في أزمنة الخيانة والغدر أن لا ينتصر جيشهم المقدام إلا على شعبه.

٢- **بوتقة الصمت:** هارب آخر لكنه يختلف عن بطل فرس الخضر، هذا الهارب ينجح في الوصول الى منفاه، يعمل، يستقر، لكنه يصاب بداء لا وجود له، وهو الماضي الذي يعود بما يشبه الأحلام، فيجعله يضطرب ويخطئ فيعرض نفسه للفصل.

وتتكتك ساعة الحائط فوق رأسه، وهو يهيم في دروب الصدى المتردد والمتراجع، كرنين دقات الساعات في أسواق (هونك كونك) المفتوح على الخارج بكل عواهرها، وسماسرة الدعارة..

يهرب من سيف على الرقبة في وطنه، ليجد الرقبة الهاربة نفسها تحت سيف مدير متسلط في المنفى يجتث أحلامه، فماذا يفعل؟ لا شيء غير الانكفاء الى الذاكرة التي تهرب بدورها الى محيط الدعارة في هونك كونك، وكأنها بذلك تضع كل المتسلطين في مستنقع الجيفة والتفسخ..

٣- **هديل على الحدود** وهي عنوان المجموعة وهي قصة هروب عائلة تتفرق كلها خوفا من الاعتقال والموت، بعد أن انكشفت الخيوط التي تربط المعارضين..

ففي الصباحات الباردة من أواخر كانون الأول، أجبرت على سفر مفاجئ الى غربة طويلة الأمد داخل الوطن، بل اختيار أو قرار، لأن العودة الى الدار فناء وشيك لا محالة..

كان هناك من يتعقبه، وكان هناك ضحايا كثر سقطوا، ومنذ ذلك الوقت تبدأ رحلة العذاب..

٤- حمدة معشوقة نوزاد، وهي قصة فرس (حمدة) يربيها ويتعلق بها مواطن كـودي (نوزاد) لكنها تتكسر قوائمها فيتوجب عليه أن يقتلها، لم يستطع، يهرب ويلقي المسـؤولية على رفيق له.. وهذه القصة تنتصب لنا كمعلم عراقي أدبي لا لأخوة العـرب والأكـراد الأزلية ساعة المحن حسب، بل للرفق بالحيوان وحبهم له وبخاصة في الأرياف:

ويودع نوزاد بالتفاتات متكررة روح وجسد معشوقته، ويحـس بأنفاسـها تتسـلق أدراج غيمة فوق جدول سيد صادق، والمياه تجري من تحته بسكون وصمت حزين.

٥- (كانت) قصة حبيبين يتزوجان حديثا لكن الزوج مصاب بداء الذكريات، ويحـب أن يحدث زوجته عن طفولته في قرية بامرني، وبساتينها، وجمالها، وأناسها، طفولته التـي يهرب إليها كل يوم، كل ساعة، ثم يحلم بأن يحقق حلم الهروب، وعندما يتسلم سيارته بعد خمس سنوات من الانتظار يصحب زوجته من جنوب العراق حتى شماله، ليحقق حلمـه، يذهب الى كل الأماكن التي عاش فيها وأحس بالسعادة والفرح، لكنه يفاجـأ بـأن القريـة مسحت من الخريطة لوقوعها بين فئتين متحاربتين، الجيش من جهة والبيش مركـة مـن جهة أخرى، وفي الكارثة يقتل من يقتل من سكانها ويرحل من يرحل، فـلا يبقـى منـهم سوى مجنون ومعزة.. وفي القرية تدمر قذيفة سيارته الجديدة، فكأني بالكاتب يريد لـه أن يبقى ليستأنف الحياة مع زوجته هناك، أو كأن القدر يريد له أن يموت في نفـس المكـان الذي ولد فيه، لكن آمر الجيش في تلك المنطقة يكافئه على حرق سـيارته، بـأن يرجعـه وزوجته بهيلوكبتر عسكرية، وإذ ينظر من الأعلى يرى الحرائق والدمار الذي حل بمـهد ذكرياته، لكنه يخشى من تدقيق النظر:

وخاف أن ينظر مجددا لكي لا يرى مفاجأة أخرى تمحو أو تخلـط مـا تبقـى مـن ذكرياته، كأن يرى الأرض وقد صارت بلون النبيذ القاني، لهذا أغمـض أجفانـه، ولـم يفتحها إلا عندما شعر بهبوط الحوامة على الأرض..

الهروب هنا هروبان، هروب من الذاكرة، وهروب من القمع.

أما أجمل القصص وأطولها فهي قصة: **حنين بلا ضفاف**.. ولسـت أدري لمـاذا لـم يكتبها رواية، فالموضوع طويل ومعقد وله تفاعلات تليق برواية، لكنه آثـر أن يختصـر الحوادث ليجعلها قصة قصيرة، وهو حر في موضوعاته.

حنين بلا ضفاف رائعة بكل ما للكلمة من معنى، إنها تصور محنة العراقي في وطنـه وهروبه ومنفاه وتشرده في كل بقاع الأرض هو وأطفاله وقدره ومصيره.

تبدأ القصة بدخول يونس المنفي عن وطنه الى شقة أجرها لبضعة أشهر يقضيها فـي

بودابست ليكمل فيها بحثه، وفي الشقة تقع عيناه على مخطوطة تعود الى ساكن البيت السابق، وشريط فيه بعض التسجيلات، ومن المخطوطة والتسجيلات يكتشف أن من كان يسكن هنا عائلة عراقية تعاني من نفس مشكلته، هاربة من العراق، وأن هذه العائلة قد أجبرت على مغادرة الشقة لأنها تجاوزت قوانين الإقامة..

الحنين:

تحدث قصة **حنين بلا ضفاف** كما رأينا في المنفى، لكنها في الواقع تعيش في جو عراقي صرف، محدد بالمنطقة الشمالية منه، الموصل وما حولها، هناك تبدأ الحوادث لتتنامى في الغربة، يبقى الوطن مسيطرا، هناك جذور لم تنقطع، لا بل لا يمكن قطعها، هناك الأهل والطفولة والأولاد يعيشون ويلعبون ويدرسون ويتطورون، يمتزج الماضي والحاضر في دمائهم، تتداخل البيئتان في عيشهم، في صياغة أحلامهم، في تكوينهم، وعندما يجدون موطئ قدم لهم في بيئة جديدة غريبة عليهم يكيفونها حسب مقاسات كانت موجودة لديهم من قبل في الوطن، ولذلك تبقى لصيقة بهم، لا تنسلخ منهم كما لا يبقى الوطن بعيدا قط، لا يمكن أن ينسلخ.

ومن هنا يبدأ الشيء الرقيق الرهيف المعنوي الذي يطلق عليه الناس الحنين، ويخيل إلي أن الحنين ما هو إلا خيوط الابريسم الحريرية القوية والرقيقة معا والتي تشدنا الى الماضي وأحداثه، فكيف صوره فاروق ونجح في تصويره؟

ولأن يونس رأى النور وترعرع في مدينة تقع على ضفاف نهر فهو يفضل أن يعيش في مدن مشابهة، فمن شقته الجديدة:

يشرف على جزء هام من المدينة حيث النهر ينساب أمامه، تحت الجسور الستة التي يراها من هنا، ويرى النهر واضحا من المكان الذي يجلس فيه..

النهر وأشياء كثيرة أخرى سنراها مربوطة بخيوط الابريسم الحنينية فعندما فتح الثلاجة وجد رأس تلك الخيوط:

فاحت رائحة غريبة ذكرته بروائح سوق السراي في مدينة الموصل، فانتصبت دكاكين البقالين أمامه، منبعثة من خلال رائحة ماء عين كبريت، وقد امتزجت فيها روائح الهال والعطرة والمستكي والجوري والناس يذهبون ويعودون من مكان الى آخر، والباعة يعرضون بضائعهم المستديمة.. و..

ولأن يونس وحيد ليس عنده من يؤنسه فقد اشتد حنينه الى الوطن عندما رأى آثار

أطفال كانوا يعيشون في البيت، ثم بعد ذلك رأى الشريط الذي أحدث انقلابا في اكتشافاته، ووجد كذلك مجلات عربية، وأخرى لمنظمات ممنوعة في الوطن، ثم آثارا تدل على أن العائلة كانت تعيش على: راتب **الإعانات الحكومية الذي لا يكفي**، ثم يحدث ثاني اكتشاف بعد الشريط، اكتشاف مذكرات تبدد أسرار العائلة، وفي هذه اللحظة أحس يونس أنه ربط حياته بحياة من كان يعيش في البيت، **وكأنه كان يعيش في بيت مسكون بالأرواح**، وتتداخل القصة بلذة الاكتشافات.

في المذكرات تحتفي العائلة بضيف يحل عليهم احتفاء كبيرا، ومن بعد نكتشف أن هذا الضيف ليس غير طائر لا أكثر، ولأن الطائر يجب أن يكون فردا من العائلة، ولما كان لكل فرد منهم اسما فعليهم أن يطلقوا عليه اسما كذلك:

أجروا استفتاء على الاسم الذي سيدعونه به، فقد كانت رغبة البنت الصغيرة أن يكون الاسم هنغاريا، واقترحت اسم أرباد ولكن الولد كان يصر على اسم يمام، اسم ابن أصدقاء العائلة في مدريد، سرعان ما غير رأيه الى عراق اسم ابن صديقتهم التي حصلت على لجوء في ألمانيا، أما الأم والأب فقد كان في ذهنهما اسم مشترك بينهم وبين الوطن هو سلمان رغم أن سلمان الذي تعلق صورته في الصالة يراه الصغيران أكبر بكثير من أبيهم..

هنا تعود خيوط الابريسم الحريرية لتحدث التداخل بين يونس والعائلة العراقية المنفية التي سكنت الدار، وبين أسباب النفي، فبالإضافة الى أن الطائر كان نقطة يتركز فيها الحنين الى الوطن إلا أنه أصبح الرابط الرئيس، لأنه استرعى انتباه يونس منذ البداية عندما رآه على غصن شجرة قرب البيت في عش بدائي غير كامل، ولما كان يونس يفتقد طيور بلده الأليفة فما أن رأى قفصا مهجورا في البيت حتى بدأ يخطط لجذبه الى القفص، ثم:

فرح كثيرا لأن حيا آخر ربما سيشاركه في بيته الجديد، لو استطاع أن يستدرج هذا الطائر الى هذا العش، ليعيش مستأنسا، مع كائن حي يبعد عنه وحشته الدائمة..

فأصبح وضعه وضع العائلة العراقية التي ما إن رأته حتى استضافته، وبقي معها الى أن غادرت، لكن يونس وقد فتح الطائر شهية ذاكرته، يسمع تغريدا لم يستطع تحديد مصدره:

فتظل أعينه ورأسه معلقة الى فوق بشكل مشدود، وقد تداعت إليه أصوات كل الطيور في وطنه وبخاصة الفواخت في أعلى شجرة توت حوش دارهم الخلفي، ويبقى

يونس منتعشا رغم تعلق رأسه وعينيه الى أعلى بوضع مؤلم جعله يفيـــق، وهـــا هـــو يسمع غناء طائره وقد شق الفجر مبسمه على الدنيا.

ثم يخترق الطائر أحداث القصة مرة ثانية، يأتي رأس العائلة التي كانت تســكن فـــي البيت، ليسلم النسخة الثانية من المفتاح، فيتلقاه يونس بحميمية لأنه كان يعرف كل شـــيء عنه وعن عائلته، وبعد البوح اكتشفا أنهما أقرب الى بعضـــهما ممـــا يتصـــوران، فلقـــد وحدتهما أكثر من نقطة، كلاهما منفيان، لهما الهموم نفسها، المصير نفسه، وعندما افترقـــا قرر يونس أن يعتني بالطائر، لكن الطائر لقي حتفه بعدئذ على يد نسر متوحش.

أرمز فاروق بقتل الطائر الى نهاية القضية التي توحد العراقيين المنفيين؟

نعود الى البداية.. السؤال: ما علاقة **حنين بلا ضفاف** بلذة الاكتشاف؟

قد نذهب الى قطر جديد فيه أجمل مناظر الدنيا، لكننا لا نهتدي الـــى الطريقـــة التـــي نستطيع أن نكتشف فيها أسرار جماله، لا نكتشفها لأننا لم نتعلم كيف نســـتخلص الأســـئلة التي تقودنا الى تلك الأسرار، وبذلك نرجع بخفي حنين.

إن **(حنين بلا ضفاف)** تكشف لنا مرابع الطفولة، أغانيها، ألعابها، قصصـــها، جوهـــا الرائع اللطيف بعواطفه، بمشاعره، برؤاه البكر، وكيف ترتبط تلك الأشياء كلـــها بخيـــوط الحرير تمتد الى القلب، والمشاعر، والوجدان، أيمكن أن تكون قد علمتنا لذة الاكتشـــافات الحميمة الى القلب؟ ولعل خير الاكتشافات هي اكتشافات الداخل، فكيـــف نكتشـــف الدنيـــا ونحن نجهل أعماقنا.

عرض مسرحي في برلين

مجيد القيسي

(العبد والسيد) مسرحية عراقية قدمت على مسرح (دار الثقافات العالمية) في برلين، مطلع شهر نيسان ١٩٩٩. المسرحية من إخراج الفنان (عوني كرومي) وتمثيل الفنانين (خليل شوقي ومنذر حلمي) وهي باللغة العربية الفصحى. تتخلل الحوار عبارات عامية باللهجة العراقية. ورغم ذلك كان هناك حضور ألماني الى جانب الحضور العراقي والعربي الذي نادرا ما تتهيأ له إمكانية رؤية مسرحية عراقية أو عربية في برلين.

بدأ العرض الأول الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة المصادف ١٩٩٩/٤/٢.. رفع الستار عن مسرح متواضع في تكوينه وبساطة محتوياته. في مقدمة المسرح تمثال الإله (مردوخ)، ظهره الى الجمهور ووجهه الى عمق المسرح وكأنه يترقب حركة الممثلين أو ربما كان هو أحدهم. وفي اليمين طاولة صغيرة، وفي اليسار منبر لف بوشاح أبيض، بجانبه طاولة وضعت عليها بعض الحاجيات الضرورية للمسرحية، كألواح الرسائل المسمارية وغيرها. وعلى اليسار مد بساط شرقي. وفي الخلف قرب الجدار وضعت شماعة علقت عليها بعض المعاطف وعباءة عربية. أما في الوسط فقد جلس السيد والشاعر في ذات الوقت ملتفا بوشاح زاهي الألوان الى طاولة مستطيلة انتشرت فوقها ألواح مسمارية متعددة، تبدو، عند رؤيتها للوهلة الأولى، وكأنها هدايا أحضرت للسيد الذي كان يقوم بدوره الفنان (منذر حلمي). ظهر السيد عند إزاحة الستار جالسا ثملا يبربر مع نفسه. وبالقرب منه كان العبد العجوز يعد تجهيزات سيده بصبر وأناة. نهض

السيد من مكانه يترنح، فلقد لعبت الخمرة برأسه. الزجاجة التي كانت بيده تبدو فارغة. لقد رشف آخر قطرة فيها.

تقدم العبد، الذي كان يقوم بدوره (خليل شوقي) بخطوات بطيئة حيث جلب معه دلـــوا من الماء، ثم شرع يرش الأرض ليبردها، كي ينعش سيده. وبنيما هو كذلك، بقـــي الســـيد يترنح على خشبة المسرح بلباسه المهيب وبخطواته غير المتوازنة، تتجاذبه الأفكار، فكـــل خيال كان يسحره، وكل فكرة تدخل رأسه كان يتباناها، ويتحمس، راقصا تـــارة، وشـــديد الحزم تارة أخرى. كل صغيرة وكبيرة لديه تعد مشروعا. كل أمنية، كل خيال، بدءا مـــن الطعام، ومرورا بمشاريع العشق والزواج، وانتهاء بمشاريع الثورة والدفاع عـــن الأهـــل والوطن. وما طرح مشروعا إلا وباركه العبد، وما استقر رأيه على مشروع طرحه قـــط. فقد كان قلقا الى حد لا يوصف. إن اضطرابه أصبح بالنسبة للمشاهد واضحا، كذلك هـــو الحال بالنسبة للعبد، كان يبارك ويلعن كل مشروع، انسجاما مـــع مـــزاج ســـيده، ولكـــن مباركته ولعنته لا تخلو من السخرية والحكمة. إنها كما يقول المثل "بلية" و"شر البلية مـــا يضحك".

وكم سر العبد عندما تفتحت أسارير سيده وشعر بحاجة الى الطعام "أريـــد أن آكـــل". أجل يا سيدي. لابد أن تأكل كي تستطيع أن تكتب. وبينمـــا كـــان يـــهم بـــإعداد الطعـــام والشراب. غير السيد رأيه، فحاول العبد عبثا إقناعه: يا سيدي: "إن الإله مردوخ يبـــارك كل من يغسل يديه قبل الطعام". لقد كرر مقولة الإله ثلاث مرات دون فائدة. رفض الســـيد رجاء العبد ولم يأكل ولم يشرب ومضى يتصرف مثل مجنون وحكيم في آن واحـــد مثـــل شجاع وجبان في ذات الوقت. وكان العبد رغم حكمته ودرايتـــه صـــدى لأفعـــال ســـيده، يباركها بحكم الطاعة، ولكنه ما لبث أن سئم خدمة سيده وهم بالانعتـــاق والرحيـــل عنـــه. وأخيرا استشاط غضبا عندما رأى سيده غاضبا يزأر من الكســـل والســـأم. تقـــدم بضـــع خطوات نحو مقدمة المسرح ثم انحنى نحو الإله مردوخ فانتزعه من مكانه وأتى به الـــى سيده قائلا: "اقتلني إن شئت بهذا الإله" أو بهذه الفأس. ثم أعلن عن انعتاقه بنفســـه: "أنـــا لست عبدا لك وأنت لست سيدا لي..." أنا راحل عنك..

لقد أصاب السيد الذهول وأدرك غضب العبد، فتناول لوحا فارغا من ألواح الطين ثـــم أمسك بمسماره وتضرع للعبد بالبقاء: لا تذهب عني يا عبدي، سأبدأ بالكتابة، لا تتركني يا عبدي. إلا أن العبد أبى إلا أن يرحل. نظر الى سيده نظرة الفراق ثم حمل فأسه على كتفه الأيمن وقبل أن يغادر المسرح استدار نحو سيده وكأنه يواسيه: سأعود إليك عندما تعـــود

الى الكتابة. وبينما شرع السيد بالكتابة يحفر بمسماره نزل العبد من سلم المسرح بخطوات بطيئة وسار بجوار الجمهور حتى أضيئت الأنوار وأسدل الستار فصفق الجمهور لانتهاء العرض الذي كان قصيرا.

إن هذا العمل الفني هو محاولة نقدية للأوضاع السياسية في العراق، في بلاد ما بين النهرين. فمن خلال الرمز التاريخي للعراق القديم أراد المخرج (عوني كرومي) أن يضع تبعة مأساة البلاد على عاتق المثقفين الذين أثبتوا عجزهم عن القيام بشيء، عجزهم حتى عن الكتابة والتفكير. فلم يعد يشغلهم شيء سوى احتساء الخمرة، ومواصلة الهذيان، وكثرة الجدل، وقلة الفعل والعمل. إن "الشاعر" السيد يحاول التشبث بكبريائه، ويراوده الشعور على الدوام أن العباد أذن صاغية له. أما العبد فقد سئم الهذيان، وأذن لنفسه بالرحيل. وبرحيله تبدأ مرحلة جديدة تنذر بتغيير التوازن الاجتماعي وتضع العبد والسيد على قدم المساواة، وتحذر السيد مما هو عليه. فبدون استعادة النشاط، وبدون تحريك العقل والعودة الى الكتابة، فإن الرحيل سيكون أبديا وإن الكارثة ستكون أكبر.

فإذا كان هدف المخرج من تجاوزه على النص الأصلي كثيرا، هو الوصول الى وضع "السادة المثقفين والشعراء" في قفص الاتهام، فهو لم يتمكن من بلوغه، لأن السيد والعبد – كما شاهدنا – كلاهما ضحية، كما أن هناك حقيقة أغفلها المخرج وهي أن الطبق رغم سعته لا يصلح للجميع، وأن المقاييس مختلفة نوعا ما، فهناك من عاش وعشق وتزوج في مقابر الشهداء، وهناك من أكل وتكرش ولم يغسل يديه "ومردوخ يبارك من يغسل يديه قبل الطعام".

برلين ١٠/٤/١٩٩٩



أي منطاد للقرن الجديد ؟!

قرننا العشرون بدأ بمنطاد (زبلن)، واختتم بمنطاد (برايتلينغ اوربيتز ٣).. وذلك – لعمري – فأل حسن لنا – نحن أبناء القرن العشرين – فقد تحقق لنا حلم الطيران على أحسن ما يكون وأسرع، وإن كان، في الوقت ذاته، على أبشع ما يكون وأفظع، إذا ما نظرنا الى انحراف العلوم الإنسانية الخادمة للإنسان، نحو مرام مدمرة له ولحضارته الباهرة.

إن حلم التحليق لهو الحلم الأهم في تاريخ البشرية.. وحتى لو أن الإنسان لم يحقق حلم (إيكار – فرناس)، فإنه كان وسيظل يحلق، لأنه الوحيد – ربما – من بين كل المخلوقات، الذي له الطوبى في نعمة الخيال البعيد المحلق الى أبعد مما تستطيعه كل المخترعات التي ابتكرها أو يبتكرها، أو سيبتكرها.. وإذا كان منطاد (زبلن) فاتحة لعصر الطيران، فإن (برايتلينغ اوربيتز ٣) يمثل لي – شخصيا – تأكيدا للمعنى الإنساني للطيران، لا للمعنى النفعي، بل هو ينطوي على تأكيد روح المغامرة الناصعة، بعيدا عن النفعية.. تلك النفعية المباشرة والقبيحة التي شوهت معظم أنشطة الإنسان ومنجزات الحضارة الإنسانية.

أقول هذا، لأنني أرى أن المحاولة الجديدة للطيران بالمنطاد، بعد كل ما حققه علم الطيران خلال هذا القرن، هي محاولة لتأكيد براءة الحلم الإنساني بالتحليق الذي يعنى بالروح الإنسانية، قبل أي شيء.. وحتى لو كانت تجربة التحليق الناجح حول كل العالم بمنطاد، من قبل السويسري (برتران بيكار) والبريطاني (بريان جونز) نوعا من المغامرة الشخصية، أو لإبراز العضلات الشخصية، فإنها تظل علامة فارقة للنزعة الإنسانية – الطفولية التي لا يمكن قمعها، مهما استبدت القوة، والقنبلة، والحروب من كل نوع.. من حرب الأسعار، حتى حرب النجوم..

.. وحتى لو كان المواطنان برتران السويسري، وبريان البريطاني قد حققا نزوة شخصية، فإنهما، بالمحصلة، قد حققا حلما مكبوتا لدى البشر العزل، إزاء القوة، والقنبلة، والحروب من كل نوع.. ولقد حققا – ربما دون قصد – قولا يخامر النفس البشرية الضائعة، أواخر هذا القرن العشرين.. قولا لابد منه.. قولا يذكرنا بأننا قادرون على التحليق حتى بدون مركبات فضائية، أو طائرات نفاثة.

أخيرا، لابد من تصور منطاد من نوع جديد ومجدد لحلم الإنسان على كوكبه.. لابد من منطاد يؤكد الحلم البشري الخالد.. لابد من منطاد نوعي نفتتح به الألفية الثالثة لأرضنا.. منطاد نجابه به حمى التسلط على حلم الإنسان.. حلم التحليق الحر، والسعادة المطلقة، حتى وإن كانت خيالا، مادام تحليقا يستبعد القوة، والقنبلة، والحروب من كل نوع!

م. م. علي

اصدارات وردتنا

أنور المائي: الأكراد في بهدان، الطبعة الثانية، دهوك ١٩٩٩.

د. سلمان شمسة، د. عدنان جواد علي: البيئة وتلوثها بالأمطار الحامضية، منشورات الجا – مالطا ١٩٩٨.

رشيد الخيون: معتزلة البصرة وبغداد، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، دار الحكمة، لندن.

هيفاء زنكنة: ثمة آخر، مجموعة قصص، دار الحكمة.

علي الشوك: الأوبرا والكلب، رواية، دار المدى.

شاكر الأنباري: موطن الأسرار، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٩.

سلام صادق: ما يمكن فضحه عن علاقة أبي بكافكا، قصص، منشورات الجميع للكتاب العربي، السويد ١٩٩٩.

العراقي: مجلة عراقية إلكترونية تصدر من أستراليا، شهرية، أدبية، سياسية، العدد الثامن، تموز ١٩٩٩، ساهم فيه: علاء مهدي، عدنان الظاهر، خالد الحلي، علي إبراهيم، يحيى السماوي، عبد الرزاق الصافي، عبد الوهاب طالباني، د. محمد حسين الأعرجي.

تموز: مجلة فصلية عامة تصدرها الجمعية الثقافية العراقية في مالمو، العدد ١١، صيف ١٩٩٩، ساهم فيه: عدنان الصائغ، ابراهيم اسماعيل، هيفاء الأمين، سلام عبود، د. عبد السلام عبد الوهاب الخزرجي، ماجد محمد، كاظم رشيد، م. محمد، عبد الوهاب البياتي، موفق محمد، دنيا ميخائيل، ادريس علوش، عذاب الركابي، عبد الرزاق الربيعي، رياض النعماني، ابراهيم أحمد، أسعد الهلالي، صلاح أحمد، رافد سلمان، صباح الجزائري، حامد العامري، أكرم عامر، د. جاسم الحافظ، أبو نبأ.

اصدارات وردتنا

العراقي: مجلة عراقية إلكترونية تصدر من أستراليا، شهرية، أدبية، سياسية، العدد التاسع، السنة الثانية، آب ١٩٩٩، ساهم فيه: علاء مهدي، يحيى السماوي، خالد الحلي، فراس عبد المجيد، عبد الوهاب طالباني، عبد الإله الياسري.

أجراس: مجلة فصلية، مستقلة، تهتم بشؤون الفكر والأدب والثقافة، العدد ١٠، ساهم فيه: إبراهيم عباس ابراهيم، جيان الحصري، إدريس حسين، عبد الحليم يوسف، محمد علي عزيز شاكر، إسماعيل كوسة، باهوان عزيز أحمد، خالد حسين، عمر كوجري، ليلوز عبد الغني، إسماعيل رسول، عماد مصطفى، باقي دارا، محمود حسن الحاج، صبري رسول، رشاد شرف، أنا هيتا.

الاشتراك السنوي

٥٠ دولارا أو ما يعادلها

١٠٠ دولارا للمؤسسات

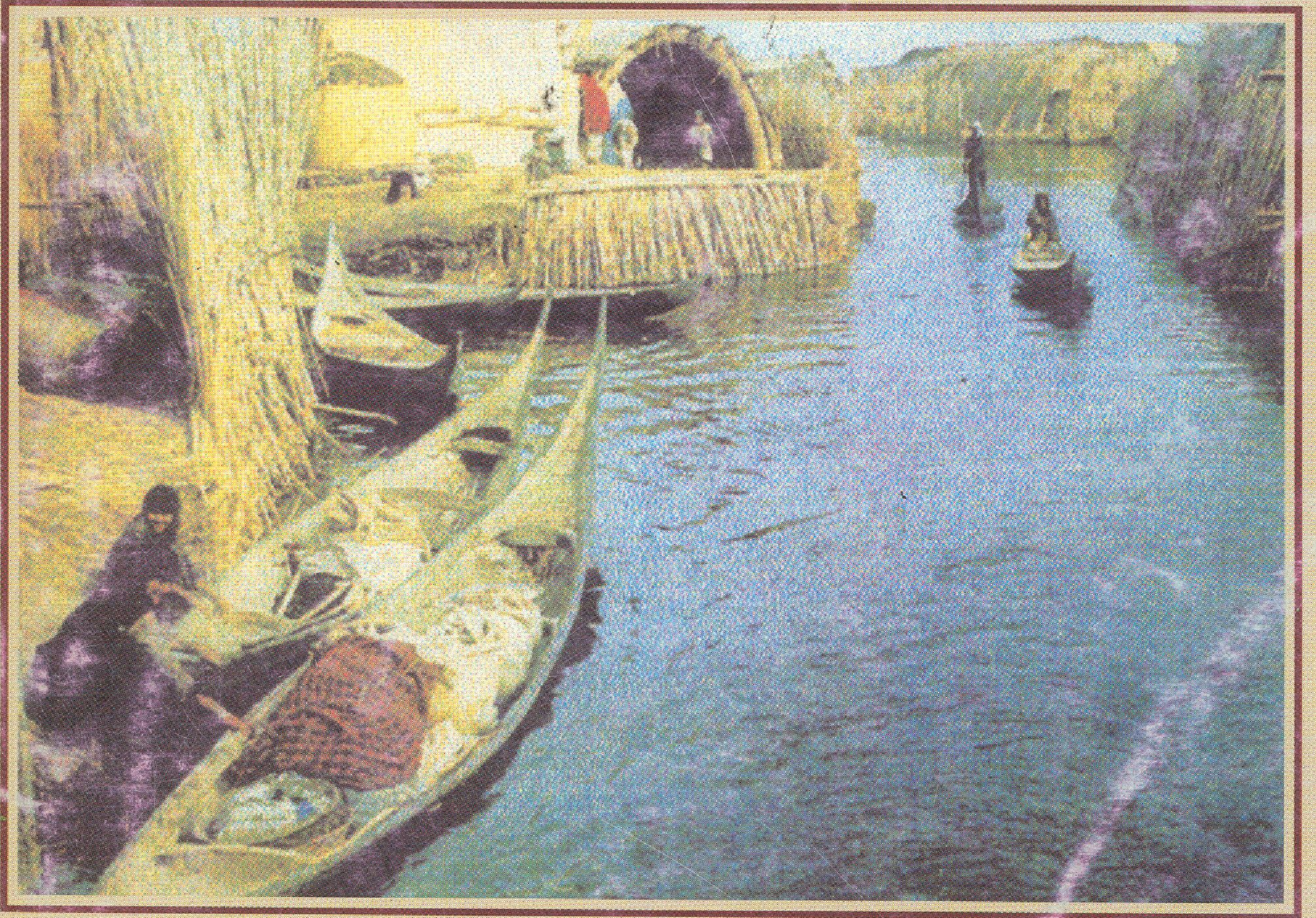
يدفع مقدما بشيك مصرفي الى رقم الحساب ٤٦٧١٢٧-٤٢-٤٢

ANI HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE
Bar Elias, LEBANON

أو يدفع الى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب: ٧١٢٢. تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤



السعر عشرة دنانير